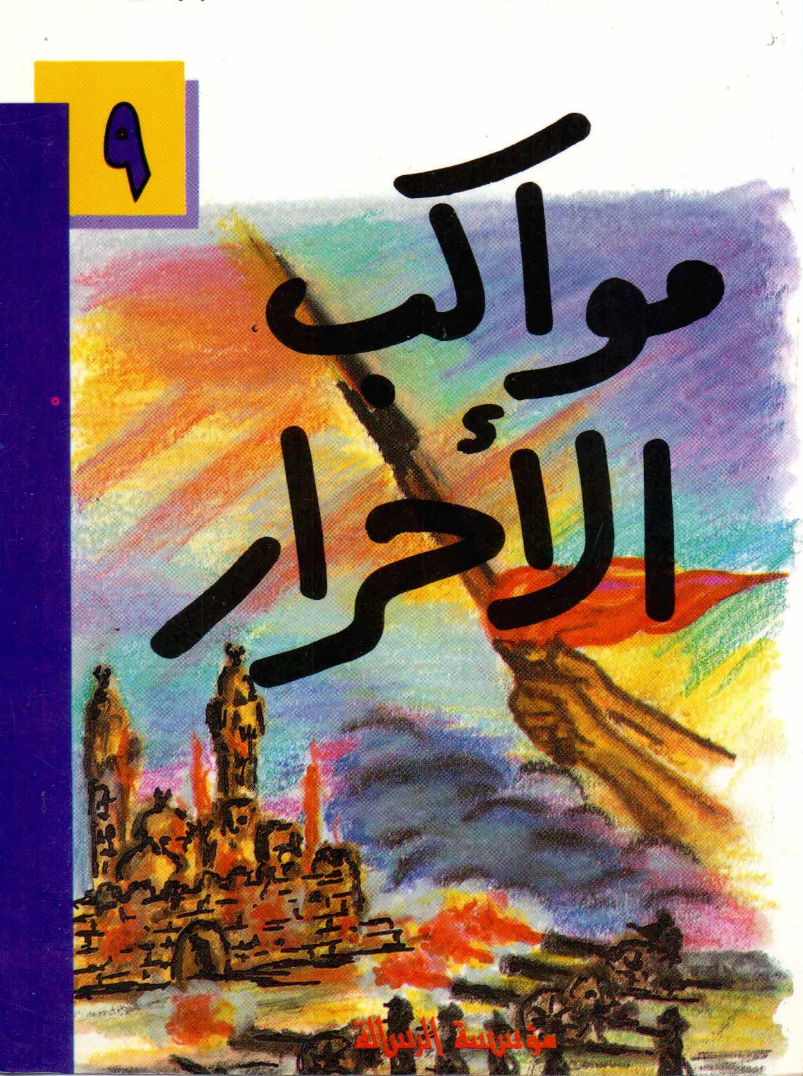
روايات

نجيب الكيلاني



تطلب جميع منشوراتنا من :
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران


مواكب الأحرار
« رواية »

الطبعة السادسة

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م



مؤسسة الرسالة بيروت - وطى المصيطبة - مبنى عبد الله سليت
تلفاكس : ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣ - ص. ب. ١١٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

Al-Resalah
PUBLISHING HOUSE
BEIRUT / LEBANON - TELEFAX 815112 - 319039 - 603243 - P O BOX 117460
E-mail: Resalah@Cyberia.net.lb : البريد الإلكتروني

نجيب الكيلاني



« رواية »

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

بولاق في أواخر القرن الثامن عشر . .

والسفن ترسو بالميناء الشهير حاملة شتى أنـواع البضائـع من أنحاء الأرض . . وقصور الكبار من رجالات القاهرة تقف شامخة ، كقلاع صغيرة ، وأغلب هذه القصور يسكنها المماليك والأتراك ، وعـــدد قليـل من المصـــريين الأثـريـــاء كـالتجـــار وأصحـاب المناصب . . وخلف تلك القصور الشامخة وحـدائقها الشـائقة ، تقبع البيوت الصغيرة الكثيرة ، حيث يعيش أبناء الطبقـة الدنيـا ، وفيهم أصحاب الحِرَف الصغيـرة ، والباعـة المتجولـون ، وصغار تجـــار التجـزئـــة ، وفقهـاء «الكتـــاتيب» ، والخـــدم والخفـــراء وغيرهم . . .

والحـركة في بـولاق دائبة لا تكـلّ ، وأصـوات البـاعـة تمـلأ الـطرقات ، والنسـوة يسِرْنَ متّشحـات بالمـلابس السوداء ، على وجوههن خُمر شفافة ، تزيدهن جاذبية ورقّة ، وعدد من الأطفـال الحفاة يتخبطون ويسرسعون هنا وهناك ، ومن آن لآخر تظهر عربة

مزركشة محلاَّة بالمعادن الثمينة، تجرُّها الجياد المطهمة، يسبقها إثنان أو ثلاثة من العبيد المهرولين، وبداخلها مملوك كبير المقام، أو تركي من علية القوم، ترتسم على وجوههم سيماء الكبرياء والثقة التي لا حدَّ لها. . . وقد يخترق الشارع فارس من رجال مراد بك أو إبراهيم - قادة المماليك وحكام مصر - في رعونة وطيش، دون أن يخشى زجراً أو عقاباً. . .

وفي مكانٍ لا يبعد كثيراً عن ترسانة بولاق الشهيرة، كان يوجد منزل الحاج مصطفى البشتيلي، أحد كبار التجار. لم يكن منزله قصراً منيفاً كباقي القصور، ولم يكن متواضعاً كبيوت الطبقة الكادحة، وإنما كان في مكانة بين الإثنتين، يتكوَّن من طابقين، يملي واجهته عدد من المشربيات البسيطة الجميلة، وعلى مقربة من الباب الضخم تسمق النخيل ذات العقود الحمراء. وبيت الحاج مصطفى ينقسم إلى قسمين: القسم الأمامي حيث حجرات إستقبال الضيوف، وحجرات الطعام، وبعض حجرات النوم المخصصة للغرباء والزوار، أما القسم الخلفي فهي المأوى الحقيقي لأهل البيت: النساء والأطفال والخدم.

وفي حجرة الإستقبال الرئيسية جلس الحاج مصطفى، وحوله عدد من الأصدقاء فيهم الشيخ «علي الجنجيهي» مقرىء القرآن الكفيف وصاحب الصوت الرخيم، وفيهم العالم المتبحِّر «الشيخ إبراهيم سلامه»، و«أحمد المدبولي» صاحب الخبرة في صناعة البارود والسلاح، والحاج غمري التاجر الصديق، وغيرهم من الشيوخ والشبَّان. .

كان الوقت مساءً بعد صلاة العشاء ، وقنديل زيتي ضخم يتدلى من وسط السقف معلقاً من سلسلة معدنية مزدوجة . . . الجميع يخيِّم عليهم الصمت ، وتوهج القنديل ينعكس على وجه الحاج مصطفى البشتيلي ، فيشي بما يعتمل غي نفسه من انفعالات شتى . . .

إنه لا يعرف كيف يتلقى الأمر، ولا كيف يزنه الوزن السليم. . كل شيء في هذا العالم من حوله مضطرب متناقض، والحياة تمضي على نسقٍ غريب يثير التقزز والغثيان، أشياء كثيرة تؤرقه وتؤلمه، ولطالما حلمَ بالتغيير، لكن كيف؟؟ إن العجز يحاصره من كل مكان، لكأنما قد قيدت يداه ورجلاه بقيود لا فكاك منها، لا . . . بل إن روحه هي الأخرى يشعر وكأنها سجينة مقهورة لا تستطيع التحليق والإنطلاق، لطالما فكّر في أن يثور. . أن يحمل سلاحه وينطلق في شوارع القاهرة وميادينها ومسامرها ليسحق الرؤوس العفنة، ويحطم كل القيَم السخيفة التي تشعره دائماً بالذلِّ والهوان . . لكنه وحده . . . والوحدة هي العجز . . . لكن لماذا يشعر دائماً أنه وحده؟؟ آه. . التجربة. . الناس كثيرون، والسخط يملأ القلوب، والألسنة الثائرة تعبِّر عمَّا يجيش في القلب من تمرد مكبوت. . لكن عندما يجدّ الجد يحدث الشلل. . ذلك المرض الخبيث. . يقف الناس مطرقين عاجزين، الخوف يقيدهم، والرهبة تخرس ألسنتهم، فقد أيقنت غالبيتهم أنه لا جدوى من أية تضحية. . الناس نائمون مخدَّرون. . لا. . لا. . إنهم ميتون. . هو لا ينسى يوم أن دهم بعض المماليك متجره،

ونهبوا قدراً كبيراً من تجارته وأمواله تحت سمع الناس وبصرهم، بل أمام عينيه هو. . ماذا حدث؟؟ الناس الذين طالما أحسن إليهم، ويسَّر لهم سُبل العيش، جمدوا في أماكنهم، وقد أفزعهم بريق السيوف ، وأصدقاؤه الخلصّ تواروا عن الأنظار مخافةً أن يحيق بهم الضرر، وأهل الحي كانوا يرمقون ما يجري من خلف النوافذ والأبواب المغلقة والمشربات، وهم يتمتمون «يا ساتر أستر». ولم يطق الحاج مصطفى آنذاك أن يصمت، بل صرخ لاعناً المماليك والأتراك والزمن الأغبر الذي كتب عليه فيه الذل والهوان، وحاول أن يحضر سيفه ويخوض معركة يائسة، لكن ابنته « زينب » تشبثت برقبته وكانت تقول له : « لتذهب التجارة إلى جهنّم . . ليذهب المال . . . ليذهب كل شيء إلى الجحيم . . . ولتبقَ أنت لنا » . أما زوجه فقد اعترضت طريقه في إصرار وحزمٍ لم يألفهما فيها من قبل وهمست : « لن تخرج من هنا إلاَّ على جثتي » . وابنه الحسين أطرق برأسه شاحب الوجه ، ولم يعبِّر بغير الدموع التي تنسكب على خدِّه . عند ذاك تطلَّع الحاج مصطفى حوله وتنهد . . آه . . يا له من عجزٍ رهيب ! . . إنها لحظات مؤلمة لحظات العجز تلك ، مليئة بكل الحقد البشري الذي لا حدّ له ، مكتظة بالسخط المكبوت الذي لو تفجَّر لحطَّم العالم بأسره ، لا شيء أبشع من العجز ، إنه رذيلة الرذائل .

طافت كل هذه الخواطر برأس الحاج مصطفى وهو يتوسط حلقة الأصدقاء بمنزله، وشعر بعد فترة بيد المقرىء المرح تزحف على كتفه وتربّت في حنان، وقال الشيخ علي الجنجيهي متصنعاً

البهجـة:

ـ لا أسكت الله لك حسّاً. . .

هزَّ الحاج مصطفى رأسه في حسرة:

ـ الحس تبلد يا جنجيهي . . أو قل إنه مات .

تظاهر جنجيهي بالضيق وقال :

ـ أتنوي إقامة مأتم من أجل إشاعة كاذبة؟

ـ كاذبة؟ أفق يا مولانا. . إنك لا تقلُّ غباءً عن مراد بك وإبراهيم بك.

تدخَّل الحاج غمري التاجر وقال:

ـ ليكن. . لو فرضنا جدلاً أن حملة فرنسية في طـريقها إلينـا فما يـزعجنـا ؟ لن يكـونـوا أسـوأ من المـماليـك ، ولا ألعن من العثمانلي . . لن يتغير الحال كثيراً ، وقد تـروج تجارتـك يا حـاج مصطفى .

إحتقن وجه الحاج مصطفى ، وبدرت نذر الغضب على وجهه المستطيل النحيل ، وبرقت عيناه في حدَّة ، وقال مهتاجاً :

ـ كلهم ملعونون. . لكن نحن!. . ما مصيرنـا؟. . وإلى متى نظل أُلعوبة في يد الغرباء والغزاة؟. . هل خلَقنا الله لنكون مَطيّة يركبها كل قادم من وراء البحر؟. . هل كتب علينا أن تبقى حياتنا سلسة متصلة الحلقات من الإذلال والضياع؟. .

ثم التفت إلى الشيخ إبراهيم سلامه، وكـان يجلُّه ويحترمـه، وقال:

ـ تكلَّم يا مولانا.

هزَّ الشيخ رأسه وتمتم:

إن ما تقوله يا بشتيلي هو الصواب، لكن لا تنسَ أن الأتراك والمماليك مسلمون مثلنا، لكن الفرنسيين شيء آخر.

ـ هذا لا يهم يا شيخ إبراهيم.. أين نحن من هذا كلّه؟ وإلى متى نظل أُلعوبة؟

ـ هذا قضاء الله يا بشتيلي، نسينا الله فوكلنا إلى أنفسنا، ونحن تقاعسنا، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله...

ومرَّت لحظة صمت قال الشيخ إبراهيم بعدها:

ـ ومع ذلك فأنا أشك في المراكب الإنجليزية التي رست بشط الإسكندرية ثم رحلت بعد أن أطلقت تلك الشائعة، لعلَّهم كانوا ينوون إلتهامنا، وأعتقد أن قوة الحكام العسكرية ـ على أسوأ الفروض ـ تستطيع أن تصمد أمام عدوان فرنسا المحتمل، وقد أكَّد إبراهيم بك ومراد بك ثقتهم الكاملة بالنصر.

إبتسم البشتيلي في غيظٍ وقال:

ـ إنه الغرور. ألم تسمعوا عن نابليون وتدويخه لأوربا؟ ألم تسمعوا عن أسلحتهم الحديثة؟..

قال الحاج غمري التاجر:

ـ نحن وراءنا تركيا بأسرها، والسلطان لن يفرِّط في شبر من مملكته.

ردَّ البشتيلي:

ـ السلطان في حالةٍ لا تسرّ، إنه يعاني سكرات الموت من الضربات التي يكيلها له أعداؤه في روسيا وغيرها.. ومع ذلك

فأنا أفكر في إتجاه آخر. . نحن! . نحن! . كيف نتصرف؟!

لقد ظلَّ أحمد المدبولي صامتاً طوال الوقت يستمع للحوار المحتدم، ثم نطق أخيراً :

ـ أما أنا ففي الإنتظار، وما عليَّ إلاَّ أن أُضاعف الإنتاج من السلاح والبارود، وسأبيع لمن يشتري ما عدا الفرنساويين . . . وأظن يكفينا نقاشاً، ولنستمع إلى الشيخ الجنجيهي .

تربعَّ الشيخ، ووضع يمناه على يمين وجهه، وتنحنح، ثم إستعاذ وبسمل وأخذ يقرأ: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدُّكم بألفٍ من الملائكة مسوَّمين، وما جعله الله لكم إلاَّ بشرى ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم». . .

٢

يا بنت «فرط الرمان» يا حلوة. . .

همسات كانت تدور كلما خطرت «هيلدا» الجميلة إبنة برتلمي الرومي، ويطلق عليه العامة «فرط الرمان» أما الطبقة العالية فتسميه برطلمين. وكان برطلمين يحبّ ابنته الوحيدة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً حباً ملكَ عليه فؤاده، ومن ثم كان لها أطوع من بنانها، لكأنما هو عاشق متيَّم يأسره عنفوان الحب وسطوته التي لا تقهر. ولشدة تمكنها منه وإستئثارها بلبه، لم يكن ليرفض لها طلباً، أو يوجه إليها عتاباً يخدش من كبريائها، أو ينال من تدللها. ومن ثم وجدت نفسها حرة طليقة تفعل ما يحلو لها،

فلم يكن أبـوها بمستـطيع أن يعتـرض على سيرهـا في شـوارع القاهرة في حارة النصارى أو الأزبكية، حاسرة الوجـه، محبوكـة الثياب، ولم يكن يجد حرجاً يذكر عندما يراها تجـالس سمّاره، وتجاذب أصدقاءه أطراف الأحاديث، بل كان يطرب عندما يـرى أحداً من رؤسائه المماليك أو الأتراك أو أحد فرسانهم يبشّ لها، ويحني رأسـه إجـلالاً لجمـالهـا، أو يحـاول جـاهـداً أن يختـار الكلمات المناسبـة ليطري حسنهـا الفتّان، ولمَ لا وهـو يرى أن ابتسامتها في وجه رؤسائـه تبـدِّد غـيـوم المشاكـل والشكوك التي تخيِّم على أُفق حياته العملية بين السادة الحاكمين.

وهيلدا عاقلة، أُوتيت حذراً ولباقـة وذكاءً تفوق الكثيـرات من بنات طائفتها في القاهرة، فلم تتورط في عبثٍ مشين، ولم تسر في طريق التبذل الفـاضح حتى نهـايته الشـائكة الكئيبـة. كانت مـرحـة لعـوبـاً، تمـلأ أُفق البيت بهجـة وسعـادة، وتضفي على الزائرين متعة خالصة مؤثرة، لا يستطيعون نسيانها.

ولبرطلمين دكـان يبيـع فيـه القـارورات الـزجـاجيـة وبعض المساحيق الكيماوية والنباتات والبذور المطحونة، وله عـدد كبير من الزبائن، هؤلاء الذين يتكاثرون في الأيام التي تأتي هيلدا فيها للدكـان. وما أكثـر مـا كـان يتجـرأ بعض الشبّـان الجسـورين، ويقتربون من المحل ثم يهمسون وعيونهم تذوب رقةً وخجلاً: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة». لم تكن تغضب أو تثـور، بل كـانت تبتسم لهم إبتسامة بريئة لا تخلو من وقار، فيهرولون وقد غمرتهم نشوة رائعة المـذاق، حتى أبوهـا لم يكن ليتضايق كثيـراً ـ برغم

غيرته ـ عندما تتناهى إلى أُذنيه الحادتين تلك الهمسات المعجبة.

وقد يكون تصرف «فرط الرمان» إبنته أمراً مستغرباً بالنسبة لما يسود القاهرة من تقاليد آنذاك، لكن نفس تلك التقاليد لم تكن لتنطبق كاملة على الأجانب من أرمن وإنجليز وغيرهم، لأن شيئاً من هذا لم يكن ليحدث في بيت الشيخ السادات أو الشرقاوي أو المهدي أو عمر مكرم ـ أكابر علماء ذلك العصر ـ ولا في بيوت غيرهم من المحافظين الذين يمثلون الطبقة الوسطى.

وكان واضحاً أن «هيلدا» تحب أباها وتحنق عليه في نفس الوقت، ولم يكن حنقها يحتاج إلى دليل يؤكده، فهي تراه ـ برغم عاطفته العارمة نحوها ـ يسلك سُبُلاً ملتوية في حياته الخاصة والعامة، مغرماً بتتبع عورات الناس، والبحث عن خباياهم. والأغرب من هذا كلّه أن لديه كراسة ضخمة يطلق عليها «الكتاب الأسود» يسجل فيها كل شيء لمجرد الرغبة في ذلك كما يزعم. ولم يكن تصرفه هذا رغبة مجردة كما يدَّعي، لأنه كثيراً ما يلجأ إليها عندما تثور فتنة من الفِتَن سواء بين زملاء العمل الحكومي، أو في مجالات التجارة، لأنه لا يفتأ يخطط ويدبر ليقضي على منافسيه في المجالين، حتى ولو كانوا من أعز أصدقائه.. لم يكن إذن خبثه ومكره وقسوته البالغة لتخفى على ابنته وإن خفيَت على كل من يعرفونه.

o

الوقت صيف. . أوائل يونيو. . وهيلدا تقف أمام المرآة كزهرة متفتحة، تحاول أن تنسق شعرها، وتسوي هندامها، ثم تتحرك أمام المرآة يميناً وشمالاً وكأنها راقصة باليه، والسعادة تكاد تنطق في عينيها. ومن آنٍ لآخر تنشر أمام عينيها ورقة صغيرة معطرة وتقرأ وهي في غاية النشوة: «لسوف آتي إليك في المساء يا حبيبتي. . إن اللحظات التي أقضيها إلى جوارك تفوق العمر كله. . لست أدري كيف تكون الحياة بدونك يا بنت فرط الرمان يا حلوة؟. . المخلص إلى الأبد: إبراهيم آغا. . . »

ودخل برطلمين فجأة، ثم سعل، أفاقت من حلمها الجميل وغمغمت: أبي؟. فلم ينطق، ظلَّ صامتاً بعض الوقت، شملته بنظرتها، فاستطاعت على الفور أن تقرأ على سحنته الشقراء أموراً جديدة، وتمتمت: ماذا؟. . فخطا نحوها بثباتٍ، ووضع يده المرتجفة على كتفها المستدير وقال:

- لن تقابليه الليلة. .

أدارت رأسها مستغربة:

- ماذا؟! هل بدر منه ما نفرك؟

- إنه وغد. . سافل. .

- أمرك عجيب يا أبي!. . إنه إنسان طيب لم يُقدم على ما يسوؤك طوال علاقته معنا، ثم إنك تبش في وجهه، وتثني عليه دائماً، وكنت راضياً تمام الرضى عن علاقته بنا، وما أكثر ما وقف إلى جوارك وحماك من بطش الأعداء، لقد كنت تفخر بمنزلة إبراهيم آغا لدى الحاكم مراد بك، وتقول دائماً إنه شاب

ممتاز. . ترى هل جدَّ جديد؟!

ألقى بجسده على أقرب مقعد، بينما أعطته هيلدا ظهرها واتجهت إلى المرآة ، كان كل منهما يرى وجه الآخر في المرآة . . وتمتمت : ما أكثر ما تصدر منك تصرفات يا أبي لا أستطيع تفسيرها .

قال برطلمين:

ـ لا تنسي أنه يدين بدينٍ يخالف عقيدتك يا هيلدا، ومن ثم فزواجك منه مستحيل إلاَّ إذا ترك دينه، وهذا إفتراض لا يقوم على برهان.

ـ نبراتك غريبة الليلة، ألم تكن تعلم ذلك من قبل؟. . كل ما أعرفه هو أني أُحبه لدرجة العبادة.

ـ تضعين أهواءك ونزواتك فوق عقيدتك، ما هكذا يجب أن تكون بنت برطلمين. .

قالت في حدَّة تشوبها الحيرة:

ـ إن منع إختلاف العقيدة مراسيم الزواج، فأظن أنه لا يمنع أن يقع الحب الطاهر بين مخلوقين لا ينويان شراً. . .

صاح مهتاجاً:

ـ إنه عبث.

ـ ماذا تعني؟

ـ إن نابليون قادم. . .

ـ وما شأننا به؟

قال وقد امتزجت نبرات صوته بالرقة:

ـ سيتغير وجه مصر.. سينتصر نابليون يا هيلدا.. وسيمزق الأتراك والمماليك شر ممزق، سترينهم بين قتيل وأسير وجريح وهارب في فجاج الأرض.. وأنا يجب أن أستعد.. لقد جاء اليوم الذي كنت أنتظره، لقد عشت دائماً في هذه الديار كغريب.. لم أنل ما أستحق من مناصب.. لطالما عذبني العجز، أترضين لأبيك أن يكون بائع قارورات؟.. إن عقلي يزن ألف عقل تسكن رأس مراد بك وإبراهيم بك والوالي التركي.. ومع ذلك فأنا أعيش في الذيل.. يجب أن تطأطىء رأسي وأُخادع وأكذب وأُنافق وأتآمر لأصل إلى ما أُريد.. إن القوى التي تتناحر هنا قوى فاسدة تالفة، صراع من أجل الكسب الشخصي حيث لا مُثل ولا وطنية.. وأنا تلميذ هذا الصراع الدامي في مدرسة المماليك والأتراك..

كانت تستمع إلى أبيها وجسدها يرتجف، وتمتمت:

ـ إذن هي الحرب على الأبواب؟

ـ هذا لا يهمني يا هيلدا.. إن بنت برطلمين يجب أن تعيش في قصر منيف، ويجب أن يجري حولها الوصيفات والخدم والعبيد، وأن ينثر تحت أقدامها الدنانير الذهبية.. وأبوها.. أبوك يا هيلدا يجب أن يقف على قمة شاهقة حتى يُشار إليه بالبنان، ويقول الناس هذا برطلمين الرومي العظيم صاحب الكلمة المسموعة.. إنها فرصة العمر يا هيلدا.. وإبراهيم آغا يجب أن يطرد من هنا طرداً.. لا يصح أن تكون له علاقة بنا، فنحن لا نحب المماليك أو الأتراك، أو هذا ما يجب أن يعرف؟.. وأنا لن

أذهب إلى عملي منذ الغد. . ليكن بحجة المرض. . لقد دالت دولتهم، وأتت دولتنا يا هيلدا. . .

لكأنما تساقطت أكداس من الصخور والرمال فوق رأس هيلدا. . إن أباها يقذف بالكلمات في صراحةٍ أقرب ما تكون إلى الصفاقة، العالم كله تحت قدميه بما فيه من حبٍ وعلاقات وقلوب وحيرة ووفاء. . وسمعته يقول:

ـ لم أقف في طريقك يوماً يا هيلدا، لكني أعرف عن يقين ماذا يجب أن أفعل الآن، إن علاقتك اليوم بإبراهيم آغا، ذلك الفارس المملوكي، علاقة حب، لكنها ستكون غداً خيانة كبرى لا يغتفرها الفرنسيون. . إفهميني يا هيلدا. . هذه هي الفرصة التي نستطيع فيها أن ننتقم من عجزنا وذلّنا وحياتنا المتواضعة السمجة.

قالت وقد ترقرقت الدموع في عينيها:

ـ تتكلم يا أبي وكأنك تقرأ سطور الغيب، ألا يصح أن ينهزم الفرنسيون؟ وحتى لو انتصروا، هل أنت واثق أنك ستنال المنزلة التي تحلم بها؟

إبتسم برطلمين، ثم قال:

ـ هذه بداية طيبة، لقد بدأت تناقشين الأمور بروية وتعقّل، وستدركينها أكثر عندما تطردين نهائياً ذلك الشبح الذي يقف بيني وبينك ـ شبح إبراهيم آغا ـ حسناً. . إن من حطم إيطاليا، ودوّخ النمسا، وأرعش أوربا لا يمكن أن يتقهقر أمام طائفة من الفوضويين والمغرورين من المماليك والأتراك وأذنابهما. . أما

بالنسبة لمستقبلي مع الفرنسيين، فهذا أمر قد تمَّ تدبيره مع قنصلهم هنا في القاهرة. . .

ـ تعني أنك. . .

فقاطعها قائلاً:

ـ أجل قابلته. . ألم أقل لك أن وجه الأرض سيتغير؟.

وشردت بنظراتها إلى بعيد، كانت تحلم بفتى أحلامها الفارس الممشوق القوام، القوي البنية، كانت تستعذب غروره وسذاجته، وتنتشي بركوعه أمامها كطفل وديع، ولم يكن يستعصي عليها أن تشكله كيف شاءت، كان يرضي طموحها وكبرياءها كأنثى ، لم تكن لتجد فيه شيئاً ينفرها منه ، لقد روى لها ذات مرة إحدى مغامراته الطائشة في الهجوم على حيّ من الأحياء بالقاهرة ، والإستيلاء على كثير من المجوهرات والمقتنيات ، كم كانت دهشته عندما سمعها تقول : « حبيبي لا يصح أن يكون قاطع طريق . . و . . لص . . إن فارس أحلامي شيء آخر . . » لشدَّ ما ندم يومها ، ولشدَّ ما تكرر أسفه وإعتذاراته ، كان يظن أنه يأتي عملاً عادياً من أعمال البطولة التي يفخر بها زملاؤه ، ولم يكن يظن أن ذلك سيغضب هيلدا ، ثم وعدها وعداً قاطعاً ألا يعود لمثل ذلك مرة أخرى . . آه . . لسوف يعود الليلة ، وسأسمع صدى حوافر الجواد الأبلج ، وسأقف عاجزة خلف النافذة لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، وسيخرج اليه أبي بابتسامته المصطنعة ليقول له إن هيلدا ليست هنا الليلة . . وسيرجع من حيث أتى ،

وقد تدهمه الحرب فلا أراه مرة ثانية . . . وارتمت هيلدا على أرض الحجرة الخشبية وهي تجهش بالبكاء . . وعندما اقترب أبوها منها ، صاحت في ثورةٍ عارمة ، وهي تشيح بيدها العارية البضّة :

ـ دعني . . دعني . . أخرج من هنا .

ـ هيلدا . . ماذا جرى لك؟

أخـذت تجفف دمـوعهـا، ثم استـردّت قليـلاً من هـدوئهـا، وتمتمت:

ـ معذرة يا أبي . . لقد كان الأمر مفاجأة لي . . لم أكن أتصوَّر أنني سأفترق عنه .

ـ هدِّئي من روعك يـا ابنتي . . تلك هي الحقيقة المُـرَّة، إن طـرد جميع الممـاليك أو قتلهم هـو الخطوة الأولى للفـرنسيين، وأنت لا يمكن أن ترتبطي برجلٍ مصيره بين إثنين كلاهما مُرّ . . إنني أُقدِّر مشاعرك تمام التقدير، لكن أباك له من الخبرة والحدب عليـك ما يجعلك تثقين في كـلامه وتصـرفاتـه . . أنـا أبـوكِ يـا هيلدا . . .

o

لم يأتِ الفارس المنتـظر في موعـده، لكنه أتى في الصبـاح الباكر . وحينما وقف بالباب كانت هيلدا تـوسط باحـة البيت، وعندما رأته جمدت في مكانها، وسـاد وجهها شحـوب ظاهـر . وخطا نحوها في قلق، وهو يتمتم: «ماذا بك يـا هيلدا؟» فألْقَت

بنفسها بين ذراعيه وهي تردِّد: «لا تتركني.. لا تتركني.. أتوسل إليك». وخرج برطلمين عندما سمع صوتها، فتسمَّر في مكانه محنقاً، لكن سرعان ما عادت الإبتسامة الشاحبة المصطنعة إلى ثغره الواسع، ثم قال:

ـ حسناً.. لا داعي لكل هذا يا هيلدا.

قال إبراهيم آغا محرجاً:

ـ لا شك أنك علمت بنبأ الإستعدادات للحرب.. لا تقلقي يا عزيزتي، فالفرنسيون لن يجرأُوا على مهاجمتنا، ولو فعلوها فلن يكون هناك سوى جولات قليلة لا تستغرق بضعة أيام يعودون بعدها مدحورين.. أنت تعرفين من نحن.

وكزَّ برطلمين على أسنانه في غيظٍ وأخذ يحدِّث نفسه: «هذا المغرور لم يزل يعيش في الوهم الذي صنعه له غباؤه وغباء أمثاله.. جولات قليلة! بضعة أيام! مدحورين! إنه لأمر مضحك».

ثم عاد يقول بصوتٍ مسموع:

ـ «هيا إلى الداخل لنشرب فنجاناً من القهوة، إن هيلدا تكنُّ لك في قلبها حباً فوق طاقة البشر، أكاد أحسدك على هذه العاطفة الخالصة»...

٣

عافت نفسه الطعام، وجلس أمام المائدة وقد أسند ذقنه على قبضته اليمنى، وجسمه يرتعد، وجلس قبالته ولده الحسين مطرقاً

لا يبدي حركة، أو ينطق بكلمة. والحسين لم يعد صغيراً، فقد تخطى التاسعة عشرة من عمره، وتلقّى كثيراً من علوم الدين، ومارس التجارة إلى جوار أبيه، وهو يعلم أن أباه لا يعاف الطعام إلاَّ إذا تأزَّم الموقف، أو أخذت بخناقه مشكلة عويصة الحل. أما أخته زينب، ذات السبعة عشر ربيعاً، فهي تتحرك في وجل، وتنقل إلى المائدة أطباق الطعام وأكواب الماء بنفسها دون معونة أحد من الخدم . أما الأم فقد جلست خلف زوجها واضعة كفين متشابكين في حجرها ، لائذة هي الأخرى بالصمت ، وأخيراً قالت :

ـ ألا تأكل يا حاج مصطفى؟

لم يرد عليها، كان إحتقان وجهه المستطيل الأسمر، وارتعاشة يديه، وبريق عينيه الحائرتين. . كلها تعطي الجواب المؤلم الحزين. مرة أخرى يستشعر الحاج مصطفى البشتيلي مذاق العجز بمرارته وعذابه، فينتابه شقاء ما بعده شقاء، لحظات عصيبة، الموت أهون منها.

وعادت زوجه تقول:

ـ ولماذا لا نرحل؟

إلتفت إليها بوجهٍ مكفهر:

ـ إلى أين يا امرأة؟

ـ إلى أعماق الريف البعيدة، أو نتجه ناحية بر الشام، ولدينا من المال والمجوهرات ما يكفينا طول العمر. . .

لشدَّ ما ضايقته هذه الكلمات، وحزَّت في نفسه! الحاج

مصطفى يهرب ! يا للمهزلة ! وتمتم :

ـ هل أصابك مَسٌّ من الجنون؟

ـ وما جدوى إنتظارنا؟ إنه الإنتحار بعينه. . غداً يدهمنا هؤلاء الغزاة الكفرة ويجرِّدوننا من كل ما نملك، وقد يقتلوننا. . أنا لا أُطيق الحرب، ولم تعد أعصابي تحتمل ذلك العنت كله. . وأولادي، كيف نفرِّط فيهم ونعرِّضهم للمخاطر؟

ولوَّح بيده متوعداً، وصرخ:

ـ كفي عن هذا الهراء. . إذا لاذ الجميع بالفرار فلمن تكون تلك الديار؟ وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد في سبيله؟ لسنا وحدنا يا جاهلة.

قالت ساخرة:

ـ كنَّا دائماً وحدنا. . أنسيت يومَ أن نهب المماليك متاجرك، ولم يستطع أحد أن يحرِّك ساكناً، حتى الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر لم يستطع أن يقدم بالنسبة لك سوى إحتجاج أجوف لمراد بك، وانتزع وعداً شكلياً بعدم التعرض لك مرة ثانية. . أنسيت؟ كنا دائماً وحدنا. . نحن في أيام شقاء ودماء، والسعيد مَن نجا بنفسه. . دائماً تسفه آرائي وتسخر منها. . لست أدري متى تغيِّر طريقة تفكيرك.

إبتسم في مرارة وقال:

ـ إن طريقي واضح مستقيم، وفكري صافٍ كالشمس المشرقة. . لسوف أبقى هنا، وأقف في وجه كل غازٍ، حتى ولو كنت وحدي. . لكن تيقَّني أن الناس قد بدأوا يتغيرون. إن

المصائب الكبرى توقظ النيام، تحيي المـوات. . تلك المصائب تنتصب كالمغنطيس الضخم وتجمع وتجذب الناس من حولها، ولا يتخلف أحد. . حتى الجبناء. . إنه تجمّع قهري يا أُم زينب.

ثم انتفض واقفاً، وانتعل حذاءه، وأخذ يرتدي بقية ملابسه. والتفت إلى الحسين قائلاً: هيًّا معي.

قالت زوجه في يأس: إلى أين؟

ـ زيارة قصيرة للشيخ السادات.

ـ آه. . إنه رجل طاهر منسب، وإني لمـوقنة أن لـديه الحـل الأمثل، مثل هؤلاء الرجال يتكلمون بوحي من الله. . لا تنسَ أن تطلب منه الدعوات لنا ولأبنائنا، لعل الله يزيل تلك الغمة. . لكن ألا تتناول طعام الفطور؟

ـ ليس لديَّ أدنى رغبة.

الـطريق عامـر بخلق الله، وأحاديث شتى تـطرق أُذنيـه وهـو يخترق الشوارع، وعبارات قصيرة تخترق صدره كالخناجر: «لقد سقـطت الإسكندريـة. . الفـرنسيـون قـادمـون إلى القـاهـرة. . مدافعهم تحصد الناس حصداً، وتهدم القلاع والطوابي والبيوت على رؤوس من فيها. . لقد قامت القيامة. . هذا العقاب قد ساقه الله إلى العصاة والمذنبين».

ويمضي الحاج مصطفى في طريقه شارداً، والناس يصخبون، ويتحركون في توتر، لكنهم يأكلون ويشربون. . والباعة يصيحون ويعرضون سلعهم. . وفرسان المماليك يجوبون الشـوارع، وقد امتشقـوا سيـوفهم ورمـاحهم، لم تفـارقهم عنجهيـة الكبـريـاء

والغرور، وإن ظهروا أكثر رقة وأدباً مع الناس، بغية حشد العامة ضمن الجيش المحارب «حسنة وأنا سيدك».

وفي ساحة واسعة، رأى الحاج مصطفى البشتيلي حشداً ضخماً من رجال الطرق الصوفية والدراويش والعامة، وقد نصبوا محضر ذكر كبير، وأخذوا يجأرون إلى الله: «يا لطيف الطف بنا.. نحن عبيدك كلنا». وغير ذلك من عبارات الإبتهال والدعوات، يرددونها ألف مرة، وهذا ـ كما يقول البعض ـ كفيل بأن يردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ويشتت شملهم.

وقال الحاج مصطفى لولده:

ـ أنظر.. إنهم يتخبطون.. الدعاء وحده لا يُجدي يا ولدي، لا بد أن يحملوا السيف ويهرولوا إلى ميدان القتال، تلك هي العبادة الحقة.

وأشار بيده إلى ناحية أخرى قد تجمّع فيها بضع مئات من الشبان حول مدفعين قديمين يتعلمون كيف يطلقونهما. ثم قال:

ـ هذا هو الأسلوب الذي يُجدي في الحروب.

وعندما إقترب من حي الأزهر الشريف سمع منادياً ينادي: «حي على الكفاح.. حي على الفلاح..» ما أروعه من نداء، والتفت إلى ولده:

ـ ألا تسمع يا ولدي؟ إنه نداء الحياة. أنظر.. الناس يتجمعون بالألوف، لم يعد هناك مجال للحزازات والخلافات، طوفان الثورة يجتاح الجميع، ويصهرهم في بوتقة واحدة، ويخلق منهم كائناً جديداً.. هذا ما كنت أتوقعه.. لم نعد وحدنا

يا حسين.

وفوجىء الحسين بأبيه يهرول مسرعاً، ويصعد مصطبة عالية ويصيح:

«أيها الناس.. حيّ على الكفاح.. حيّ على الفلاح.. أيها الناس تذكّروا ما قاله خالد بن الوليد وهو على فراش الموت: (لقد شاهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني شبر إلا وفيه طعنة سيف أو رمح، فلا نامت أعين الجبناء..) أيها الناس.. هذا يومكم الأكبر..»

وهبط منبره، وزحف نحو باب الأزهر، ودخل إلى المسجد بين التكبير والتهليل.. كان بالداخل الشيخ الشرقاوي، والشيخ المهدي، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ السادات شيخ طائفة السادات، والشيخ الفيومي والصاوي وقاضي مصر، وغيرهم من جلة العلماء وشاهبندر التجار السيد المحروقي، والشيخ البكري شيخ السادة البكرية.. ومراد بك وإبراهيم بك والوالي التركي.

كانوا يتحدثون، وهدير كالرعد يصمُّ الآذان ينبعث من حول المسجد التاريخي الكبير. لقد تبدَّد كل خوف، وانقشع كل تردُّد، أثار فيهم حماس الجماهير الصاخبة الثقة والحرارة، فانبروا يتحدثون ويرتبون خطوات المعركة القادمة.. لقد بات الإستسلام بدون مقاومة أمراً مستبعداً، لا بد من الجهاد حتى آخر رمق، وعلى السادة المشايخ ورؤساء الطوائف أن يعبئوا الجماهير، ويؤكدوا لهم أن العمل وحده هو المطلوب، وأن الهتافات

بمفردها لا تجدي فتيلاً.

ولم يغب عن الحاج مصطفى البشتيلي، وهو يجلس إلى جوار الشيخ السادات صديقه القديم، ما اعترى مراد بك من حيرة وقلق، والغريب أن مراد بك كان منكس الرأس مشتت الذهن، يطأطيء رأسه لقوارع العتاب والملام التي تنصبُّ عليه من أفواه الجالسين، وهل يستطيع أن ينكر أنه استنفد طاقاته المادية والمعنوية في صراعات طائفية، ونزاع على السلطة، لا مبرر لها؟ وهل في إمكانه أن يتنكر لِمَا بدَرَ منه من غرور وإهمال في إعداد العدة، وتزويد الجيش بما يحتاج إليه؟ أم تراه نسي ما شربه الناس على يديه من صنوف الإيذاء والإذلال والإستغلال؟ . .

وتكلم مراد:

ـ أنا منكم ولكم، وبدونكم لا أُساوي شيئاً. . إنني اليوم أقدِّم حياتي وحياة جنودي من أجل الحفاظ على حرية شعبنا العظيم. . . لندَع العتاب، فهذا أوان الوحدة والضراب، أيها السادة الأحباب.

وابتسم الحاج مصطفى البشتيلي، ومال على أُذن الشيخ السادات هامساً:

ـ ترى مَن كتب له هذه الخطبة المسجوعة التي يحفظها عن ظهر قلب؟

الجو شديد الحرارة، وشدة الإزدحام تُسيل العرق، وتكاد تزهق الأنفاس، لكأنما تحوَّل شهر يونيو إلى أتون كبير ينضج على لهيبه عشرات الألوف من البشر! . .

ويهمس إبراهيم بك قائلاً: «ما أشدَّ الحرّ!»
فيردُّ الشيخ السادات باسماً وهو يترنم بآيةٍ من القرآن:
«قلٍ نار جهنم أشدُّ حرّاً لو كانوا يعلمون».
وعقّب البشتيلي: «صدق الله العظيم».

○

في ذلك الزحام والفوران الشعبي المهول، كانت هناك عينان ترقبان كل ما يحدث في دقةٍ وحذر، عينا برطلمين «فرط الرمان». فعلى الرغم مما عرف عنه من سفالةٍ ونذالة، إلاَّ أن الناس يعلمون أنه من عسكر محمد بك الألفي ضمن طائفة الطوبجية.. واليوم يجتمع الجميع على قلب رجل واحد، لا فرق بين تركي ومملوك ومصري، ولا مسيحي أو مسلم، ولا أرمني أو مصري.. إنهم أبناء وطن واحد يدعوهم للذود عنه. ولم يخفَ عليه بالطبع ما يجري من تعبئة وإستعداد للمقاومة، لكن قنصل فرنسا أمره أن يحاول تضليل القادة والجماهير، وأن يوهمهم بأن الفرنسيين قادمون من ناحية دمياط. وحاول برطلمين أن يجند ابنته هيلدا لهذه المهمة، فهي قادرة على أن تقنع حبيبها إبراهيم آغا بصحة هذه الأنباء، وعندما فاتحها في الأمر أشاحت بوجهها قائلة:

ـ دعني يا أبي، لقد مللت كل شيء.

ـ أتعصين أباك يا هيلدا؟

ـ ألم تأمرني بالإبتعاد عن إبراهيم؟.. ثم ألا يكفي أنك سحقت قلبي، وتريدني أن أضع إبراهيم المسكين ورفاقه في فخٍ

قاتلٍ حتى يطعنهم الفرنسيون من الخلف؟

إقترب منها في تودُّد، وأخذ يلاطفها ويربّت على شعرها في حنان، ثم قال:

ـ لنكن صرحاء، إن هذا الأمر يتعلق بمصيرنا ومستقبلنا، لو لم نقدم للفرنسيين ما يثبت تعاوننا معهم وحسن نوايانا نحوهم، لَطاردونا كما تطارد الذئاب الجائعة، ولخَسرنا كل شيء.. أنسيت أنني من رجال محمد بك الألفي؟..

كل شيء في أبيها يدعوها إلى النفور منه، والإحتقار له. لعل لقسوته السابقة كجندي من جنود الأمراء ما يبررها في الماضي، لكنه اليوم يغرق نفسه في مستنقعٍ آسن من الخيانة البشعة، إنه يخون سادته المماليك، ويخون الأرض التي شبَّ عليها، ورضع من خيراتها، ويتنكر للمشاعر الإنسانية التي لم يختلف عليها دين من الأديان.. لو لم يكن أباها لبصقت في وجهه، ولطخت جبينه بالأقذار... آه.. لم يعد لهذه الحياة معنى بدون إبراهيم، وبعد أبيها هو الآخر.. إن أباها حيّ يُرزَق، لكنها قد افتقدته.. لقد تحوَّل إلى ثعلبٍ ماكرٍ جائع يتلهف حرقة لدماء الضحايا الأبرياء.. أين أحلامها الوردية الجميلة؟

وفجأة سمعها تقول:

ـ لماذا تكره الناس هنا يا أبي؟

ـ الكره لا يأتي وحده يا هيلدا.. لا بد أن هناك أسباباً أصيلة.

ـ أريد أن أعرفها لعلّي أؤمن بها.

ـ لو لم تشكي في أبيك لآمنتِ بما يقول دون حاجة إلى

أسبـاب. . حسنـاً، أنت لا تحبينهم مثلي تمـامـاً، لكن حبـك لإبـراهيم إتسع في بـلاهة فشمـل كل شيء. . وإبـراهيم ضابط صغير لا ينتظر لنجمـه بزوغ. . لن أروي لـكِ الأسباب، فـأنت على غير إستعداد لفهمهـا، لكني واثق أنك ستـدركينها بعـد أن تطردي إبراهيم من قلبك. .

كانت تتشرَّب كلمات أبيها في تقزُّز كما تتشرَّب ذلك المحلول المرّ الذي يقدمه لها وهي مريضة، وكانت تدرك أكثر من أي وقت مضى أنه والد بلا قلب، بل أخذت تشكُّ في كل ما أغدقه عليها من حدبٍ وحنان وحبٍ في سالف الأيام.

هزَّت رأسها في عصبية، ثم تمتمت:

ـ لسوف أذهب إلى إبراهيم كما أمرت.

ـ أنا لا آمرك يا مليكتي، بل أرجو. . .

O

في الطريق إلى إبراهيم كانت تتساءل: لمـاذا لم يخلقها الله على شاكلة أبيها من المكر والدهاء؟ ترى هل يرجع ذلك إلى أُمها الطيبة المريضة التي كثيراً ما تحدثها عن جدِّها الكبير الثري الذي كـان يغدق الخيـر على الفقراء، ويـأوي الضائعين، وينفق على الأديرة؟ وهل معنى ذلك أن جذورها تمتد إلى الأرض المصـرية الخصبة التي أنبتت أُمها وجدّها؟. . إن ذلك التناقض بينها وبين أبيهـا، ثم بين أُمها وأبيهـا تناقض معـذب محيـر. . لقـد قضت طفولتها في شوارع القاهرة وأزقتها وبيوتها، كـانت تدخـل بيوت

النصارى والمسلمين على السواء، وتأكل وتشرب وتلعب. . لم يحدث خلال سني الطفولة والمراهقة ما يحوّل قلبها عن أهل مدينتها الحبيبة، أحبَّت كل شيء في وطنها: الأرض والماء والسماء والمباني والشوارع والناس. . وكانت تحفظ سورة الفاتحة والصمد والمعوذتين كما يحفظها أبناء المسلمين. لم تستشعر في حياتها شيئاً من المقت والكراهية نحو أولئك الذين كانوا يطاردونها بعبارة الغزل الرقيقة المحببة إلى نفسها: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة». قلّ ما كانوا ينادونها باسم هيلدا، بل إن بعض المشايخ الكبار عندما سمع اسمها الحقيقي، تربّع وقال فيما يشبه الثقة: «أعتقد أن كلمة هيلدا كلمة محرَّفة، وأظنها مأخوذة عن كلمة «خالدة» العربية الصميمة، تماماً كما حدث لاسم قصر «الحمراء» بالأندلس حينما أطلقوا عليه «الهمبرا».
ما زالت هيلدا تبحث عن الأسباب التي تدفع أباها لارتكاب تلك التصرفات الشائنة، وكلما أمعنت في التفكير خُيّل إليها أنها تضرب في متاهات من الظلام والأوهام والشكوك القاتلة، ثم تنتهي خطواتها المجفلة في تلك المتاهات إلى حقيقة مُرَّة مفجعة تُدين أباها.

وما فتئت تشقُّ طريقها وسط حشود صاخبة من الناس المتجمهرين هنا وهناك، وهي تقصد القلعة حيث معسكر إبراهيم ورفاقه. كانت هتافات الجماهير تتسلل إلى أُذنيها ثم تمرق إلى قلبها فتسرع بنبضاته. لم تشعر بغربةٍ أو تقزُّز من تلك الأجساد التي ترتطم بها مصادفة في الطريق العام، خيِّل إليها أن وشائج

سحرية تشدُّها إلى تلك الجماهير، برغم رثاثـة منظرهـا، وحفاء أقدامها، وهديرها الصاخب الـذي يصمُّ الآذان. لكَم تتمنى أن تنسى كل شيء وتندمج وسط تلك الجماهير، وتشاركهم مـا هم فيـه من صخبٍ وهتاف !! لكنهـا تسمع خلفهـا صـوتـاً نـديّـاً لا تعرفه ، صوتاً مجهولاً يقول : « يا بنت فرط الرمان يا حلوة » فتتندّى عيناها بالدموع، وتهزّهـا فرحـة مباغتـة تنسيها الكثيـر من آلامها وأحزانها، ومن خلال ستار الدموع الشفافة تنظر إليه في ودّ، لكنه سرعان مـا يتوارى في خجـل. . إنه واحـد من فتيان المـوسكي حيث يوجد دكان أبيها. . .

وعندما تبلغ القلعة، وتسأل عن إبراهيم آغا، يخبرونها أنه قد رحـل إلى إمبابـة ضمن القوة الأمـامية التي ستـواجه الفـرنسيين هنـاك ، وتكون المفـاجأة الكبـرى عندمـا تعود إلى البيت ، فيصرّ أبوها أن يركبها عربة لكي تذهب إلى إمبابة لتؤدي المهمة القذرة التي كلفّها بها. . .

٤

أدركت هيلدا عندما وصلت إلى معسكر إمبابة والشمس مائلة للغروب أية طعنة قاسية يريد أن يوجهها أبوهـا إلى تلك القوات المرابطة التي لا همّ لها إلاّ الدفـاع عن شرفهـا وأرضها وقيَمهـا الخالدة، وأيقنت تماماً بالسفالة المزقة التي تكمن وراء لعبة أبيها وهو يناصر الأعداء ويضع المدافعين في كمينٍ ساحق. يا لها من لعبة! إنه يلهو بأرواح الآلاف. . فأية أسباب وجيهة ـ مهما كانت

وجاهتها ـ يستطيع أبوها أن يقنعها بها؟ وحينما سألت عن إبراهيم واستدعوه لها، رأته قادماً من بعيد. . كان مغبَّر السحنة، مشوَّش الشعر، تسيل قطرات العرق على جبينه الذي لوَّحته الشمس. . ولم تتمالك نفسها وهي ترمق نظراته البريئة الوالهة أن تلقي بنفسها بين ذراعيه. . وتمتم إبراهيم:

ـ لقد جئتِ في وقتك.

ـ كيف؟

ـ كنت أشعر بمسيس الحاجة لرؤياك. . يا لها من أيام!. . لم أجرِّب ذلك طول حياتي، إني أدرك الآن ماذا ينقص رجل الحرب المقبل على معركة ضارية.

ـ أي شيء تقصد؟

ـ قبيل المعركة الحاسمة أُدرك أني في نهم شيء للحياة. . أريد أن أعب منها بشراهةٍ وبأكثر مما أستطيع. إن ما كنت أفكر فيه الآن ليس المعركة وحدها، كنت أقول لنفسي: « ترى هل أعود إليك يا هيلدا مرة ثانية؟ » وأشعر بالندم في كثير من الأحيان، لماذا؟ لماذا لم نستمتع بحياتنا كأقوى ما يكن الإستمتاع؟ أعني لماذا لم نتزوج قبل ذلك؟ لكأنما الأيام التي قضيناها معاً كانت مجرّد لحظات قصار.

تبللت عيناها بالدموع وهي تستمع إلى حديثه، وازداد تشبثها به. وقالت في نبراتٍ يخالطها البكاء:

ـ تتكلم وكأنك تودعني!

ـ لا أدري بالضبط.. لكني سعيد بلقائك.

وشعرت بمقتٍ هائل يجتاح قلبها لكل سخافات الحياة.. لماذا الحرب؟ وما الذي يجعل هؤلاء القادمين من الغرب يتركون بلادهم وذويهم ويأتون إلى هنا ليريقوا الدماء، ويقلبوا هناء البشر إلى شقاء، واطمئنانهم إلى قلق؟؟ كان بداخلها بركان ثائر، واضطراب فكري لا مثيل له، وخُيِّل إليها آنذاك أنها لو خُيِّرت بين الدنيا كلها وبين حبيبها لاختارته مرتاحة الضمير، قد تكون هذه أنانية، لكنها لم تعد توقن بجدوى ذلك الشقاء البشري وإشعال الحروب دون سبب، وبدا لها العالم كله فساداً في فساد، فلمَ لا تختطف حبيبها وتهرب به، وتنعزل عن الدنيا وما فيها، بعد أن اجتاح الفساد كل القِيَم النبيلة؟..

ونظرت إلى حبيبها قائلة له:

ـ لست أدري لماذا تعرِّض نفسك للموت؟!

إبتسم إبراهيم وهو يقول:

ـ إنني أؤدِّي الواجب.

ـ بل أنت تدافع عن سلطة سادتك المماليك والأتراك ومجدهم.

ـ بالطبع، لكني أُدافع عن الوطن الذي يحكمونه في نفس الوقت، وعن شرفي العسكري كجندي، وعنك أيضاً يا هيلدا.. إنها معركة مقيتة جاءت في وقتٍ غير مناسب، لكن لا تنسي أني بريء من تبعتها، فأنا لم أطلب من الفرنسيين أن يأتوا إلى هنا..

اللوم كله ينصبُّ على هؤلاء المعتدين يا عزيزتي، ومع ذلك فغداً تنجلي الغمة، ويعود الصفاء. كثيراً ما يقع الإنسان في أزمات خانقة يخيَّل إليه أثناءها أن ظلامها لن ينكشف، لكن لكل شيء أجل.. لن تستمر المعركة طول العمر، لا بد أن يكون لها نهاية.

قالت وهي تجفف دموعها:

ـ معذرة، لكَم أتمنى أن تسحقوا العدوان، وأن تبقى هذه البلاد بخير، لكني أخاف أن يصيبك مكروه.

قال وهو يشرد ببصره بعيداً:

ـ وأنتِ؟ أهناك ضمان ألّا يصيبك مكروه وأنت في عقر دارك؟ إنه قدر الإنسان، وقدر الإنسان لا تقف في طريقه عقبات.

وتذكرت أباها على الفور الذي نال الضمان لحمايته، بل نال الوعد بأن ينال الثمن، ويبلغ ما يريد من آمال على يد الفرنسيين، واقتنعت وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم، أنه لا ضمان إزاء إرادة القدر، وبدا إبراهيم أمامها عملاقاً بإيمانه وصبره وشجاعته، وبدا لها أبوها فأراً صغيراً يوهم نفسه أنه قد ملَك مصير كل شيء. وعلى الفور تذكرت المهمة التي كلَّفها بها أبوها، ثم فكرت.. ألا يمكن أن يستطيع أبوها حماية حبيبها؟ لا... لشدّ ما تناقض نفسها، وتتخبط بين أفكارها!. وأبوها قاسٍ لا يرحم، ولن يعرِّض نفسه لأدنى شبهة من جرّاء نزوات ابنته..

قالت هيلدا:

ـ ومتى تبدأ المعركة؟

ـ لا أدري، لكني علمت أن العربان والفلاحين بالبحيرة قد

بـدّدوا شمـل كتيبـة فـرنسيـة، وهـذا يعني الأمـل. . زعمـوا أن الفرنسيين لا يُهزمون، لكننا نسمع الآن عكس ذلك، وأعتقـد أن المعركة على الأبـواب، ولسنا نـدري هل سيقـدمون من نـاحية الشرق أم من الغرب؟

سرَت الرجفة في جسدهـا، وأدركت أن مثل تلك الحيـرة قد تبدِّد نصف طاقة الجنود والقادة. ولـم تستطع أن تتصـوَّر إبراهيم وهوو يتجه ناحية الشرق، ثم تفاجئه الضربات من الخلف فيخـرُّ صريعاً. . وتصوّرت أباها، وهو يقهقه في شماتـة، ويربت على كتفها في شكرٍ وامتنان، ونظراته القاسيـة تلمع ببـريق الشيطان، فلم تتمالك نفسهـا أن أجهشت باكيـة، مما أذهـل إبراهيم، ثم أخذت تقول:

ـ أنـا على يقين أنهم قادمـون إلى هنا. . تـأكد من ذلـك يـا إبراهيم، يجب أن تخبر الجند والقادة بذلك.

ـ أهذا كل ما يزعجـك؟ على أية حـال هذه مسـألة بسيـطة، وستوافينا الرسل بالأخبار من كل مكان. إن ما يفعله الفرنسيـون في الإسكندرية وما حولها تأتينا أنباؤه أولاً بأول، ولا أظن أن هناك ما يزعجك لهذه الدرجة.

شعرت بارتياح عميق، وانجاب عن روحها أثقال كبيـرة. لقد انتصرت للمعاني الكبيرة التي تؤمن بها عن فطرة، واستطاعت أن تخرس صوت الشيـطان الذي حـاول أبوهـا أن يلبس به روحهـا وجسدها، ولسوف تعود إلى أبيها، وستخبره أنها قد أدَّت مهمتها على أتمّ وجـه، وسيبش لها بشـاشة من نـوع غريب تكـرهه ولا

تتمنى أن تراه، وسيهرول أبوها إلى سادته الجدد، ويخبرهم أن كل شيء على ما يرام، وأن الأمور تسير سيرها الحسن، وبالطبع سيتلقى الأوامر الجديدة، ويقضي ليله ونهاره كادحاً من أجل تنفيذها. . وتمتمت:

إبراهيم. . إنني أدعو لك بالنصر.

ـ وإذا انتصرنا يا هيلدا فسنحيا كأسعد زوجين في الوجود إن لم يكن لدى أبيك مانع، أعرف أن لديه حساسية غريبة بالنسبة لإختلاف العقيدة بيننا، وحساسيته قد تبلغ درجة التعصب الشديد. . معذرة، فأنا لا أتصوّر أن أي شيء يمكنه أن يفرِّق بين قلبينا.

وتذكرت ما انطوَتْ عليه تصرفات أبيها من وحشية، فقالت:

ـ شيء واحد. . الكراهية.

قال في إنزعاج:

ـ أنت تكرهين؟! لا أظن مطلقاً أنك تعرفين هذه الصفة المقيتة.

ـ بل أعرفها جيداً. . لقد رأيتها كثيراً على وجوه بعض الناس، وفي تصرفاتهم.

ـ وأنا وأنت؟

فأخذت تقبِّله في نهم، وهي تقول:

ـ نحن خلق آخر. . إننا نعيش في عالم رائع جميل خالص لنا. . وحبنا أقوى من أي شيء في الوجود.

ـ ولهذا فإننا لنثق في المستقبل وأؤمن بالله. . لشدّ ما أشعر

بأنني أتغير وأتغير كل يوم . . الإنسان في المعركة يشعر أنه قريب من الله . . دعيني أعترف لك، لقد ارتكبت كثيراً من الحماقات، كالآلاف غيري من عساكر المماليك وضباطهم، كنت أعتقد أنه من الضروري أن أحتقر الفلاحين والعامة، بدا لي الأمر كأنه سلوك إجتماعي لا مناص منه، إتخذ سمة العرف السائد، لكن هذه الأيام كشفت لي الكثير. . كلنا بشر، والناس هنا طيبون، ويقفون إلى جوارنا في المعركة، في وقت الشدة وحدهم ينسون الإساءات. . لا أدري لماذا أتطرق لمثل تلك الأحاديث، لكنني أريد أن أتكلم. . إن الثواني والدقائق التي تمر من العمر لا تعود، والحرب عمياء يا هيلدا.

قالت في إنفعال:

ـ لكنك تؤمن بالله وبالمستقبل.

ـ أجل.

ـ وكل شيء له أجل كما تقول.

ـ أجل. . إلا حبنا، فهو خالد خلود الشمس.

ـ ولسوف ننعم بحياتنا المقبلة.

ـ أجل. . .

وعادت من نفس الطريق، كل شيء حولها يوحي بالحركة والحياة، الناس يستيقظون، وهدير الحياة أقوى من كل غباء الإنسان وجشعه، والخديعة رذيلة ليس لها ما يبررها، والطمع وحشية. . ولدى الباب كان أبوها يقف قلقاً متلهفاً، وصاح في صبرٍ نافذ:

ـ هيه. . هل وجدت إبراهيم؟

قالت في اقتضاب، وهي لا ترفع رأسها:

ـ أجل.

ـ وهل استطعت إقناعه بوجهة نظرك؟

ـ بالطبع، إبراهيم يثق فيَّ ثقة عمياء.

وبدت على وجهه فرحة الطفل الخبيث، ثم تمتم:

ـ لقد قبض المماليك على الفرنسيين هنا، وعندما يدخل نابليون القاهرة منتصراً فسأقدمك له شخصياً، وستنالين صداقة القنصل وأشراف الضباط العظام، وستعلمين عندئذٍ أن أباك كان على حق يا هيلدا يا معبودتي. .

وانحنى على وجنتيها يقبِّلهما في شغف. . كانت هيلدا تشعر بقبلاته وكأنها أشواك تدمي الوجنتين، فأغمضت عينيها مستسلمة وهي تتمنى من صميم قلبها أن تنتهي هذه التمثيلية الرخيصة. وعندما توارت داخل حجرتها، تنهَّدت في ارتياح، وشعرت برغبةٍ جارفة في البكاء، لكن صوتاً جاءها من الخلف:

ـ بارك الله فيك يا هيلدا. . لكم أُحبك. . كنت واثقاً أنك أكبر من سخافات الحب الطائش وتهويماته الفارغة.

قالت في امتعاض:

ـ لندع هذا الأمر فلا نتكلم فيه مرة ثانية يا أبي.

ـ ليكُنْ. . أمرك يا حبيبتي. . هذا عين الصواب. . . لكن كيف استقبلكِ إبراهيم؟ وماذا وجدتِ هناك؟ . .

زفرت بملل:

- كما استقبلني في الأيام الخوالي.. والجميع هناك يستعدون للمعركة.

-كم عدد المماليك؟

- المصريون أكثر من المماليك، وأنا لم أقم بإحصائية.

- هذه مصيبة! هؤلاء المصريون أمرهم غريب، هل نسوا سريعاً ما أصابهم على أيدينا.. أعني على أيدي المماليك؟..

قالت هيلدا:

- إن لهم وجهة نظر أخرى.. وأنا في الحقيقة أريد أن أنام. أعرف أنك متعبة.. تصبحين على خير...

٥

جلس الحاج مصطفى البشتيلي وحيداً إلا من أساه وعذابه.. لقد وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة.. وانهارت مقاومة المماليك والأتراك في الإسكندرية وضواحيها، وإن بقيت مقاومة أهاليها مستمرة في موجات قد تضعف وقد تقوى ولكنها لا تموت، ورسائل حاكمها «السيد محمد كريم» تأتي من يوم لآخر حاملة من الأنباء كل غريب وجديد. ومن أغرب رسائله ذلك المنشور المطبوع الذي أمر «السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت» بتوزيعه على عامة الشعب.

وتحسّس الحاج مصطفى جيبه، وأخذ يبحث عن المنشور، ثم أخرجه ونشره وشرع يقرأ صامتاً: «.. بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه...»..

وابتسم الحاج في أسى، ثم تابع القراءة بصوت خفيض: « . . يا أيها المصريون، قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمفترين أنني ما قدِمْتُ إليكم إلا لأخلِّص حقكم من يد الظالمين. . . »

وهزّ الحاج رأسه، إنها اللعبة المكشوفة التي يلعبها الغزاة الجدُد. يا له من رجل طيِّب ذلك المدعو نابليون ! . لقد تأثر قلبه الرقيق لما يعانيه المصريون من ظلم وهوان، فتكبّد المشاق، وساق جنوده وأسطوله، وحمل سلاحه ليضحّي من أجل البؤساء. . نظر إلى العالم كله، فلم يجد أحق بالرعاية والعطف منا. . نفس القصة القديمة، التاريخ يُعيد نفسه، كل طامع يحاول أن يخفي أطماعه وراء معسول الكلام، والادعاءات الزائفة. . لعل البشرية، في فجر حياتها، كانت أكثر صراحة منها الآن. . كانوا يشنّون الحروب الضارية، لكنهم ـ على الأقل ـ كانوا لا يكذبون. وكلما تقدمت الحضارة والعلم، ازداد الطغاة تفنناً في إخفاء مراميهم الخبيثة. والغريب أنهم قبل غيرهم يعرفون تمام المعرفة مدى ما تنطوي عليه دعاويهم من بهتان ! . .

وعاد يقرأ المنشور من جديد: « . . أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون. . . » أهكذا دفعة واحدة؟ أيصل الخداع لهذه الدرجة الصارخة من الصفاقة؟!

واستمر في القراءة: «. . . طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم، وتعلو مراتبهم». ها هو «المسلم نابليون» يلوح لمن يوالون بالفائدة العظمى، ويمنيهم بأعلى المراتب. . يفتح مدرسة جديدة للخيانة والغدر، ويبث فيها مبادئه المدمرة!..

ويستمر المنشور: ... طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر. . .»

هكذا يكشف الذئب عن نواياه!. . إنه يقسم البلد إلى طوائف، سيحارب طائفة ويهادن أخرى. أما من يعرف واجبه الوطني، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه، فلسوف تحل به لعنة الرجل المؤمن، الموحد بالله، المسلم العريق نابليون بونابرت!..

وتبلغ لحظة الكشف والوضوح مداها، حينما يقرأ الحاج مصطفى المادة الثانية التي تقول: «كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار». . أجل، هكذا يكون الدين، وهكذا تكون المدنية، وهكذا يكون تخليص المظلومين والتعساء...!

وطوى الحاج مصطفى البشتيلي الورقة، ثم أعادها إلى جيبه، لقد قرأها مراراً وتكراراً حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب، برغم ركاكة أسلوبها، وكذب مراميها. والحاج مصطفى يعلم علم

اليقين أنه ليس في مصر كلها مَن يصدِّق الفـرنسيين، بما فيهم المتعلم والجاهل، والمشايخ أو التجـار أو الفلاحين وأصحـاب الحِرَف الصغيرة. . بل إن الشيخ السادات، عندما قرأ المنشور، قال: لعل المعركة القادمة من أخبث المعارك التي سنخوضها. لم يكن الصليبيون في حملاتهم السبع، التي استمرت قرنين أو أكثـر من الزمـان، لم يكـونـوا يلجـأون إلى مثـل تلك الحِيَـل، والبلاغات الكاذبة.ولو فرضنا أن نـابـليـون مسلم ومـوحد بـالله، فهل يعني ذلك أن نفتح له أبواب مدينتنا، ونسلمه قياد أمرنـا؟! إنها ألاعيب مكشوفـة لا تخفى على أعين الخلق. . إن تهديـده بحرق القرى التي تبدر منها أدنى مقاومة له، دلالة عميقة. . مثل هذا الرجـل لا تعرف الـرحمة ولا العـواطف الإنسانيـة إلى قلبه سبيـلاً. وعلى أية حـال، فلن تكون هـذه الحرب آخـر ولا أول معركة نخوضها. إنه ابتلاء من الله، ولعل ذلك يكون فاتحة خير. لكَم طال نومنا، حتى خُيِّل إليّ أن اليقظة في هذه الأيـام معجزة عسيرة التحقيق. وصدق الله العـظيم إذ يقول: «ولنبلوَنَّكم بشيءٍ من الخـوف والجوع، ونقصٍ من الأمـوال والأنفس والثمرات، وبَشِّر الصابرين».

والحاج مصطفى يـذكر أن الشيـخ السادات شنّ حملة عنيفـة على أولئك الذين يهجرون الديار المصرية، ويفرُّون إلى برِّ الشام أو الصعيد أو أقاليم مصـر النائيـة، واعتبر ذلـك جبناً يتنـافى مع المروءة والشرف، وإن الواجب في تلك الأيام أن يقف كل إنسان على ثغرة من ثغرات الوطن، يدافع فيها عن حريته وكرامته حتى

الموت. ورأى الشيخ السادات أن يتنازل الأغنياء عن جزء من ثـرواتهم ومقتنياتهم للمجاهدين في هـذه المعركـة المقـدسـة، والتأخر عن تأدية الواجب لا يمكن أن يسمى سوى جريمة شنعاء في حق الدين والوطن. . .

وصاح الحاج مصطفى بولـده الحسين، فأتى مسـرعاً، فقـال الحاج:

- ما تنوي أن تفعل؟

- فيمَ يا أبي؟

- لم تعد صغيراً يا ولدي. .

- أعلم ذلك.

- والمعركةعلى الأبواب. . . أتفهمني؟ إن أُمك رقيقـة القلب لـدرجة مخـزيـة. هـزَّ الحسين رأسـه، واحتقن وجهـه الغضّ، وتمتم:

- «أدرك ما ترمي إليه، وأنا طوع أمرك في أي ميـدان تضعني فيـه. ليس هناك أعـظم من أن يضحّي الإنسان في سبيـل أُمتـه ودينـه. . كثيراً يـا أبي ما كنت أقـرأ التاريـخ، وأسمع الـوعّاظ، وأعيش بخيالي مع الأيام الكبيرة في تـاريخنا، ولا أكتمـك الأمر حينما أؤكد لك أنني كنت أحلم بمثل تلك الأيام، برغم ما سيدور فيها من قسوة وتضحيات».

ابتسم الحاج في ارتياحٍ، واستعاذ بالله وبسمل ثم قرأ:

«كُتِبَ عليكم القتال وهو كرهٌ لكم، وعسى أن تكـرهوا شيئـاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئـاً وهو شـرٌ لكم، والله يعلم

وانتم لا تعلمون».

وسادت فترة صمت، استطرد الحاج بعدها قائلاً:

ـ ما أعظم أن يعيش البشر في هدوء وسلام، يسعون من أجل مصالحهم والبرّ بأبنائهم ومجتمعهم، لكن وجود الشرّ في هذه الحياة هو الذي يثير قوى الخير ضده. تلك سنّة الحياة.. ليس الفرنسيون هم الشقاء وحدهم، إن هذا الشقاء الجديد يسبقه تاريخ طويل من العذاب والأسى على أيدي الأتراك والمماليك، لكننا لطول الأمد أوشكنا أن نهمل شقاءنا القديم وننساه، وإن كنا نعايشه معايشة أليمة. يبدو لنا أن المعركة الحالية ستصوغ حياتنا صياغة جديدة على أية حال..

وتنهّد، ثم عاد يقول:

ـ ليس هذا وقت التحليل والشرح، إنه وقت العمل.. ولتعلم أنه منذ الغد ستبدأ عملنا الحقيقي.

وانحنى الحسين على يد والده يقبّلها، بينما تناهت إلى أسماعهما قرعات على الباب الخارجي، وصوت مألوف لديهما يهتف: «يا أهل الله..»، وبعد أن فتح الباب دخل الفقية الكفيف «علي الجنجيهي»، ولم يكد يمر وقت قصير، حتى تتابع الأصدقاء: الشيخ إبراهيم سلامة، وصانع البارود أحمد المدبولي، والتاجر الصديق الحاج غمري، وغيرهم...

وكان تقدُّم الفرنسيين نحو القاهرة هو حديث الساعة. في كثير من الأحيان يبدو حديث الحرب والسياسة مملاً ثقيلاً، لكنه لا

يكون كذلك عندما يجد الناس أنفسهم غارقين في بحر من الهياج والتوقع والمصير المجهول ، لأنهم يرتبطون بالأحداث ارتباطاً مباشراً . لقد توارت المشاكل اليومية خلف واجهة ضخمة من الاحداث الجديدة ، لم يعد الناس يفكرون كثيراً في غلاء الأسعار ، أو الحوادث الفردية ، أو الصراعات العائلية ، ولم يعودوا يتذاكرون بالتفصيل ما فعلته كوكبة من جنود المماليك في حيّ من أحياء القاهرة ، وهم ينهبون ويرتعون حيث لا يوجد مَن يستطيع أن يوقفهم عند حدُهم . . الخلافات المذهبية الناشئة ، التي كثيراً ما تدور بين حنابلة وشافعية ، لم تحتلّ المركز الهام . . إن الحرب قادمة إليهم ، وسيكونون وقودها لا محالة . . ومن ثَمَّ كان حديث الحاج البشتيلي وأصحابه وجيرانه ، الذين تجمّعوا في حجرة الضيوف الواسعة ، حديثاً متشعب الأطراف عن الحرب والمستقبل والخطط الحربية ، واندحار المماليك والعربان والمصريين عند شيراخيت أمام الفرنساوية .

الشيخ إبراهيم سلامه عالِم متبحر، يبدو يقظاً مُلماً بما كان يجري من أحداث قديمة أيام علي بك الكبير وأبو الذهب وغيرهما، وعلى الرغم من أنه قد تخطى السبعين، إلا أنه يحظى بذاكرة واعية. . وعندما دار الحديث عن منشور نابليون القاهرة، تكلم الشيخ العجوز قائلاً:

ـ لا أصدِّق مطلقاً ما يزعمه نابليون من أنه تعهَّد بحماية حق تركيا والسلطان في حكم مصر، وأنه إنما جاء لتأديب المماليك والقضاء عليهم . . إنه لأمر مضحك أن يتطوَّع رجل من آخر الدنيا

للدفاع عن حرمة الدولة العثمانية، والحفاظ على حق السلطان، دون أن ينتدبه السلطان لذلك. .

وأخذ الشيخ علي الجنجيهي يذبُّ ذبابة تأبى إلا أن تلتصق بأنفه، ويقول:

- السياسة بحر عميق واسع غامض. . لا يدركها إلا أُولي العزم من الرجال.

قال الحاج مصطفى:

- هوِّن عليك يا جنجيهي، المسألة - كما يقول الشيخ السادات - في غاية البساطة، طبعاً أنتم تعرفون شيئاً عن الإسكندر ذي القرنين أمثاله، فنابوليون واحد منهم، رجل يحلم بالمجد والسيطرة السياسية والمالية، إنها عملية نهب أموال الشعوب لا أكثر، ولقد سمعت من أحد الأجانب - غير الفرنسيين - بالأمس، أن المعركة الحامية بين فرنسا وإنجلترا في أوربا تتخذ لها أرضاً جديدة، ونابوليون يريد أن يحتلَّ مصر ليتحكَّم في مصير العالم التجاري والسياسي، وليجعل الإنجليز ومستعمراتهم في الهند تحت رحمته. . المعركة تتسع بين نابليون والإنجليز، وهذا تفسير يقبله العقل، ولهذا فأنا أميل إلى تصديق الشائعة التي تقول إن الأسطول الإنجليزي يطارد الأسطول الفرنسي ويبحث عنه في عرض البحر الأبيض.

هزَّ علي الجنجيهي رأسه وتمتم:

- «يا خبر أسود. . لؤم خواجات صحيح. . الحكاية كبيرة جداً. . رحمتك يا رب. . إن مصيبتنا ثقيلة!. .»

دقّ قلب تاجر البارود المدبولي في رعب وقال:

- يبدو لي يا بشتيلي أن زوجتك كانت على حق حينما اقترحت عليك الهجرة!..

والتفت البشتيلي إلى الشيخ إبراهيم سلامه قائلاً له:

- ردّ عليه يا مولانا.

قال الشيخ العجوز:

- القرآن صريح في هذه المسألة، لكن الناس في هذه الأيام لا يهتمون بكلمات الله، ولا يعملون على تطبيقها. ألم تسمع قول الله: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار، ومَن يُوَلّهم يومئذٍ دُبرَه إلا متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من الله...» هذا هو الحكم الشرعي.

قال الجنجيهي:

- أجل.. لكن الله يقول في موضعٍ آخر: «ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا إليها؟».

صاح الشيخ إبراهيم سلامه في غضب:

- هذا تحريف للكلِم عن مواضعه، وتلاعب غريب بآيات الله!.. أنت يا جنجيهي لا همّ لك إلا تجويد القرآن وقراءته بصوتٍ رخيم، أما التفسير واستنباط الأحكام فهذا أمر لا يخصّك، إن فتياك عن جهل توردك جهنم...

قال الجنجيهي محاولاً أن يبدّد جوّ التوتر:

- ألا ترى يا مولانا أن جهنم أرحم من ذلك الكرب الذي ينتظرنا؟..

ـ كل ما تراه من مظاهر القوة والبطش اليوم، شيء تافه أمام قدرة الله وجبروته. . ما أكثر ما رأينا وسمعنا وقرأنا عن سلاطين زالوا، وملوك اندثروا، ودول انهارت . . «كلُّ مَن عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام».

وأدرك الجميع أن المدبولي على غير العهد به، ضائق النفس، ضجر الحديث، فهتف البشتيلي به قائلاً: ماذا جرى؟

قال أحمد المدبولي:

ـ رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا شيئاً . . إن السلب والنهب لا يفارقانهم حتى في أوقات الحرج ! . .

أسرع البشتيلي قائلاً:

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك ! .

ـ الوضع يختلف يا مدبولي.

ـ وماذا أطعم أولادي يا بشتيلي في هذه الأيام السوداء؟

ـ الحرب تعني التضحية . . نِعْمَ ما فعلوا !

ـ التضحية يا بشتيلي لا تكون سلباً وقهراً، والذي يضحي ويترك أولاده خاوية بطونهم إنسان مجنون ! . .

إبتسم البشتيلي وقال:

ـ لا تتكلم عن خواء البطون، فأنا أعرف الكنز الذي ترقد فوقه.

ـ بصراحة يا بشتيلي . . .

قاطعه قائلاً:

- تكلم.. خير لنا أن نمشي حُفاة عُراة جياعاً ونحن أحرار، من أن نسكن القصور ونرفل في الحرير والرغد، ونحن عبيد للفرنسيين.

قال المدبولي:

- الكارثة هو أني لا أؤمن بجدوى المقاومة بعد كل الذي سمعته، يجب أن تفتحوا عيونكم جيداً، إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء، وخبرتهم الحربية فوق التصوُّر، واستعداداتهم لا مثيل لها... دعوا الأوهام والحماس جانباً، وفكروا بعقل. أعرف أن كلامي قد يضايقكم، ولعله يوصمني بالجبن والخيانة، ليكن.. فأنا رجل أحكِّم عقلي، وقد علمتني التجارة أشياء كثيرة.

كان يتوقع أن تثور عاصفة من النقاش الحاد على أثر آرائه الخطرة الموئسة، ويبدو أن الشيخ إبراهيم سلامه كان على وشك أن ينفجر فيه غاضباً، لكن البشتيلي قال في هدوء غير متوقع:

- لك أن تفكر كيفما شئت، وتصل إلى ما يقنعك من نتائج، لكن الشيء الذي لا جدال فيه، هو أن أية أُمة يعتدي عليها المعتدون لا بدَّ أن تهبَّ للدفاع عن كرامتها. لم نقرأ في التاريخ أن أُمة عريقة استسلمت هكذا دون مقاومة، والفرنسيون بشر مثلنا، والبشر قد يُهزمون وقد ينتصرون، ولم تنتصر أُمة على طول الخط.

وبدا أن الشيخ إبراهيم قد عاوده الهدوء فقال:

ـ دائماً تنسى يا مدبولي حكم الله في مثل هذه الأمور البديهية.

ردَّ عليه المدبولي قائلاً:

ـ أتتهمني بالغباء يا مولانا؟!

فأجابه الشيخ إبراهيم بقوله:

ـ لا يصحّ أن تفكر في كل شيء بطريقة التجارة، في التجارة الربح بالطبع هو المفضل على الخسارة، لكن الجهاد شيء آخر قد يخسر الإنسان ماله وحياته وأولاده، لكنه هو الظافر، كيف؟؟ هكذا قال الله في كتابه العزيز: «ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزَقون»... إلى آخره من آيات الجهاد الكثيرة.

وشحب وجه المدبولي، وعاد يقول:

ـ التضحية مسألة إختيارية.

أجابه الشيخ العجوز:

ـ والجهاد واجب يا مدبولي.

وازداد شحوب وجه المدبولي عندما قال البشتيلي:

ـ أنا تاجر مثلك، وأعرف فيما تفكر.

ـ ماذا؟؟

ـ لقد كنت تظن أن الحرب سوف تنمّي تجارتك، وتزيد من أرباحك، وخاصة أن بضاعتك هي البارود، لكن يجب أن تعلم أن هناك أوقاتاً لا يصحُّ أن يفكر فيها التاجر بعقلية المكسب والخسارة.

ـ ولِمَ لا تفعل أنت ذلك؟

ـ سترى. .

وسادت فترة صمت، تلفّت البشتيلي بعدها عن يمينه، ثم قال:

ـ هيا يا جنجيهي، فإني ظامىء لكلمات الله الحلوة.

قال الجنجيهي:

ـ والآن سيعرف مولانا الشيخ سلامه، أنني لست جاهلاً بدرجةٍ كبيرة، لأني أعرف على الأقل أن سورة «الأنفال» مليئة بآيات الجهاد، ولسوف أقرأ لكم منها قسطاً كبيراً. . .

٦

توتر الجوُّ في منزل الحاج مصطفى بصورةٍ ملفتة للنظر، لقد كانت زوجه أطوَع له من بنانه، قلّ ما تسفه له رأياً، أو تعترض على أمرٍ من الأمور، إن زوجها هو سيدها، وهي تؤمن أنه يعرف أكثر مما تعرف، وخبرته في الحياة أثرى من خبرتها، ثم إنه أولاً وأخيراً رجل، وهل تستطيع أن تنسى وضعها البديهي المعروف كأنثى في منزلة التابع المطيع؟ لكنها خرجت عن هذا الوضع المألوف فجأة، وأقامت الدنيا وأقعدتها، وخاصة عندما أعادت النظر في تصرفات زوجها. لقد رفض رأيها في الهجرة قبل أن تقترب ساعات الخطر، لم تستطع أن تلحّ عليه كثيراً، لأنها تعلم الكثير عن صلابة تشبثه، وعدم تنازله بسهولة عن رأي ارتآه، لكنها فوجئت به يجند ابنه الوحيد، ويدسّه ضمن القوات

المحاربة، بل في الصفوف الأولى تحت إمرة «إبراهيم بك» الذي عسكر بجيشه عند «بولاق» معنى ذلك أن فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث. ولم يكتفِ بذلك، بل دسَّ بنفسه هو الآخر ضمن قوات البحرية على إحدى السفن الراسية في الميناء.. والمصيبة أنه لم يرحم ابنته زينب، فاختطف خطيبها هو الآخر، ودفعه إلى الميدان مع ولده الحسين.. ومنذ يومين فقط، لجأ إلى عملٍ جنوني، فقد اشترى باروداً وسلاحاً بجزءٍ كبيرٍ من ماله ووزعه على القوات الشعبية التي تخوض المعركة جنباً إلى جنبٍ مع المماليك، وتخلَّص من كل المخزون لديه من البضائع بأبخس الأثمان، كي يساهم في تقديم الأقوات للمحاربين.

وعندما بدت الدهشة على وجه زوجه صرخ فيها محتدّاً:

ـ «أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله ﷺ، أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله في صدر الإسلام، وما عند الله خيرٌ وأبقى، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. لقد شغلتكِ الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودي تفكرين في شيءٍ سوى بأولادك وبالمال والخنوع للحياة الدنيا، حتى اكتنز بدنك، وأصبحتِ كخنزير كبير!.. يا للمهزلة!.. منذ متى تعترضين مشيئتي؟.. لا تنسي يا امرأة أنني هنا الرجل، رب البيت.. أتفهمين؟..»

ولم تكن زوجه ـ في مثل تلك الأيام ـ بقادرة على أن تهضم كلماته، ولم يكن في مقدورها أن تقتنع، مهما كان لهذه

الكلمات من قوة المنطق والإقناع. لقد كانت الزوجة تفكر في أولادها وزوجها ومستقبل الأسرة تفكيراً عاطفياً، فضلاً عن أن طبيعتها الخاصة ـ برغم عشرتها الطويلة لزوجها ـ لا تتعلق كثيراً بهذه المثاليات الكبرى، كالتضحية والفداء والجهاد وما إلى ذلك.. لعلها كانت أكبر من تفكيرها واستعدادها، وخاصة أن مثالياتها لا تخرج عن العطف على المساكين، والبرّ بالأقرباء، والحدب على مآسي الناس، كل ذلك في حدود معقولة حيث لا إسراف ولا إفراط.. أما أن يبلغ بها ذلك مبلغ التضحية بالولد والزوج وكل ما يملك زوجها، ومستقبل ابنتها، فهذا ما لا تحتمله، ولا يمكنها أن تقتنع به.

ولم تقف الزوجة عند حد الإعتراض الأجوف، أو البكاء الصاخب، بل قررت أن تبطل تصرفات زوجها على قدر ما تستطيع، فأخفت عنه كثيراً من المجوهرات والمال، وأخذت تفكر في طريقة لتحمي بها ولدها ثم خطيب ابنتها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. أما زوجها فهي عاجزة تمام العجز أن تفعل أي شيء يحدّ من إندفاعه، وكانت لها أفكارها الغريبة في الردّ على زوجها، تلك الأفكار التي كانت تحنقه، وتشعره بأن زوجه غارقة في الجهل والحماقة.

لقد كانت تقول له: «إن صداقتك للشيخ السادات، هي التي غيّرتك هذا التغيير الغريب الذي يرضيني، والشيخ إبراهيم سلامه هو الآخر، لا يفتأ يملأ رأسك بالأحكام الخطرة وكلاهما لا يحمل سيفاً، ولا يخوض معركة.. الشيخ إبراهيم سلامه عجوز

إحدى رجليه في القبر لا يخاف شيئاً، والشيخ السادات، حولـه العديدون من الأتباع، وله عند الكبراء والعظماء كلمة مسموعة. . لقد خُلق ليأمر وينهى، أما أنت وأولادك فوقود للنار. . . مَن أنت حتى تشبِّه نفسك بعثمان بن عفان؟؟ مهما فعلت فلن تكون نبياً ولا خليفـة من الخلفـاء. . لم يعـد في الـدنيـا خيـر، وأنت لن تستـطيع أن تغيِّـر المقدور. . وهـل لنا في الـدنيـا غيـر الحسين وزينب؟ . . تريد أن تدفع الولد إلى جهنم الحمراء، وتحرم البنت من مستقبلها، وتبدِّد مالك، ثم تتهمني بالجهل وقلة الدين! . . »

وكلما حاول أن يفنِّد دعاويها سدَّت أُذنيها، لم تكن لتريد أن تقتنـع بغير مـا استقـرّ في ذهنهـا، الحسين وزينب والحـاج هم الحياة، وقلبها يحدِّثها بأن المستقبل غير مأمون، والعمر واحد ولا يمكن أن يُستعاض عنه إذا قـامر بـه الإنسان. . وهنـاك عشرات السبل لأن يُظهر الإنسان إستعداده للبذل والعطف والوطنية، هذه السبل أسلم عاقبة من الحرب المجنونة التي يشنّها الكفار الفَجَرة كما تردِّد دائماً . . .

٥

كانت زينب إبنة الحاج مصطفى فتـاة وادعة، قليلة الكـلام، ذات وجـه مثلث تزينـه عينـان واسعتـان سـوداوان، وفم دقيق، ولسمرة وجهها جـاذبية حلوة، وميلهـا إلى الصمت يسبغ عليهـا رونقاً أخاذاً، ويزيد من شدة التعلق بها، والتفكير فيها.

وكـانت زينب ترمق الأحـداث دون أن تُبـدي رأيـاً، أو تعلق

بكلمةٍ، لم يبدُ عليها أنها تمالىء أُمها، أو تميل إلى رأي أبيها، سلوكها ينبي عن السلبيـة المطلقة، لكن لها عالمهـا الخـاص الذي تعيش فيه والذي لا يقتحمه أحد ليعرف أسراره، وذكرياتها ضئيلة، فهي منـذ زمن بعيد لم يعـد يصرِّح لهـا أبـوهـا أو أُمهـا بمغادرة المنزل، شأن بنات الأسَر الكريمة، ولا تختلـط بأحد من الزائرين سوى النساء والفتيات من أمثالها. وعندما تمَّت خطبتها لمصطفى الفرماوي، تناوبتها مشاعر جديدة، ثرية بالإنفعـالات والأشواق والأحلام، على الرغم من أنها لم تنفرد به مرة واحدة، أو تحظى بالحـديث معه، فـأمر زواجهـا كان شيئـاً يخصُّ أباهـا بـالدرجـة الأولى، ولم تعرف عن زوجهـا، في بدايـة الأمر، إلا بعض الأخبـار الغامضـة، التي تسمعها على استحيـاء، حينمـا تحدثها الخادمات، لكنها استطاعت أن تدبر مع إحداهن طريقة لرؤيته، أحاطتها بكل أنواع الحذر والكتمان، وهكـذا أمكنها أن تراه يسير في الشارع من خلف النافذة المغلقة، كان قلبها يـدقُّ في رعب، ولم تستطع أن تبقى هكذا سوى لحظات قليلة، مخافة أن يفاجئها أحد متلبسة بتلك الجريمة البشعـة.. وبعدهـا كانت تعلم من الخدم أنه قد أتى لزيارة أبيها، فتحاول أن تسترق السمع لعلها تروي شغفها وهي تستمع إلى نبرات صوته.. ومن آنٍ لآخر تهـرول إلى النافـذة المعهودة لتـراه من بعيـد وهـو ينـطلق على شاطىء النيل إلى بيته..

لقـد استـطاع خيـال مصـطفى أن يؤنس وحشتهـا، ويـروي أحـلامها المتعطشة، وأن يسدّ فراغـاً مخيفـاً كـان يخيم على

روحها القلقة، وأصبح لاسمه رنين حلو، ولذكراه متعة فريدة لا يستشعرها إلا قلبها الخافق. وكلما اقترب موعد الزفاف سرت في جسدها رعشة لذيذة المذاق، وخالطت يقظتها أحلام جميلة في غموضها وتموُّجاتها، وهكذا كانت تأوي إلى فراشها وتظل لفترة طويلة مفتوحة العينين، والظلام يحيط بها، لكَم تمنّت أن تبقى هكذا أبد الدهر . . وتحدثها نفسها أن «مصطفى» سيأتي ويطرق باب نافذتها في رقة وهدوء، ولا شك أنها ستهرع إلى النافذة وتعالجها برفق، ثم تفاجأ بوجهه المشرق ، فتشهق مذعورة ، أو تبدو وكأنها مذعورة ، في الوقت الذي تتمنى فيه أن تظل وقفتها إلى جواره طول العمر . . . وتظل تتسمع خطوات السائرين في الطريق ، تنتظر أن يأتي فتاها الحبيب لينقر على النافذة . . . لكنه لا يأتي . . وتظل تنتظر وتتسمع حتى يسلبها النوم إرادتها ، فتغرق في سبات عميق ، ولا تكون أحلام النوم إلاَّ إمتداداً لأحلام اليقظة . . وأدركت أن دخول طيف مصطفى إلى حياتها قد أعطاها مذاقاً من نوع شهي ، فلم يكن غريباً أن تقرأ « الفاتحة » كل مساء لسيدنا الحسين وللسيدة زينب ، آملة أن يساعدها أولياء الله الصالحين في الإسراع بموعد الزواج المرتقب . . .

لكن نفير الحرب ينطلق، وطبول المعركة تدقُّ في أنحاء القاهرة، والأنباء تترى، وعشرات بل مئات الحكايات تُروى عن الغزاة، وعن المعارك المقبلة، وأبوها يغرق في دوامة من الأعمال التي تتعلق بالحرب، وأخوها يترك البيت ولا يأتي إليه إلاَّ لماماً ، وأمها لا تفتأ تثير المناوشات والمناقشات الحادة مع أبيها ،

وإذا لم يكن أبوها موجوداً فأمها لا تكفّ عن الصخب والإحتداء مع أي إنسان في البيت ، دون أن تنتظر جواباً من أحد . . ومصطفى هو الآخر ، ذهب إلى حيث ذهب أخوها ، لكنه بقي معها . . في خيالها . . حتى لحظات الإنتظار لدى النافذة في المساء ظلّت تشغل فكرها ، لأنها لا تستبعد أن يتسلل مصطفى الفرماوي من المعسكر ، ويطرق النافذة في هدوء ، ثم يشرق عليها بوجهه السمح الحلو ، ولعله يجسر أن يلمس يديها . . إنها تستشعر القشعريرة تسري في بدنها ، لمجرد الفكرة . . ثم تصدمها الحقيقة المُرّة في بعض الأحيان ، وهي أن مصطفى يتخذ مكانه في الطليعة ، وأنه قد يعود وقد لا يعود ! . . وشعرت بحنق بالغ مكتوم ، وهي تتصور أنه قد لا يعود ، واجتاحتها موجة عارمة من السخط الذي لا يجد له منفذاً . . ما هذا الذي يحدث ؟؟ ولِمَ كل ذلك ؟؟ يبدو أن أمها كانت على صواب، حينما اقترحت الهجرة بعيداً عن القاهرة وكوارثها . . .

O

عاد الحاج في المساء مرهقاً مكدوداً يرافقه الحسين، وتنهد وهو يلقي بجسده فوق حشية طرية . وبعد أن تناول عشاءه، إبتسم دون أن يفارقه قلقه، وقال:

ـ لتهدئي بالاً يا زوجتي، فالله أرحم من أن يفجعنا في آمالنا . لكن الأمر بسيط كما سبق وأوضحت لك . . أيمكن أن نستسلم هكذا ونترككم سبايا لهؤلاء الكفرة، أو ندعكم تهيمون على وجوهكم في الشوارع يلاحقكم الفرنسيون من كل جانب،

ويعتـدون على أعراضكم؟؟ المـوت أرحم من ذلـك، والمـوت والحياة أمرهما بيد الله سبحانه. . أتستـطيعين أن تفعلي شيئاً إذا فـاجأتـك السكتة القلبيـة ودّعت الحياة؟؟ قـال تعالى: «أينمـا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة».

أومأت برأسها غاضبة:

ـ الأمر لله. . ما شاء يفعل.

ثم التفت إلى زينب يضاحكها:

ـ وبعد المعركة يا زينب، سأقيم لك عرساً لم تـرَ القاهـرة له مثيلاً. . إن مصطفى شاب فاضل، وأبوه من خيرة الرجال.

كـان قلبها يـدقّ في عنف، وتلوّن وجههـا بحمـرة الخجـل، وسادها إرتباك ظاهر، فطأطأت رأسها، وكأنها تهتف بالأرض من تحتها أن تنشقّ وتبلعها.

ولم يغب عن فطنته ما يحدث، فحاول أن يدير دفة الحديث فقال:

ـوأنت يا حسين، ما هي أخبارك؟

ـ لا بأس يا أبي. . لـو كانت إستعـداداتنا المـادية على نفس مستوى إستعداداتنـا المعنويـة، لآمنت بالنصـر الأكيد. . تصـوّر الحصون مهدمة قديمة لم تتناولها يد الإصلاح، والمدافع يعلوها الصدأ، على الرغم من قلة عددها، والتنـظيمات والتخـطيطات العسكـرية يعـوزهـا الكثيـر من التنسيق والخبـرة. . إن جـريمـة المماليك والأتراك لا تغتفر، والسلطان كان الأحرى به أن يسارع بإرسال نجدة للبلاد التي يحكمها منذ مئات السنين، وتدرّ عليـه

خيراتها. . أتراه صدّق مزاعم نابليـون حينما قال إنـه يؤمن بحق السلطان في مصـر، وإنه إنمـا جـاء لـطرد الممـاليـك وتـأديبهم وتخليص مصر من قبضتهم؟ . .

قال الحاج مصطفى البشتيلي:

ـ نحن في حاجةٍ إلى معجزة. .

ـ أجل.

ـ وما ذلك على الله بعزيز يا ولدي. . .

وقاطعتهما الأم قائلة:

ـ هل علمتم بالنبأ الجديد؟

قال الحاج: ماذا؟!

ـ أخبرتني إحدى الخادمات أن أحمـد المدبـولي وأُسرتـه قد رحلوا.

ـ إلى أين؟

ـ ناحية الشرقية.

ردَّ الحاج دون اكتراث:

ـ في ستين داهية. . أحمق طول حياته. . بئس ما فعل!. . إن حبه لنفسه يجعله يخسر الدنيا والآخرة.

ـ أهذا كل ما تقوله بالنسبة لصديق عزيز عاقل؟. .

ـ الوطن أعزّ يا امرأة. .

ـ عندما تحدث الطامة الكبرى فلسـوف تقول: ليتني سمعت كلام زوجتي.

ـ ليس من المكتوب هروب.

وحاولت الأم جاهدة أن تحرِّض ولدها على الهروب لدى أخواله، كما بذلت جهداً كبيراً في أن تقنع خطيب ابنتها أن يرحل عن هذا المكان الخطر كي ينجو بحياته ومستقبله، ومع ذلك فلم تجد إستجابة من أيهما.. كانت الأحداث أقوى منها، وكانت فورة الحماسة تلفح الجميع بنيرانها، ولم يكن في الإمكان أن تجد مكاناً في رؤوس الشباب لنصائحها المثبطة، ومن ثم آوت إلى مكان منعزل واجمة النفس، مضطربة القلب، ومن آنٍ لآخر تنهمر دموعها الغزيرة، وخاصة عندما يشرد بها الخيال، فتتخيل أن وحيدها قد لا يرجع إليها، وأن زوجها قد تقضي عليه رمية طائشة...

٧

الملك لله وحده..

يا للكارثة!.. أيمكن أن يحدث هذا وبهذه البساطة والسرعة المذهلة؟.. مَن كان يتصوَّر؟.. هكذا كان يفكر الحاج مصطفى البشتيلي في اليوم التالي لمعركة إمبابة الشهيرة.. كانت صورة ما حدث لا تفارق خياله مطلقاً: نابوليون يتقدم.. جموع المماليك تذوب أمام نيرانه الحامية.. أسلحتهم الصدئة البطيئة لا تستطيع الصمود أمام معدّاته الحديثة... أفكارهم المتخلفة، وخططهم البالية البدائية، وغرورهم الأحمق، سرعان ما تهاوى أمام أفكار نابليون الجريئة، ورسمه البارع... جنة مصر الخضراء، وأهرامها السامقة تجذبه إليها، فيندفع هو وجنوده في

جنون . . .

الملك لله وحده . .

مراد بك يفرُّ مذعوراً، مع البقية الباقية من رجاله نحو الصعيد، وبكوات المماليك - الذين طالما تجبَّروا وبطشوا - يسرعون في رعبٍ فيختطفون أموالهم ومجوهراتهم، وما خفَّ من أمتعتهم، ويحملون أطفالهم ونساءهم، ويولُّون الأدبار، تاركين المجد والقصور الفخمة والحدائق الغنّاء، ثم يبدأون رحلة التشرُّد والضياع في صحراء المجهول! . .

الملك لله وحده . . .

ولم يبقَ في المعركة غير جماهير الشعب تقاوم في استماتة يائسة . . والمماليك يعتبرون هذه المقاومة الشعبية الشريفة تغطية لانسحابهم وهروبهم . . والمصريون والعربان ورجال البدو يرمون بأنفسهم وسط لهيب المعركة، لا يفكرون في عدم جدوى المقاومة . . إن عليهم أن يواصلوا المعركة حتى الموت . . أجل . . حتى الموت . . وتمتلىء الطرقات بالضحايا، ويمتزج الدم الحر بالتراب الغالي . .

سبحان الله . . الحاج مصطفى ينظر إلى المماليك المطاردين الذين يعبرون النيل في هلعٍ شديد، منهم مَن يصل إلى برٍّ الأمان، ومنهم مَن يقصر جهده فتتلقفه الأمواج فيهوي إلى قاع النيل، ومنهم مَن يدركه الفرنسيون فيخرُّ صريع رصاصهم . . والغبار يملأ الجو الحار الخانق، والصراع محتدم مرير . لكأنه يوم القيامة . . يوم الهول . . .

الملك لله وحده. . .

إبـراهيم بك وجنـوده المعسكرون في بـولاق، يغذّون السيـر نـاحية الشـرق فـراراً من مصيـر مـراد بـك. . لم يبقَ في أرض المعركة إلاّ أهل القاهرة الحقيقيين. . حتى هؤلاء أيضاً، عنـدما رأوا مـراكب المماليـك في النيل وقـد اشتعلت فيها النيـران إثـر انفجـار في سفن الذخيـرة، وإرتفع لهيبهـا ودخـانهـا إلى عنـان السماء، ظنوا أن الفرنسيين ينوون حـرق القاهـرة عن آخرهـا. . فحـاول بعض المصريين القـادرين من ذوي المكـانـة والثـراء، الهروب بجلدهم. . .

وبكى الحاج مصطفى، وتلك الصور التعسة تتوالى على ذهنه المكدود. . بكى كما لم يبكِ من قبل. . لم يكن مرتاح الضمير، على الرغم من أنه بذل أقصى ما يستـطيع في المعـركة. . كـان يجري ويجمع الناس، وينفخ فيهم روح المقاومة، ويطلق النيران من مدفع قديم. . ويجازف بنفسه. . لم يكترث عنـدما أصـابته بعض الشظايا. . لم يكن يفكر في ولده الذي لم يره في جحيم المعـركة، ولا وردت على ذهنـه صورة أسـرتـه الصغيـرة وبيتـه المتـواضع. . لقـد نسي كـل شيء إلا الصـراع المـريـر الـذي يخوضه.

«آه!. . كان الفرنسيون يضحكون في غلظة، ويتحـركون في عنف، ويقتلون ببساطة. . يقسمون أنفسهم على هيئة مربعات، ويـطبقون في نـظام محكم. . وأنا أقف متحسـراً. . آه لـو كنت أملك مثلما يملكون من سلاح. . إذن لمَا دنّست أقدامهم أرض

بولاق والقاهـرة. . إن الموجـة الكاسحـة التي اجتاحت القـاهرة أمس، لا يمكن أن أنساها. . . والفرنسيون، وهم يختالون على جثث الضحايا بخيولهم وفظاظتهم، ظلّت أمام عيني طوال ليلة أمس. . لم أستطع النوم. . إن هـدير الألـوف، وهم يهرولـون بأطفـالهم ونسـائهم أمام العـاصفة التي لا تـرحم، قد مـزّق نياط قلبي. . الجموع التعسة الهائمة على وجهها خارج القاهرة، لم تكن تفهم معنى مقنعاً لكل ما يحدث. . الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو أن الأقوياء لا يرحمون. . والأقوياء يفعلون ما يحلو لهم.. . الكوارث تقع دائماً تبعتها على رؤوس هؤلاء التعساء الذين لا ذنب لهم. . آه. . إنه شيء فظيع أن تدوس حوافر الخيل جسد إنسان، سواء أكـان حياً أو ميتـاً . . إن الصـورة لا تـدعني أنـام. . تمـلأ قلبي بـالضياع والألم، وبـالحقـد أيضـاً. . مستحيـل أن أنسى ذلـك. . فلتسقط مـدينتهم. . . فليسقط الخـوف . . فلتسقط كـل المعـاني السافلة . . برغم كـل ما حـدث ، فأنـا أتحرّق شـوقاً إلى معـركة جديدة ، ولو يائسة . . معركة ومعركة ومعركة . . صراع مستمـر حتى ولو انتصر الأوغاد الكفـرة . . لا بد أن تستمـر المعارك حتى يتعبوا . . حتى ينفد رصيدهم من الجهد والحماسة . . إنهم بشر ، وتجري عليهم سنن الهزيمة والنصر ، والخوف والشجاعة ، واليأس والأمـل . . إنهم لا يفترقـون عنا كثيـراً سوى في المـظهـر المـادي للحـرب والحيـاة . . عنـدمـا تتحـول حيـاتهم إلى قلقٍ دائم ، وتوجُّس ، فسيفقدون حلاوة النصر ، وستتحول الجنة التي حلموا بها إلى جحيم لا يُطاق . . هذا ما يجب أن يكون » . . .

أجل.. الملك لله وحده...

عندما عاد الحاج مصطفى بالأمس إلى منزله، كانت زوجه ترى ملابسه السوداء والخوف يغطي وجهها بشحوب جليّ، وينبثق في نظراتها التائهة القلقة، وصرخت بصوتٍ مبحوح:

ـ أين ولدي؟!

قال في مرارة:

ـ كان الناس يسقطون بالآلاف..

ـ ما شأني بهم.. أسأل عن ولدي.

واستطرد شارداً:

ـ وداست الأقدام وسنابك الخيل شيخاً عجوزاً.. كانت لحيته مضرجة بالدم.. ورأيت صبياً يجلس في الطريق مكسور الساق ينزف دماً، ووجهه كوجه الموتى.. ورأيت.. ورأيت.. رأيت البشاعة في حقل الموت...

قالت في صبرٍ نافذ:

ـ والحسين؟.

ـ كانت ملامح الحسين تبدو على هذه الوجوه كلها.

فانفجرت باكية.

قال لها زوجها:

ـ لماذا تبكين؟

ـ ولدي.. ولدي يا سي مصطفى.

ـ أنا لا أعرف...

ـ ماذا لو سمعت كلامي؟.. أحمد المدبولي نجا بنفسه

وأسرته. . حتى السيد عمر مكرم، ألم تسمع؟. . لقد هرب وهو العالم المنسب. . فمن أنت بالنسبة لهؤلاء جميعاً؟. .

هزَّ رأسه في أسى وقال:

ـ كل إنسان حُرّ في اختيار الطريق الذي يسير فيه، وأنا اخترت فلا آسف على شيء يحدث. . وعمر مكرم لا أظنه يهرب، لا بد وأنه ينوي شيئاً، ويبدو لي أنه سيقيم في برّ الشام كي يتصل بإخواننا العرب، ويحاول مناشدة السلطان التركي كي يرسل نجدة لهذه الأرض الجريحة. إنني لا أشك لحظة في نوايا هذا الرجل العظيم الشريف. . أما أحمد المدبولي فهو شيء آخر، كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لو أُتيحت لي الفرصة للرحيل عن هنا فلن أفعل. . مستحيل أن أفعلها.

أخذت تجفف دموعها وتقول:

لو لم تبحث لي عن ولدي، فسأخرج بنفسي. .

ودقّ الباب. . وصاح الحاج متوتراً:

ـ مَن؟. .

لقد حانت لحظة التنكيل بالبيوت والحريم. . وهل يفعل الجيش الغازي سوى ذلك؟! ووقف شعر رأسه، ونظر إلى سيفه المعلّق. . وهبّت زوجه واقفة. . وتمتم:

ـ «ومَن مات دون عرضه فهو شهيد». . صدق رسول الله.

وصرخ مرة ثانية:

ـ مَن؟. .

وسمع صرير الباب. . ودخل ولده الحسين مغبّر الوجه ملطخاً

بالدم والأوحال والخدوش. . .

وصاحت الأم: ولدي. . ولدي.

وقال الحاج في هدوء:

ـ هل أتيت؟. .

وقال الحسين:

ـ ليتني ما أتيت. . .

وانفجر باكياً. . ومن بين دموعه أخذ يقول:

ـ لقد مات خلق كثير. . وحاقت بنا الهزيمة.

ثم شهق ملتاعاً:

ـ ومات مصطفى الفرماوي. .

وسمع في داخل البيت صرخة عالية، وأنين خافت محزن.

هزَّ الحاج رأسه وأخذ يقول والدموع تنسكب على خدّه في سكون:

ـ زينب تبكي. . والقلب يبكي.

وأخذت الزوجة تضرب على صدرها، وتدقُّ رأسها في الحائط وتقول:

ـ يا مصيبتي. . يا مصيبتي!. . يا قلة حظك يا زينب. .

وتمادت في البكاء والنحيب، حتى أصبح من العسير التمييز بين نشيجها ونشيج ابنتها الكسيرة القلب.

ومضى الحاج يقول:

ـ لقد لقي الله على أنبل صورة يتعشقها مؤمن. . كم ألفاً من الشرفاء على غرار مصطفى ودّعوا الحياة بالأمس؟!

الذين يموتـون قد يكـونون أعـظم ممن يبقون عـلى قيد الحيـاة . . الـذين يستحقون أن يـوضع غـار النصر فـوق رؤوسهم يمـوتـون مبكراً. . ما أشد حزني عليك يا مصطفى! . .

بينـما كـانت الأم تقـاطعـه منتحبـة : يـا بنتي. . يـا بنتي يـا مسكينة. . لمَ كل هذا؟!

ويهمس الحسين:

ـ عنـدما دارت الـدائرة على عسكـرنـا كـاد أن يـطيش عقـل مصطفى، بل بـدا وكأنـه قد جنَّ بـالفعل. . كـان يثب ويضرب بسـرعة مـذهلة. . كان يبـذل جهداً فـوق طاقـة البشـر. . ولكَم أُتيحت له الفرصـة كي ينجو، لكنـه أبى، كان كمن يحـاول أن يوقف سيلاً جارفاً بيدين واهنتين. . وكادت تقضي عليَّ ضربة من أحد فرسان الأعداء، لكنه دفعني بعيداً في آخر لحظة، وهكـذا نجّاني من موت محقق. . أما هو فقـد قضي عليه على الأثـر. . تصورّوا، لم أستطع أن أحمـل جثمان البـطل الذي أبعـد عني شبح الموت. . مستحيل أن أنسى ما حدث. . .

وأخذ جسده يرتجف من شدة الإنفعال دون بكاء، ثم تمتم:

ـ ومع ذلك فقد أدّى واجبه واستـراح. . وبقي على الأحياء أن يواصلوا خطى نضالهم حتى النهاية. . حتى الموت أو النصر. . لم أعد أخاف شيئاً حتى الموت نفسـه، وإذا كان الغـزاة الكفرة يموتون من أجل مطامع دنيويـة تافهـة، أيليق بنا أن ننكص على أعقابنا من أجل الدفاع عن شرف الوطن والدين؟ . .

وهجمت عليه أمه، واحتوته بين ذراعيهـا، ودموعهـا لا تكف

عن الإنهمار، وأخذت تقول:

ـ لن أدعك ترمي بنفسك في ذلك الشقاء مرة ثانية.

هزَّ الحاج رأسه قائلاً وقد شرد بنظراته:

ـ لقد فات الأوان، ولم يعد في استطاعتك يا امرأة أن تعترضي الطوفان:

أجابته قائلة:

ـ لم يفُت الأوان بعد، وفي إمكاننا أن نترك المدينة الليلة ونرحل بعيداً.

همس الحاج:

ـ لقد مات مصطفى الفرماوي...

وقالت الزوجة:

ـ لشدّ ما حزنت عليه، لكن الموت لا يمكن التحايل عليه.. إنتهى الأمر.

قال الحاج:

ـ لم ينتهِ بعد.. موته بداية حياة.. الذي مات فعلاً هو أحمد المدبولي.

ـ بل يحيا في أمان على أرض بعيدة..

ـ إن حياته بداية موت أبدي.. ومصطفى لن يموت.

وأخذ الحاج يدقُّ الأرض بقبضته ويصرخ بأعلى صوته:

ـ ومصطفى لن يموت.. لن يموت.. لأنه أنا وأنت وكل الشرفاء المؤمنين.. لأنه هذا الشعب.. إنه فوق كل عوامل الموت والفناء.. أتفهمين؟؟

وأتـت زينب مهرولة، وعلى وجهها الشاحب الحزين إبتسامة بلهاء تبللها الدموع، وأخذت تقول:

ـ أحقاً لم يمت يا أبي؟.. كيف؟.. إنني لا أفهم.

وأمسك الحاج بيد فتاته، وأجلسها إلى جـواره، وضمّها إليـه في حنان.. بينما عادت الدموع تملأ عينيه، وأخذ يتمتم:

ـ لا تحزني يا زينب، لقد ذهب إلى الله طاهراً نبيلاً..

قالت ساهمة:

ـ ولن يعود..

ـ إنه معنا دائماً..

ـ إذن فقد مات.. لكن لمـاذا لا يكون لـه قبر كبـاقي الناس حتى يُزار؟..

ـ لو استطعنا لدفنّاه بين حنايا الضلوع.

ـ لكن لا بد أن يُدفن في قبر يا أبي.

ـ إنه خلق كثير.. مـاتوا معـاً، وسيُدفنـون معاً.. يـا لها من صحبةٍ رائعة في العالم الآخر...

وأدرك الأب أن ابنته تعاني أزمة نفسية حادة قد تذهب بعقلها، فتمتم في توجُّس:

ـ هوِّني عليك يا ابنتي.. كل شيء إلى زوال.

لسـوف تنتظره زينب في المسـاء، والأحلام تـوشي عـالمهـا الخصب الحـزين.. وستظل إلى الأبـد تتوقـع خطوات فـارسها المحبوب، وهو يضرب الأرض بأقدامه القوية.. وستنتظر طَرقاته الساحرة على النافذة، لكنها هذه المـرة تتعذب في عـالم اليأس

والـذهول، لأن المـوتى لا يطرقـون نوافـذ الأحياء. . وستصفـر الريح، ويصمت الكون، ويمتد الشقاء، وترتطم الأحلام الجميلة بصخرة الواقع المرير . . آه . . لقد مات مصطفى . .

٨

عـاد بـرطلمين منتفـخ الأوداج، والعـرق يتصبب على جبينـه الأشقـر المحتقن، وحولـه كوكبة من الجنـود الأروام ـ حـرسـه الخاص ـ يحيطون به وقد شهروا سيوفهم ، وقد بدا من هـذا المشهد لأول وهلة أن الرجل يمتُّ بصلةٍ كبيرة للحكام الجـدد، وأنه ذو حظوة عظيمة لديهم. وعلى الرغم مما يشعر به برطلمين من تعب إلا أنه يستمتع بقسطٍ وافرٍ من السعادة والرضى، ويدرك عن يقين أن خـطته قـد نجحت، وأنه قـد خطا الخـطوات الأولى الهامـة والحاسمة على سُلم المجد الذي طالما حلَم به. إن الأمور على وشـك أن تستتب بعد أن احتـل الفرنسيـون القاهـرة ـ عاصمـة البلاد ـ وبعد أن استولوا على قلاعها وحصـونها ونقـاط الإرتكاز الهامة فيها. وقصور الممـاليك الخـاوية، قـد تحوّلت إلى سكنٍ خـاص لنابليون المنتصـر وأركان حـربـه والضبـاط الفـرنسيين العظام. . لقد تمَّ كل شيء بأسـرع مما كـان يتصوّر بـرطلمين، وابتسم في شمـاتة، وهـو يتذكـر فلول المماليـك الهـاربين إلى الجنـوب والشرق، ومن قبـل عشرات الضحـايـا وهم يسقـطون صرعى الرصاص الفرنسي. . يا لها من لحظة رائعة. . كل شيء على مـا يـرام. . أسـطول الفـرنسيين في البحـر الأبيض لـدى

شواطىء الإسكندرية، وبعض قِطَعه تجوب النيل، ونابليون الذي دوَّخ أعداءه في أوربا على رأس الجيش الغازي. . . هنيئاً لك يا برطلمين! . .

ودخل البيت كالديك الرومي، وصاح بصوتٍ آمر لم يخلُ من رنَّة حنان:

- هيلدا. . صغيرتي الفاتنة. . لسوف نرحل عن هنا بعد غد.

أتت هيلدا مهرولة، وعلى وجهها أمارات ذبول ظاهرة، ولم يكن شعرها على العهد به منسَّقاً، وبدا عليها وكأنها لم تنم منذ ثلاث ليالٍ. . وقالت دون حماس:

- إلى أين؟

- أوه يا قطتي المشاكسة. . أنتِ تعلمين أن قصور أوغاد المماليك خاوية على عروشها، ولنا أن نختار. . الأمر أمرنا يا هيلدا.

لم ينتظر منها جواباً، لأنه كان في حالة من التوتر وعدم التركيز لا تسمح له بالمتابعة الكاملة. . لقد وجد نفسه فجأة إنساناً ذا شأن. . النجاح السريع أربكه، والآمال المتزاحمة تكاد تورثه الدوار، العالم الجديد - عالم الجيش القادم من أوربا بما له من نُظم وتقاليد وسلوك - قد بهره بشدة. إن برطلمين في حالة وجدانية زاخرة بشتى الإنفعالات. . تارة يتذكر ماضيه. . الدكان الحقير في الموسكي الذي يبيع فيه الزجاجات. . حثالة البشر في شوارع القاهرة لا يتورّعون أن يهتفوا بإبنته «يا بنت فرط الرمان يا حلوة». . ورؤساؤه من المماليك كانوا يأمرون وينهون، ويفسدون

عليه طموحه، وحريته في الحركة وفي السلب والنهب. . . وذلك الوغد السافل إبراهيم آغا، الذي استطاع أن يلج قلب ابنته ويؤثر عليها. . وأيام الضنك التي كان يمرُّ بها. . ورغبته العارمة ـ التي يغذّيها التعصب الأعمى ـ في أن يدمر ويسحق بل ويقتل . . . كان دائماً يشعر بأنه مغبون، في حاجة مُلحة مستمرة إلى المال، والمنصب الكبير، والخدم. . لقد كان جبينه يتقطب غيظاً وهو يستعرض تلك الذكريات الماضية، لكن سرعان ما انفرجت أسارير وجهه وقد وثب بخياله إلى الحاضر الرائع الجميل. . إنه وسط الحرب والدماء والأشلاء وصرخات الإستغاثة والقلق يستشعر سعادة من نوع غريب!. . لكَم يتمنى أن يزيد هذا الإضطراب، إن مثل هذا الجو يبهجه، ويشفي من جراح نفسه وكبريائه، ويرضي غروره وطموحه. . .

وصاح من جديد:

ـ هيلدا. .

ـ نعم. . .

ـ لا شك أنكِ أعددتِ طعاماً شهياً، وبضعة كؤوس من الخمر المعتقة.

ـ أُمي متعبة.

قال في ضجر:

ـ أوه. . إن أُمكِ لا يحلو لها المرض إلا في الأوقات الجميلة. . ثم هل يعني مرضها ألا نتناول طعامنا، ونروي ظمأنا؟؟ أنتِ تعلمين ما أُكابده هذه الأيام من مشاق حتى نثبت

دعائم الغزو الفرنسي.. لستُ «فرط الرمان» ولا «برطلمين» كما يرطن العامة.. أنا اليوم «برتلمي».. إن إسمي الحقيقي يتناسب جداً مع الأسماء الطنانة التي وفدت إلى مصر، أمثال نابليون.. ديبوي.. كليبر.. مينو.. إلخ...

وانتقل فجأة إلى موضوع آخر:

ـ لقد هرب الجبناء.. المماليك.. تركوا أهل البلد في حيص بيص.. لكن الشيء الذي أحنقني هو أن هؤلاء السفلة والرعاع يقاومون، ماذا يظنون؟؟ أيمكن أن تقف عصيهم، وسيوفهم الصدئة، ومدافعهم القليلة القديمة، أمام نيران فرنسا العظيمة؟!.. والمصيبة الكبرى أنهم كانوا ينتظرون العون من تركيا..

ثم توجه إلى ابنته قائلاً:

ـ وبهذه المناسبة، لم تسأليني عن «إبراهيم آغا».

لم تفارق صورته مخيلتها منذ أن رأته في إمبابة.. كانت تجد نفسها تفكر فيه على الرغم منها، وكلما حاولت نسيانه، عاد خياله يداعبها في اليقظة والمنام، وعندما سمعت عبارة أبيها الأخيرة هتفت في توجّس:

ـ ماذا جرى له؟؟

قال في هدوء بارد وعيناه ترمقانها دون رحمة:

ـ مات...

لم تستقبل الأمر في انهيارٍ كما كان أبوها يتوقع، إحساس داخلي يدعوها إلى الشك في كلام أبيها.. إن أباها يكذب، هذا

ما تعتقده عن يقين.

وقهقه مبتهجاً، فقد سُرَّ لِما لاحظه عليها من ثباتٍ، لكنه أردف:

ـ كنتُ واثقاً أنكِ لن تعبئي كثيراً بمصيره، بعد أن شرحتُ لكِ الأمر باستفاضة مقنعة.

فردّت قائلة:

ـ هل رأيته بنفسك؟!

ـ ولِمَ لا؟.. لقد كنت أرقب الأحداث عن كثب.

ـ لكنك لم تشارك في معركة إمبابة.

ـ رجالي في كل مكان.. أتفهمين؟؟ رجالي.. ولو أردت أن أستحضر لكِ جثته لفعلت.

وازدادت يقيناً أنه يكذب فتمتمت:

ـ كثيرون هربوا إلى الصعيد..

ـ لسوف يطاردهم نابليون حتى الشلال.. لم يأتِ الرجل للنزهة أو للّعب، إنه يفهم ما يريده تماماً.. لقد رأيته يا هيلدا، إنه نمط غريب من القادة.. يتصرف في ثقة، ويتحرك في سرعة ودقة، حاسم في قراراته، رجاله يعبدونه، إنه رجل رائع حقاً...

قالت ببساطة:

ـ لكنه يقتل..

ـ المحاربون في أي مكان وفي أي عصر يفعلون ذلك.

ـ وأنا أكره ذلك.

ـ لأنك رقيقة القلب.. بلهاء مثل أُمك وجدك.

وضحك من جديد، ثم طلب الطعام على عجل، وما أن امتلأت بطنه حتى تجشأ، وأخذ يتناول كؤوس الخمر في شراهة، وفجأة قال لها:

- لتشربي كأساً.

- إن مذاقها لا يروق لي.

- إنها تمحو الكثير من القلق، وتشفي جراح النفس والقلب.

- لكن إلى حين.

- إني آمرك أن تشربي.

رأت الإصرار في عينيه، لشدّ ما تكرهه اليوم، وهي تشعر بحملٍ ثقيل يحطُّ على قلبها أثقل من جبل المقطم، ولقد تحطم حلمها الجميل، كل شيء أمام عينيها ثقيل سمج يبعث على الضيق والنفور، والفراغ قاتل محزن، والضياع كالموت تماماً، إلى متى تتعذب؟.. لا بد من فترة راحة.

وقالت في سخرية مُرَّة:

- أمرك.. لسوف أشرب.

وتناولت كأساً، ثم أردفته بثانية وثالثة ورابعة، وأخذت تترنح وتهذي:

- يا بنت فرط الرمان يا حلوة.. ها.. ها.. ها.. لقد كان شيئاً طبيعياً أن يطري الناس جمالي.. وكان تعبيرهم عن الإعجاب يتخذ أشكالاً متعددة، أقواها كلها هي النظرات التي يسددها أصحابها إليّ، فأفهم منها ألف معنى. كانت تلك الكلمات أبلغ من أي مقال، وكان جسدي وروحي يترنحان

حيالها أقوى مما أترنح الآن.. وإبراهيم آغا كان.. أجل.. كان واحداً ممن يحسنون الحديث بنظراتهم، لكنه كان أعمقهم أثـراً في نفسي.. إن قصة حبنا الصامت في البداية كانت قصة رائعة. يا إلهي.. كان شهماً نبيلاً وعلى استعـداد تام لأن يضحي بـأي شيء من أجلي.. لم يحيـرني أي شيء من تصـرفـاتـه، على العكس منك يا أبي، ولهذا أحببته...

قال وهو يتناول كأساً أخرى:

ـ لا وجه للمقارنـة بيني وبين ذلك الصعلوك الآن.. أتعلمين شيئاً عن منصبي الجديد؟.. لقد أصبحت وكيـل المحافـظة.. القاهرة الكبيرة بكل مَن فيها وما فيها.. ها ها ها.. لست مثلك أدمن التفكير الكثير في الأمس، أنا إبن اليوم يا هيلدا الساذجة.. ولسوف يكون بيتنا الجديد مقرّاً لكبـار الشخصيات الفـرنسية من القواد والعلماء، ولن نكفّ عن إقامة حفـلات الرقص والسمـر، وستكونين يا هيلدا نجمـة كل حفـل، وستجدين الـرتب الكبيرة تنحني لتقبِّل يدك اللدنة يا مثـال الجمال الفـاتن.. سيكون بيتي وكأنه جزء من المجتمع الفرنسي في باريس..

قالت هيلدا وقد شردت بنظراتها:

ـ ألا يزعج هذا أمي المريضة؟

ـ أوه.. أمك.. أمك.. وماذا سنفعل لها؟..

وأخذت تتخبط:

ـ لكني لن أتـزوج واحداً من هؤلاء الأوغـاد الـذين تتحـدث عنهم.

ـ لو حدث وطلب أحدهم يدك، فسيكون ذلك غاية المنى.

ـ إنهم لا يجيـدون سوى القتل.

ـ إنهم فرسان حب قبل أن يكونوا رجال ميدان.

ـ المحارب في الميدان، عندما ينتهي من إحـدى الغزوات، يفكر في غـزوة أخرى..

ـ تنطقين بما يشبه الحكمة يا ابنة برتلمي، ومع ذلك فثقي أن المحارب يملّ الكرّ والفرّ، ويبحث دائماً عن ثغر حنون يجد لديه الحب والسلام.

ألقت برأسها إلى الخلف وهي تغالب النوم، وأخذت تقول:

ـ ليكن ما يكون، فأنا على إستعداد تام للتحدِّي والعبث، ألا تريد ذلك؟ حسناً، إن بي شغفاً زائداً لألهو بهؤلاء الذين يلهـون بحياة البشر.. ثم إنهم لا شك نوع جديد من الرجال... آه.. هذه الحياة لا معنى لها.. الكل باطل، باطل الأباطيل.. ليذهب كل شيء إلى الجحيم.. وأقسى ما فيهـا أن يضلَّ الإنسـان في طريق البحث عن الحقيقة، وألا يعثر على السعادة.. تُرى ما هي السعادة في رأيك يا أبي؟

ضحك من أعماقه، وقد ازداد إحتقان وجهه:

ـ يا فيلسوفتي الصغيرة، السعادة هي أن أبلغ ما أريد.

ـ إذن فأنا تعسة.

ـ تعاسة مدهومة.

ـ لماذا؟

ـ لأنك في الحقيقة لا تعرفين ما تريدين.. إن أحلامكِ البلهاء

في الحب والمجتمع، لا تتساوى مع الأفكار الواعية التي يديرها العقلاء في رؤوسهم . . . عندما تعرفين حقاً ما تريدين ـ كما حدث لي ـ فلسوف تصلين إليه وأنتِ إلى جواري.

إبتسمت في أسى وقالت:

ـ إنك تفكر في نفسك فحسب، وتريد أن تتخذ من نفسك «وحدة قياس» وأنت تتكلم عن سعادة الآخرين. . أي أبي. . إن قلبي يحدثني أن لكلٍ سعادته.

ـ تلك أنانية.

ـ بل إتهام توجهه إلى نفسك.

ـ يا صغيرتي الوقحة! . . للسعادة مقاييس عامة.

ـ لكن مقاييسك يا أبي لا تروق لي . . .

وتثاءبت وهي تقول:

ـ كنت أرى في عينيه الحب، فيتدفق في قلبي نبع للسعادة فيّاض بالمعاني الحلوة. . وكنت إلى جواره أشعر أن الدنيا كلها مُلك يميني. . لطالما أشعرني أنني الآمرة الناهية. . أنني مليكته المتّوجة.

قال في سخرية:

ـ كان صعلوكاً لا أكثر ولا أقل. . وستتوّجين نفسك ملكة على العشرات من الضباط والعلماء العظام، وستدركين آنذاك أنكِ كنت تعيشين في وهمٍ سخيف. . . أي هيلدا العزيزة. . يجب أن تتطهري من كل أدران الماضي الحقير الذي عشناه في عجزٍ وفقرٍ وذلّ. . إن حياتنا الحقيقية تبدأ منذ اليوم، وعهدنا الجديد

يحتـاج إلى روحٍ جـديـدة. . لنعتبـر أنفسنـا الآن ضمن جيش الغزاة. . ومَن يتجرأ ويقول لكِ في الـطريق العام «يـا بنت فرط الرمان يا حلوة» فلسوف أقطع لسانـه. . إن أباكِ سيتمتـع بسلطةٍ سياسية وقضائية لا حدّ لها. . . فما رأيك؟؟

لم تستطع هيلدا أن تجيب على تساؤله، فقد راحت في سباتٍ عميق. . .

٩

وقف «برتلمي» مشدود القامة، صارم الملامح، خافق القلب، وكأنه في حضرة إله . . لمَ لا ، وهو يجد نفسـه قبالـة « نابليـون » العظيم ، القائد المنتصر الذي تردّد اسمه في أنحاء الأرض . . لقد خيّل إلى برتلمي أنه في حالة ذوبان وامتزاجٍ كلي مع القائد الكبير ، وكان نابليون يتفحصه بنـظراتٍ نافـذة قلّما تخطىء في الحكم عـلى الرجال . . وبعد فترة قال نابليون :

ـ حدثني القنصل عن إخلاصك وتحمّسك البالغ لنا.

ـ وأعتقد يا سيدي القائد أن أعمالي ستثبت ما سمعته عني.

ـ هذا مفروغ منه. . ولا شك أن الأعوام الطويلة التي قضيتها في مصر، تجعلك ذا خبرة لا بأس بها.

ـ أجل. . أجل يا سيدي.

ووضع نابليون يديه في جيبي سترته ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أدنى انفعال :

ـ إن الغزو عملية سهلة، هذا ما قدَّرته في البداية، وقد صدق

ظني.. إن رجالي لا يخذلونني في أي موقف.. لكن الأهم من الغزو هو إستمراره وتثبيت دعائمه.. واحتلالنا لمصر عملية كبرى، ستثير العالم علينا، وخاصة إنجلترا.. لكن كيد الأعداء لن ينال منا أي منال، إذا استطعنا أن نجعل الشعب المصري يرضخ لإرادتنا، وسوف نلجأ لشتى السبل مهما كانت، حتى نحقق هدفنا.

وسادت فترة صمت قال نابليون بعدها :

ـ إنني أعفو ببساطة تجعل الخصوم يتأكدون من تمكني الكامل من الموقف.. وأنا أيضاً أقسو ببساطة، تجعلهم يرتعدون عند الضرورة.

كان برتلمي يتلقف كلماته في وعي، ويتابعها بدقة، ولعله لم يبدُ عليه الإرتياح بالنسبة لمسألة العفو، ومع ذلك فهو هنا لتلقيّ الأوامر، لا لمناقشتها أو الإعتراض عليها.. إنه يتتلمذ على يد داهية من أكبر دهاة العصر، رجل تسلّح بعديدٍ من التجارب في شتى الميادين، وصارع أكبر القوى السياسية والعسكرية في أوروبا وآسيا.

واستطرد نابليون يقول :

ولكي تعفو أو تقسو، لا بد أن يكون ذلك لغاية، وهي غاية ليست إنسانية على أية حال، فليست هناك رحمة لمجرد الرحمة، وإنما بقدر ما تجلبه لنا من منفعة.. أتفهمني؟؟

ـ طبعاً.. طبعاً سيدي.

ـ وأنت يا برتلمي ستكون رئيساً للعسس.. وستمسك زمام

جهاز المخابرات.

وطرب برتلمي عند ورود إسمه على لسان القائد الكبير، وكان لاسمه - وهو يخرج من بين شفتي نابوليون - رنَّة محببة إلى سمعه، لعله لم يشغف بكلمة «برتلمي» كما شغف بها في تلك اللحظات.. وتمتم برتلمي:

- نعم سيدي..

- بالإضافة إلى عملك كوكيل للمحافظ.

- نعم سيدي..

- معنى ذلك أن لك من السلطات، وتحت يدك من الإمكانيات، أكثر مما تريد.. بالإضافة إلى مركزك الأدبي الذي ستدركه بنفسك.. ولا تنسَ أن تهتم بمصادر التمرُّد في هذا البلد.. وأعتقد أن المشايخ بالأزهر لهم نفوذ روحي بعيد المدى، من أمثال الشيخ السادات، والشرقاوي، وغيرهما...

وهزَّ برتلمي رأسه، لشدّ ما يكره الشيخ السادات.. إن هذا الرجل يستمتع بسلطةٍ خارقة.. تُرى لماذا يطيع الناس مثل هذا الإنسان؟؟ القوة وحدها يجب أن تُحترَم، أعني مظاهر القوة المادية.. وغداً أعرف كيف أمسك مصيره بيدي، وكيف أمرغ جبينه «الطاهر» في التراب!.. وهل أنسى أنه كان دائماً يؤازر العامة، ويعترض على غزواتنا الموفقة في شوارع القاهرة، واستيلائنا على ما في دكاكينها ووكائلها من ثروات؟؟ بل كان يصيح في وجه كل من مراد بك وإبراهيم بك متوعداً.. لقد جاء يومه.

وأفاق برتلمي من أحلامه على صوت نابليون :

ـ يجب أن نناقش هؤلاء المشايخ ونثق فيهم. قد يبدو الأمر غريباً، لكن يجب أن تظل أعيننا مفتوحة. .

ثم استطرد بعد فترة:

ـ برتلمي. .

ـ نعم سيدي.

ـ يجب أن نقطع بعض الرؤوس، ونطوف بها في الشوارع من آنٍ لآخر.

ـ أجل. . أجل.

ـ والمال يا برتلمي. . لا مانع أن نعفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام نظير مبلغ كبير من المال، ومن ثم لا بد من مراقبة الأثرياء، واصطياد الأخطاء لهم.

وتوقف نابليون عن المسير برهة، ثم قال:

ـ أتعتقد يا برتلمي أن المشايخ والكبراء هم كل شيء؟؟ لا أظن ذلك. . إن جماهير الشعب هي التي تلعب الدور الأخطر دائماً، هذا لا يفوتني، على الرغم من ضعف مستوى الشعب هنا، ومآسيه الإجتماعية والإقتصادية. . لكن شقاقاً كبيراً يجب أن يفصل القادة عن جماهيرهم، ولهذا قررت أن أُنشىء «ديواناً» يضمّ ذوي الرأي من العلماء والتجار والفلاحين والأعيان، ليكون مجلس شورى مصغر، وفي حقيقته تنظيماً مساعداً لنا. . سوف يتكلم هذا الديوان، لكن بألسنتنا، وسنخلق صراعاً دائماً بينه وبين الناس، وقد نجد أنفسنا مضطرّين إلى أن نلبي بعض رغبات

الديوان، ونجعله يساهم في حلّ مشاكل الجماهير عندما نرى أن المصلحة تقتضي ذلك.

وشرد نابليـون برهة، ثم عاد يقول:

ـ هذا بعض ما أفكر فيه.. وأنت يجب ألا تنام، وسألتقي بك من آنٍ لآخر.. حسناً، تستطيع أن تنصرف...

●

وخشعت القاهرة العظيمة في عذاب.. لم يكن خشوعها نومة أبدية، أو نكسة في كبريـائها، أو رضـوخاً للذلّ.. كـانت تبكي شهداءها، وتداوي جراحها، وتستر جسدها الممزق، بل وتلتقط أنفاسها لتنهض، وتعيد النظر إلى ما حولها. وعاد الناس يسيرون في الشوارع، يتحدثـون ويشترون ويبيعـون، ويؤذنون للصـلاة، ويتـوافـدون على الأزهـر الشـريف، ويتهـامسـون عن الغـزاة، وينظرون إلى وجوههم وملابسهم ولغتهم، ويتابعون سلوكهم في الحياة، واهتمامـاتهم الغريبـة في شتى المجالات... لشـدّ ما تغيـرت المدينـة بين حكامهـا الأقدمين الـذين ذهبوا، وحكـامها الجدد الذين أتوا، الشيء الذي لم يتغير في المدينـة هو الـروح الكامنة العنيدة، تقرأها على العيون، والأفواه المغلقة، والجبـاه السمراء التي لوّحتها الشمس الحارقة، والعبارات القصيـرة... وبرطلمين يجري هنا وهناك، باحثاً عن رؤوس يقطعها، وقضـايا يلفقها، وأجساد يلهبها بالسوط حتى يدميها، ورهائن يقـذف بها في سجن القلعـة، لكنـه كـان أعجـز من أن يمسـك «بـالـروح

الخالدة» الصامدة التي لا يمكن أن يصيبها بخدش، السرّ الذي لم يعرفه، ولم يحاول أن يعرفه، في قلب المدينة الكبيرة التي خشعت تحت الظلام تلمّ شعثها.

المدينة الكبيرة تختلج بالكثير من العواطف والذكريات.. وترى الغزاة يتواكبون في مساربها، يجهدون أنفسهم في البحث عن المال والحب والمجد، بعد النصر المبدئي الذي حققوه على شعب شبه أعزل.. وتمتد طرق المدينة أمام أحذيتهم الثقيلة، ونظراتهم النهمة، يريدون أن يشتروا كل شيء.. لقد استطاعوا الحصول على المال، وتنوّعت ألوان الضرائب، وأساليب النهب والمصادرات والفديات.. والمدينة الصامتة الخاشعة تحت وطأة الظلام تنتظر بصيصاً من النور، كي تستأنف المسير على هداه..

وبرتلمي لا يحسُّ بشيءٍ حقيقي أصيل يربطه بالمدينة، سوى أنها مجال غزوات، وأرض أحلام في تحقيق المجد الذي يتغنى به، حتى ولو قام ذلك المجد على أشلاء الضحايا!.. لم يجرِّب ذلك الوحش ـ ولو مرة واحدة في حياته ـ ذلك الحنين الذي يربط الناس بالناس، والبشر بالأرض والسماء، وذلك العشق المذهل الذي يستولي على ابن البلاد، فيُحيله إلى عابد متصوِّف، قد غمر قلبه حب الكائنات في كل الأنحاء.

●

كان المخطط الذي رسمه نابليون يمضي حسبما رأى، وتألف «الديوان»، وشرح لهم نابليون مهمتهم، التي ظاهرها خدمة

الجمهور ، والتعبير عن آماله ، وباطنها الخداع والتضليل ، وتحقيق رغبات الغزاة ، وهدم الثقة بين الجماهير وفئة من رجالها المرموقين .

غير أن برتلمي كان يفكر في أمر الشيخ السادات، ذلك الرجل الذي ترفَّع عن أن يكون عضواً في الديوان . . لقد تضايق برتلمي بادىء الأمر، وهو يرى رجلاً يرفع رأسه في إباء، ويتصرف في حرية، محاولاً الحفاظ على كرامته، دون أن يعبأ بقوة الحديد والنار . . لكن برتلمي رأى ـ في نفس الوقت ـ أن تصرُّف الشيخ السادات على هذه الصورة، قد كشف عن نواياه، وأبرز تمرُّده على النظام الجديد، ومن ثم فقد كشف نفسه، وحكم على مستقبله أسوأ حكم.

ورأى برتلمي أن الفرصة سانحة للقضاء على الرجل الذي يكرهه، لكن نابليون علَّق على ذلك قائلاً:

ـ إن نوايا الشيخ السادات في غاية الوضوح، وأرى أن القضاء عليه قد يكون ضرره أكثر من نفعه، ورأيي أن نتركه حرّاً، وأظنه سيفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على أي تصرف طائش. . . وهل تظن يا برتلمي أن المشايخ سيستجيبون لخطتنا مائة في المائة؟؟ إن كل شيء يوضع في الحسبان. . هناك رجال نشتريهم بالمنصب، وآخرون ندفع لهم المال، ونوع ثالث يجرُّهم التهديد والوعيد على وجوههم، أما النوع الرابع فهو يستعصي على أي شيء، ولا يعبأ حتى بالموت. . أنا أدرك ذلك. . هل نسيت السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية؟ ذلك الذي لم يتوانَ عن

محاربتنا، ومراسلة الثائرين والمماليك وغيرهم. . لم يردعه عن ذلك تثبيته حاكماً للإسكندرية. . ماذا قال عندما طلبنا منه أن يدفع فدية كبيرة أو ينفذ فيه حكم الإعدام؟؟ لقد قال يا برتلمي: « إذا كان مقدوراً عليَّ أن أموت، فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ، وإذا كان مقدَّراً لي الحياة فعلامَ أدفعه؟». . مثل هذا النوع من الرجال يحيرني إلى حدٍّ كبير، فحياته تهديد متصل، ومماته تثير علينا الكراهية، وتجرّ علينا أحقاداً لا نهاية لها. . وأراني مضطرّاً في بعض الأحايين إلى وضع حد لحياة أمثاله. . .

ولم تغمض عينا برتلمي عن الشيخ السادات، كان يرصد حوله العيون في الأزهر، وفي مجالسه الخاصة، ويتابع حركاته، ويحصي عليه كلماته واتصالاته، حتى جاءت اللحظة التي استطاع برتلمي أن يدينه تمام الإدانة . . ولكن هيهات! . .

١٥

إنه ضيف كبير يا هيلدا، ومن المقرَّبين إلى نابليون ، وهو في نفس الوقت حاكم المدينة ـ القاهرة ـ وأنا أعمل تحت إمرته، إنه جاف بعض الشيء، لكني واثق أن زيارته لنا هذه الليلة ستكون بعيدة الأثر في علاقته بنا. . إنه الجنرال «ديبوي» حاكم ميلان سابقاً بعد إحتلال إيطاليا، وينتمي لأسرة عريقة شريفة. . أرجو أن يجد الراحة التامة في منزلنا الليلة ، ولا شك أنك على علم تام بما يجب عمله . لو نجحت يا هيلدا الليلة ، فسيكون ذلك بداية

طيبة . . إنه يسكن الآن في قصر إبراهيم بك ببركة الفيل ، وأعتقد أن زيارتنا له بعد ذلك ستكون متكررة ، وسنكون من أصدقائه المخلصين . . لا وجه للمقارنة يا حبيبتي بينه وبين الصعلوك الصريع «إبراهيم آغا»، أنت لا شك تدركين ذلك .

وبدا على وجهها الضيق، حينما عاد أبوها لذكر إبراهيم آغا، وهمَّت أن تصفع ذلك الوجه الذي تكرهه ـ وجه أبيها ـ لكن كيف؟؟ إنها في هذه الأيام تشعر برغبةٍ جارفة في التحطيم والتدمير والعبث. . إن في داخلها طاقة مكبوتة تريد أن تنفجر وتحطم أي شيء. . المثل العليا أصبحت تحت نظراتها اليائسة حماقة، وإرادة الإنسان الحرَّة أكذوبة كبرى، ولم يكن هناك بد من أن تلحَّ في طلب كأس من الخمر، فابتسم أبوها قائلاً :

ـ لقد عرفت يا عزيزتي كيف تبدئين .

أقبل ديبوي، وتنسم ريحاً طيبة حينما وقعت عيناه الزرقاوان على وجه هيلدا الجميلة، وعندما واجهها ابتسم، وانحنى يقبِّل ظهر كفها في وداعة ورقة : «لشد ما أنتِ رائعة الجمال يا هيلدا» قالها هكذا دون حياء، وأمام أبيها الذي غمرته الفرحة في أول إمتحان لفتاته، وتضرَّجت وجنتاها بالحمرة الشهية، وأخذ ديبوي يفكر : «الطريق موحش مقفر، والمشاكل عديدة، والنساء كأحلام وردية تراود منامي القلق المجدب، وأنا لا أكاد أفرغ من الأعمال. . . تلك الدوامة القاتلة التي تعصف بي، وتقذفني من ميلان إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى القاهرة، وحياتي تحوَّلت إلى صراع وحشي لا هوادة فيه ولا رحمة. . . لا شك أن

هيلدا رائعـة، تجمع بين جـاذبية الشـرق الفاتنـة وبشرة الغـرب الشفـافة البـديعة، لكنهـا صغيرة. . . كـالوردة الغضّـة. . آه. . وابتسامتها تزيل الكثير مما أحسُّ بـه من آلام وإرهاق. . إليّ. . إليّ يا واحتي الخضراء. . . »

لم يكن ديبوي من السذاجة بحيث يندفع إليها كالغريق يتشبث بغصن رقيق، إنـه رجـل حـــرب يعـرف كيف يتسلل إلى قلوب العـذارى، وهـو في نفس الـوقت فـرنسي ـ وإن كـان بـولـــوني الأصل ـ يلتزم بالكثير من آداب اللياقة مـع النساء، خـاصة وهـو الليلة أمام فتاة مراهقة عـاشت حياتهـا في القاهـرة ذات الطابـع المميز.

وبعد أن أثنى على جمالها، وأحاطهـا بغير قليـل من العطف والإطـراء، انصرف إلى أبيهـا وإلى بضعة كؤوس من الخمـر. . وكان بمنزل «برتلمي» في تلك الليلة عدد من الضباط الفرنسيين وبعض الأروام نساءً ورجالاً، ودار الحديث هنا وهناك، وتواترت أطايب الأطعمة، وتبودلت بعض الملَح والطرائف، في جو ودّي منـطلق، وأُتيحت الفرصـة لعدد من هـواة الرقص، فقضـوا وقتاً ممتعـاً. . والغريب أن بعض الضبـاط الصغار قـد قامـوا بإجـراء مسرحية صغيرة كوميدية أمـام الجنرال ديبـوي وباقي الضيـوف، فأضفت على السهرة جواً جذابـاً من المرح والحـرارة. . وكانت هيلدا تنـظر إلى هذه الأفـاعيل في غـاية الـدهشة، وسـرعان مـا اندمجت في الجو، وحـاولت أن تشارك فيه بقدرٍ محـدود، وكان أبـوها سعيـداً غاية السعادة ، وهـو يراهـا تخـرج عن كـآبتهـا

وصمتها، ويكتسحها جو البهجة الجديد. . .

وفي آخر السهرة وقف الجنرال ديبوي، وقد بدت على وجهه إشراقات الإنشراح وقال:

ـ يسعدني يا هيلدا أن تتكرمي وتشرّفي بيتي في أي وقت تشائين، سأكون في منتهى السرور والسعادة . .

قالها وهو ينحني في احترام ويقبِّل يد «الأميرة» الصغيرة للمرة الثانية، بينما هتف برتلمي:

ـ إنه لشرف عظيم يا سيدي الجنرال.

بينما هزَّت هيلدا رأسها في امتنان دون أن تنطق بكلمة.

وعاد برتلمي للحديث مرة ثانية:

ـ لقد آن الأوان أن نبدأ حياة الإستقرار والراحة يا سيدي الجنرال، إن سقوط العاصمة في أيدينا يعني إنتهاء الحرب، ومن ثم لا بد أن نمرح ونبتهج.

قال ديبوي:

ـ إنك حسن النية يا عزيزي. . لقد حاربت في أوربا في ميادين عدة، وسقطت في أيدينا العواصم، لكن هذا لم يكن يعني إنتهاء المقاومة. . إن تصفية جيوب المقاومة يكبدنا الكثير يا برتلمي، بل إننا نفقد في ذلك من الرجال أكثر مما نفقد في المعارك الرئيسية. . ثم هل نسيت أن فلول المماليك يجمعون شتاتهم في الصعيد والشرقية؟؟

قال برتلمي باسماً:

أوه سيدي. . أية مقاومة تقصد؟؟ إنني أعرف هؤلاء الناس

جيداً، إن تفوُّقنا في القوة قد أعطى نتائج المعارك الباقية مقدَّماً، أتنتظر مقاومة تُذكر من فلول المماليك الجبناء، أو الفلاحين العزّل من السلاح؟!

ولوَّح ديبوي بيده معترضاً في دعابة:

ـ كفى يا برتلمي.. يبدو أن حديث الحرب لا يروق «لهيلدا».. دَعْ حديث الحرب والسياسة الآن، فالوقت متسع لذلك في الغد أثناء النهار.

لعل هيلدا ـ بعد أن انصرف الضيوف ـ كانت أكثر هدوءاً، إن كؤوس الخمر التي شربتها، وجو المرح الذي عايشته، قد أضفيا عليها شيئاً من الأمن والإستسلام، لكن الشيء الذي غذّى كبرياءها، وأرضى أُنوثتها، هو أن الجنرال ديبوي بنفسه كان يعاملها بمنتهى الإحترام والرقة.. لقد خيِّل إليها أنها في مركز أعلى من مركزه.. أيمكن أن يعامل ديبوي رئيسه نابليون بأكثر من هذه الرقة والإحترام؟.. بل إن إحترام ديبوي لها كان أكثر بكثير من أبيها، إنها لا شك مخلوق آخر يستحق كل تلك العناية، على الرغم من أنها لا تحتلّ منصباً مرموقاً، أو تحوز رتبة من رتب الجيش الكبرى.

وأدركت «هيلدا» في الأيام التالية أن الطريق إلى قلب «الجنرال ديبوي» أصبح سهلاً ممهداً.. لم يكن ليرفض لها طلباً، أو يؤجل لها رغبة من الرغبات التي تسنح، أصبحت فتاته المفضلة المدللة، حتى صغار الضباط الذين يقفون في خدمة الجنرال وتحت إمرته، كانوا يؤدُّون لها واجب التوقير والرعاية،

مثلما يفعلون مع الجنرال. ولقد أثلجت هذه العلاقة الوليدة صدر أبيها، فازداد حدبه عليها، واعتناؤه بها، لكأنما الجنرال ديبوي قد انتقل إلى منزل برتلمي، وأصبح الآمر الناهي فيه، وهل هيلدا إلا ممثلة لسلطة الجنرال ومركزه الكبير؟؟

●

أتت هيلدا ذات مساء إلى منزل الجنرال ببركة الفيل، وأدخلها الضابط البوبتجي «مالوس» إلى حجرة الإستقبال، وتمتم مالوس:

ـ «معذرة يا آنستي.. الجنرال في اجتماع بالقيادة العامة، وقد يعود بعد ساعة..»

وشعرت بشيء من الضيق، وحينما رفعت بصرها وجدت الكابتن «مالوس» ينسحب خارجاً، كان في الخامسة والعشرين من عمره، فارع الطول، قوي النظرات بدرجة ملحوظة، يتحرك في رشاقة وخفة.. ووجدت «هيلدا» نفسها تصيح:

ـ إلى أين؟؟

ـ إلى مكاني في الحراسة..

ـ هل يليق بك أن تتركني وحدي؟

لم تكن من قبل على هذه الصورة من الجرأة، لقد أتت أول مرة إلى منزل الجنرال مع أبيها، وكانت تشعر بالخجل الشديد حتى أوشكت أن تنفجر باكية، لكن تكرار الزيارة أنساها ما وقعت فيه من خجلٍ أو حرج في البداية، لكنها ظلَّت تشعر بارتباك

مؤسف كلما أتت وحدها إلى زيارة الجنرال على الرعم من أنها لم تفرِّط في شرفها وكبريائها، لكن هذا الإرتباك هو الآخر أخذ يذوي رويداً رويداً حتى اكتسب صفة العادة ففقد حقيقته.

وعادت هيلدا تقول:

ـ ما اسمك؟

ـ مالوس.. كابتن مالوس.

ـ أنت لطيف للغاية يا مالوس.

ورفع إليها عينين حائرتين لم تفقدا قوة بريقهما:

ـ أشكرك يا آنستي.

ـ لماذا لا تزورنا؟

ـ إنني أحضر دائماً مع الجنرال.

ـ أعني.. وحدك..

ـ معذرة يا آنستي، إن والدك سيد برتلمي صديق الجنرال، وهو يحتل مركزاً كبيراً.

ـ حسناً.. لا بد أن تأتي في وقت فراغك لزيارتي.. إنني أدعوك، ولا دخل لأبي في الأمر.

قال مالوس متلعثماً:

ـ آسف يا سيدتي.. إنك صديقة الجنرال.

ـ ليست صداقته حكراً.. لي أن أختار أصدقائي كما أشاء.

ـ آسف يا سيدتي.

ـ إنني آمرك.

- تريدين ضياعي.

قالت في ثورة:

- أنتم تعيشون حياة رهيبة مزعجة لا حرية لكم فيها.. هل كلكم هكذا؟

- في الجيش يا آنستي تكون الحياة مغايرة تماماً وإلا . . .

قاطعته قائلة:

- كفى. . لماذا تتحدثون إذن عن الحرية والإخاء والمساواة في ثورتكم الفرنسية الكبرى؟

- سيدتي . .

- لا تقاطعني . . أنتم تكذبون ، وتخافون ، ويستعبد الكبار منكم الصغار ، وتبررون تعاستكم وعبوديتكم باسم القانون . .

وصمتت برهة، ثم قالت:

- كابتن مالوس. . إنني أُحبك منذ أن رأيتك لأول مرة في منزلنا.

- لكن. . .

- لكنك جبان! . .

- أنتِ تحبين الجنرال، وتزورينه من آنٍ لآخر. . الكل يعلم ذلك.

- مجرد صداقة. . إنها لا تختلف - في نظري - عن صداقته لوالدي.

- حسناً. . ليكن هذا سرّاً بيننا، وإلا ضعتُ وضاع أبوكِ. . .

واقتربت منه بخطواتٍ وانية. . كان يبدو شاحب الوجه

جميلاً، يرعشه الخوف والحب. . وحينما ألقت بذراعيهـا حول عنقـه تنـاهى إلى أسمـاعهـما صـوت النفـير ، فـانتفض الكـابتن مالوس ، وصرخ في خوف :

ـ إنه الجنرال. . يا للكارثة!!

وجرى دون كلمة تحية عابرة، وتركها واقفة تكزُّ على أسنانها من الغيظ، وعادت إلى مقعدها منفعلة، صدرهـا يعلو ويهبط. . وعلى الرغم من أن رائحة الخمر كانت تنبعث من فمها، إلا أنها كانت تشعر بظمأ شـديد لمـزيد من الكؤوس المتـرعة، لشـدّ ما تحب الخمر في هذه الأيام!!

وعندما وقع بصر الجنرال عليها صاح في مرح:

ـ حبيبتي هيلدا. . إن تشوُّقي إليكِ أكبر مما تتصورين.

قالت دون أدنى حماس:

ـ أريد كأساً من الخمر.

ـ حسناً. . في لحظات سيكـون كل شيء تحت تصـرفك. . مسكين أنـا أسكر بـالخمـر وبثغـرك الشهي يـا هيلدا يـا أميـرتي الفاتنة.

ترنحت ومالت، بعد أن أثقلت في الشرب، وهمست: «أريد أن أنام».

قال الجنرال اليقظ: «هنا على صدري يا حبيبتي».

قالت في شبه غيبوبة:

ـ إن كثرة النياشين على صدرك تؤلم رأسي.

ـ لسوف أخلع تلك السترة اللعينة. .

وطـواها بين ذراعيـه، وأخذ يلتهم شفتيهـا في نهم. . كـانت كمن تعيش في حلم غـامض، ونظراتهـا الغائمـة تتبين مـلامـح مـالوس وإبـراهيم آغا، وأحـلام قديمـة تتمازج وتتصـادم، وهي غـارقة في مـوجة من الإثم لا تـدرك أبعادهـا في غمار السحب والدخان والنشوة التي تنشرها الخمرة. . وتمتم الجنـرال بعد أن انتهى كل شيء:

ـ سيدتي. . أنتِ أمتع امرأة في الوجود كله.

لكنها لم تكن في حالةٍ تسمح لها بأن تسمع شيئاً، أو تـدرك حقيقـة ما حـدث، ولم تستطع أن تغـالب النوم الـذي دهمهـا، فارتمت على أريكة حريرية ناعمة. . .

١١

عـادت هيلدا في وقتٍ متأخـر من الليـل، وصحبهـا الكـابتن مالوس إلى بيتها. . كانت صامتة شـاردة، لم تحاول أن تجـاذبه أطـراف الحديث. . مـا أوسع البـون بين لقائهـا آخر النهـار، وصمتها الآن، مما جعل مالوس في حيرة لا يجد منها مخرجاً. . ماذا أصابها؟ إنها فتاة غريبـة الطبـاع لا يمكن فهمها بسهـولة. . ولاذ هو الآخر بالصمت. . .

وحينمـا بلغت بيتها قـرأ أبوهـا في عينيها الكثيـر من المعاني الحـزينة، لم يكن الـرجل من الغبـاء بحيث يخفى عليه شيء، وتمتم في نذالة:

ـ حسناً. . لقد تأخرتِ كثيراً يا هيلدا، وعليـكِ الآن أن تأوي

إلى فراشك.

ورمته بنظراتٍ نارية ، وقالت في صوتٍ تفوح من نبراته رائحة الإحتقار :

ـ ألم تكن تريد ذلك؟؟

قال متبالهاً:

ـ لا أفهمك.

ـ أنت تفهم كل شيء. . وماذا يكون مصير الحمل بين فكي الذئب؟؟ لا . . لا بين ذئبين جسورين لا يرحمان.

وطأطأ رأسه في أسى حقيقي هذه المرة وقال:

ـ مستحيل أن يفعلها ديبوي. . إنه رجل محترم.

وانفجرت صائحة:

ـ هذا النوع من الرجال «المحترمين» لا مثيل له في الإنحطاط، إنهم يعبثون بأرواح البشر، ألا يمكن بعد ذلك أن يعبثوا بشرف فتاة ضعيفة؟. . على أية حال إنها صورة فريدة من الإحترام المتبادل بينك وبينه.

لم يرحمها، لم يحترم أساها الدامي وأنوثتها الجريحة، ومن ثم همس:

ـ ولماذا لم تقاومي دفاعاً عن شرفك يا هيلدا؟؟

ـ ألا تعرف أنهم يسحقون أية مقاومة في أي ميدان، وأنت تفخر بذلك؟! ثم إنني لم أكن أشعر بشيء، فقد أكثرت من شرب الخمر الذي جعلتني أعبده.

وانفجرت باكية لبضع دقائق ، وأبوها واقف لا يتحرك أو يتكلم ، ثم رفعت رأسها ، كانت عيناها محتقنتين كالدم ، والدموع تغرق وجهها الغض ، وصاحت :

ـ لشدّ ما أحتقر نفسي ، لم أعد أصلح لشيء، اللهم إلا تدعيم مركزك لدى السادة المنتصرين.

لكأنما سدّدت إلى قلبه خنجراً مسموماً، ولم تنتظر ردّه على ذلك، بل جرت إلى حجرة أُمها المريضة المنعزلة، التي لا تكاد ـ لعجزها ـ تشارك في شيء من الأحداث الجارية، كانت تندفع إليها وهي موقنة أنها الصدر الحنون الوحيد الذي يستطيع أن يسَع أساها، ويخفف من ألمها البليغ. . . وضمّتها الأم بذراعيها الواهنتين إلى صدرها الناحل، وتمتمت الأم في صوتٍ ضعيف خائر:

ـ أعرف أن أباكِ قاسٍ لا يرحم، ولا يفتأ يجرُّ علينا الوبال بتصرفاته الطائشة، ترى ماذا حدث ؟ إن قلبي يا هيلدا ينتفض من الخوف.

وتشبثت هيلدا بأمها المريضة، لكأنما أصبحت من جديد طفلة صغيرة حائرة لا ملجأ إليها من الخوف والقلق إلا صدر أُمها التي تحبها وتؤمن بها أعمق الإيمان. . ثم قالت:

ـ لا تتركيني يا أمي. . إنني تائهة. . أشعر بالضياع. . لا تتركيني بحق الله.

ـ لا تجزعي يا حبيبتي .

ـ إن الحياة أصبحت جحيماً لا يُطاق.

ودهمهما صوت أجش، كان أبوها بالباب يقول:

ـ هيلدا.. تعالي هنا.

ردّت كقطة شرسة:

ـ ماذا تريد بعد ذلك؟؟

ـ قلت أقبلي.. إنني أريدك في أمرٍ خاص، ودعي أُمك الآن.

قالت الأم والدموع الحائرة تبلل وجنتيها الشاحبتين:

ـ إذهبي إليه يا ابنتي.

كان عليه أن يدبر الأمر حتى تهدأ عاصفة ابنته، ويعود الهدوء إلى بيته من جديد، وشعر الرجل بإحساس المذنب العتيد، أتصل به الحقارة لهذه الدرجة؟ أيقدم ابنته لقمة سائغة في فم الوحش المفترس؟ إنها ابنته.. مستحيل!! وحاول أن يهرب من نفسه فيزعم أنه لم يكن يتوقع أن يتمادى ديبوي في فجوره، ويقطع أمل فتاته في حياة شريفة نبيلة، وأدرك أنه ـ على الرغم من تعلله السخيف ـ قوّاد من نوع مرذول.. وثارت في رأسه الزوابع، واجتاحته موجة عاتية من التمرد، لكنه كان أعجز من أن يتحرك أمام سادته الجدد.. وأخذ جسده ينتفض أمام ابنته، ثم غمره عرق غزير، وساد وجهه شحوب ظاهر، وتنهد في حزن، وقال:

ـ لا شك أنه عمل شائن من ديبوي يستحق عليه قطع رقبته، وأعرف أنني أشاركه هذا الوزر، لم أكن لأتصور أن يبلغ به الحمق ـ وهو جنرال شهير ـ فيعتدي عليك ذلك الإعتداء

المشين.

وعلى الرغم مما كانت تشعر به هيلدا من حنقٍ زائد، إلا أنها أدركت الوضع الحرج الذي يقاسي منه أبوها، إن المعاناة الحادة ترتسم على وجهه، وفي عينيه، وبدا محطماً كئيباً حزيناً، فأدركتها الشفقة عليه، فتمتمت وقد أطرقت برأسها حزينة:

ـ أعرف أنك تتعذب.

ـ لو استطعت أن أسفك دمه لَما توانيت.

ـ ليس هذا هو الحل يا أبي.

ـ تقصدين.. إنني أُدرك ما ترمين إليه، حسناً، عليه أن يصحح خطأه.. لا حل سوى الزواج.. إن برتلمي لا يصح أن يكون أضحوكة الضباط والجنود الفرنسيين.. وأنتِ يا هيلدا لا تستحقين هذا المصير.. لقد كنت أعدّك لشيء أعظم من هذا بكثير، ومن ثم فإني أتحمل المسؤولية كاملة.. إن ديبوي لا بدّ أن يتزوجكِ.. إذا كان من المقبول أن يحطموا أعداءهم في المعركة، فليس من المعقول أن يحطموا قلوب أصدقائهم.. لسوف أصل معه إلى حلٍ حاسمٍ سريع.. أي هيلدا.. إن دموعك تمزق أعصابي وتؤرقني.. كفى يا عزيزتي، إنني أضحّي بكل شيء إلا أنتِ يا هيلدا.. ربما خيّل إليكِ انني أضحي بكِ من أجل مطامعي... لا يا هيلدا... إن كل شيء كان من أجلك، ولم يدُرْ بخلدي مطلقاً أن أضحي بكِ أنتِ.. مستحيل أن أقصد ذلك.

وأخذ برتلمي يعضُّ على شفته السفلى محاولاً أن يكظم

دموعه ـ وهو العصي الدمع ـ ولم ينجح إلا بعد جهدٍ جهيد، ثم وقف وأعطاها ظهره، كان يبحث عن شيء يداري به فشله، ويخفي أساه، وهل له ملجأ سوى الخمر؟؟

وحاولت هيلدا جاهدة أن ترفِّه عنه، وتبسط له الأمر، ومن ثم أخذت تتحدث عن ديبوي وأخلاقه، وأنه لا يمكن أن يغدر بها، أو يتنكر لصِلاته بأبيها، ولا شك أن الأمور ستسوّى بينهما، وتنتهي إلى نتيجة يرضى منها الجميع. كانت تعلم أنها تخفف من حزنه، وكان هو الآخر يدرك أنه يحاول أن يحيل المأساة البشعة المهولة إلى مجرد صدع في مستقبلها في الإمكان إصلاحه، إنها لحظات أشبه بالمشاعر الأسرية العميقة التي كانا ينعمان في ظلالها في الماضي القريب، وبدا أن الاثنين يستطيبان جو الوهم والخداع الذي هو من صنع أيديهما، وماذا في استطاعتهما أن يفعلا غير ذلك؟..

وقال برتلمي وهو يعبُّ كأسه الثانية:

ـ يجب أن تذهبي لتستريحي، الآن، وسندبر الأمر غداً.. سأواجه ديبوي بالأمر، وإذا لم نصل إلى حلٍ جذري، فسأرفع شكواي إلى ساري عسكر نابليون نفسه مهما كانت النتيجة، وأنتِ تعرفين الدور الخطير الذي ألعبه في خدمة هؤلاء الفرنسيين، وستثبت لهم الأيام أنهم سيظلون في حاجةٍ ماسة إليّ.

لم يكن في مقدورها أن تنام، ما أسرع ما انزلقت قدمها فهوَتْ في عالم الرذيلة والشقاء.. لقد ذابت مقاومتها، وانمحت

إرادتها، إنها أتعس حالاً ممن كنَّ يُبَعْنَ في سوق الرقيق الأبيض، إن الأرقاء لهم شريعة، والملاّك يقبضون الثمن، أما هي فقد سقطت دون مبرر من قانون قائم، ودون ثمن قبضته في يدها، حتى أبوها هو الآخر بدا تعساً شقياً، لقد ظنَّ لأول وهلة أنه سوف يدعم مركزه بتوثيق الصلة بينه وبين الجنرال ديبوي، لكنه يدرك الآن أكثر من أي وقت مضى أنه كان ضحية خطأ فاحش وإدراك للأمور سقيم، لقد كان يتخبط ويغامر دون روية حقيقية، وأفاق في النهاية على الكارثة التي لا يعلم كيف يخفف من وقعها على نفسه وعلى وحيدته الضحية المسكينة.

لكن أيمكنه أن يطلب من الجنرال إتمام الزواج من ابنته؟؟ وهل لديه المقدرة كي يواجه الأمر بما يتطلبه من شجاعة؟؟ لقد تكلم كثيراً، ووعد ابنته بأنه سيتخذ الخطوات الحاسمة لإقرار الأمر على صورة تحفظ له كرامته، وتحمي لابنته مستقبلها، كان يتحدث آنذاك وهو في حالة من التوتر الشديد، لكنه الآن يفكر في هدوء، ويبحث الأمر من كل جوانبه دون انفعال، والمستقبل أمامه مظلم حالك السواد، وإلى جانب هذا كله الجو حار شديد التزمت، وهو يشعر برغبةٍ جارفةٍ في أن يركب جواده، وينطلق في الشوارع مسرعاً كي يتنفس، إن أنفاسه تكاد تحتبس، ومأساة العجز الأبدي تعاوده من جديد، لقد كان يظن أن حالة العجز النفسي التي كان يعانيها قبل مجيء الحملة قد انتهت إلى غير رجعة، لكنه الآن برغم السلطة المطلقة، والمنصب الضخم الذي يشغله، وكلمته المسموعة لدى الكبار، برغم كل هذا

يستشعر الليلة مزيداً من العجز الذي يسحق كبرياءه، ويسخر من أوهامه.. فإذا بقي على هذه الصورة من العجز الفاضح فلسوف يُصاب بلوثةٍ من الجنون، إنه يمارس سلطاته، وينفذ إرادته بالنسبة للمواطنين التعساء، يلهب ظهورهم بالسياط، ويسوق بعضهم إلى السجن، ويأمر بقطع رقاب البعض الآخر، ويثير الإرهاب والرعب في شوارع القاهرة وأزقتها، لكنه ـ مع كل ذلك ـ يقف أمام ديبوي كالفأر المذعور، يرتعد ولا يستطيع أن يدفع نفسه دفعاً كي يواجه الجنرال الكبير بالحقيقة.

وشعر برغبةٍ جارفة في البكاء..

لكن أيمكن أن يبكي برتلمي كما يبكي باقي الناس؟..

وكانت الكأس أسبق إليه من دموعه، فأخذ يترع من الخمر دون هوادة، وعندما بلغ قمة النشوة، أخذ يبكي ويضحك في نفس الوقت، ويتكلم بصوتٍ مسموع، ولم يكن بقادرٍ على أن يستمع إلى أنين زوجه المريضة واستغاثتها المتكررة..

وبعد فترة من الزمن لا يدري أطالت أم قصرت، رفع عينيه ليرى هيلدا واقفة أمامه، والدموع تنهمر من عينيها، ومن بين دموعها كانت تقول:

ـ إن أُمي تحتضر يا أبي..

وجمد في مكانه، وكسا الشحوب وجهه، وتمتم:

ـ ماذا؟؟

قالت وهي ترتجف:

ـ إنها هناك.. تلفظ أنفاسها الأخيرة، وليس إلى جوارها سوى

المرأة العجوز.. الخادمة.

هرول إلى الداخل كالمجنون، رأى زوجه على صدر المرأة العجوز، عيناها واسعتان زائغتان، العرق الغزير يبلل جبينها الشاحب، وصدرها يعلو ويهبط، كمن تجتاز سباقاً مجهداً عنيفاً، وهمست الأم دون أن تُعير زوجها أدنى اهتمام:

ـ هيلدا.. تعالي.. هنا.. إلى.. جواري.. أريد أن.. أقبلّك.. يا حبيبتي.. إن.. قلقي.. عليكِ.. يعذبني.. لكن الله كبير..

وأخذ برتلمي يهتف باسمها، لكنها كانت تنظر إليه عاتبة دون أن تتكلم، وطبعت على جبين هيلدا قبلة مرتجفة، وحاولت أن ترفع ذراعيها لتضمها إليها فلم تستطع، ثم أغمضت الأم عينيها لآخر مرة، بينما انقضّ عليها برتلمي مهتاجاً:

ـ أي زوجتي.. ردّي عليّ.. تكلمي.. مستحيل أن يحدث هذا.. ما معنى أن تموتي هكذا تحت سمعي وبصري دون أن أفعل شيئاً؟.. توسلي إليها يا هيلدا أن تتكلم.. أهكذا نعجز عن فعل أي شيء من أجلها؟؟ ثم أخذ ينتحب باكياً كامرأة ثكلى...

وهمست هيلدا، والدموع تغرق وجهها:

ـ لقد فات الأوان...

١٢

القاهرة يلفها الإنتظار الحزين المتوتر، ومع ذلك فقد عادت

إليها الحياة النشطة من جديد. . الباعة المتجولون يروحون ويجيئون ويدللون على بضائعهم بأصواتهم المرتفعة، وعباراتهم المسجوعة المنغمة، والمحلات التجارية قد فتحت أبوابها، وحاملو القِرَب يوزعون الماء على البيوت، والنيل العظيم يمتد عملاقاً جباراً قاتم السحنة، وبعض العامة يرددون كلمات فرنسية لا يتقنون نطقها، والمنشورات والأوامر الجديدة يتناقلها الناس، والديوان يجتمع ويتحدث باسم الغزاة ألف مرة، وباسم الجماهير الحزينة مرة واحدة، والشيخ السادات لا يفتأ ينشر آراءه تارة، ويكتمها تارة أخرى، لكن المعروف لدى الجميع أنه يتحرق شوقاً ليوم الثأر من هؤلاء الكفرة الخبثاء، والناس يتحدثون عن برطلمين أو فرط الرمان الذي طار صيته في الآفاق، ويروون الكثير عن مظالمه، وبشاعة تصرفاته، وانتقامه المستمر من مناوئيه القدامى، ويهمسون: «ليته مات بدلاً من زوجه الطيبة». . وآخرون يتكلمون عن فساد أخلاق الفرنسيين وانحلالهم، وإقدامهم على الجرائم الجنسية في بساطةٍ غريبة، ولم يغِبْ عنهم أن بنت فرط الرمان «الحلوة» قد إندمجت في الجو الفرنسي، حتى بدا وكأنها واحدة من بنات باريس الخليعات، وإن لم يدركوا أبعاد إنهيارها الحقيقي، وآخرون ما زالوا يتحدثون عن مقاومة المماليك المتهافتة في الصعيد والشرقية، وغيرهم لا يفتأون يكررون أن السلطان في الآستانة لا بد وأن يتحرك لنجدتهم في وقتٍ من الأوقات، وكان كثير من الحديث يدور عن الضرائب الجديدة التي يفرضها القائد المنتصر. يا للمأساة. .

دائماً يطلبون المال.. سواء أيام المماليك أو أيـام الفرنسيين.. وعلى الشعب أن يعتصر قواه وعمره ولياليه الجافة المظلمـة كي يقدم المال.. إن نابليون وعساكره يريدون العوض عما بذلوه من نفقات، ويريدون أن يحيوا الحياة اللائقة بهم كغزاة منتصـرين، وكحكام أقوياء، وبالطبع يريدون الإستعداد التام للمعارك المقبلة التي قد تطول في أطراف البلاد وعلى الحدود، ولا بد أن يكون هناك نبع دائم للإمداد بالمال والطعام، وعلى المهـزوم أن يقدم كـل ما يـطلب منه، لسببٍ بسيط معـروف.. إنـه مهـزوم وهـذا يكفي...

والحاج مصطفى البشتيلي مـا زال في بولاق، لم تفـارق قلبه الحسرة من أجل خطيب ابنته الذي دفع حياته في لهيب المعركة عن طيب خـاطر.. والشيـخ علي الجنجيهي في مكانـه المعتاد إلى جـوار الحاج، ومعهم الشيـخ إبراهيم سـلامه.. أمـا مكان أحمد المدبولي فقد أصبح شاغراً، وكثيراً ما كان الحاج مصطفى يـردد: «لقد هـرب تاجـر البارود عنـدمـا اشتـدّت الحـاجـة إلى باروده».. والجنجيهي لا يفتأ يقرأ القرآن، لكن نبـراته في هـذه الأيام تحمل إيحاءً حزيناً دامعاً، وخاصة أنـه يختار الآيـات التي تتحـدث عن الاستشهـاد واحتمـال الأرزاء والنكبـات في صبـرٍ وإيمان.

وقد قضى الحاج مصطفى فترة لا يغـادر فيها بيتـه، كان يلزم داره يقرأ القرآن، أو يستقبل الأصدقاء.. وانطفأ قنديـل الدعـابة المـرح، وحـلّ محله العبـوس والتفكيـر العميق، والتنهـدات

المؤلمـة، والذكـريات المختلفـة، وحكايـات التـاريـخ الكثيـرة المماثلة.. إنهم يجترُّون أحـداث الزمـان ليتلقوا منهـا العبرة، ويبلغوا من خلالها إلى بعض النتائج التي يحلمون بها.. الشيخ إبراهيم سلامه يذكـر لهم وقائـع الصليبين في مصر وبـلاد الشام واحتلال بيت المقدس، والحـروب العنيفة التي استمـرت سنين طويلة. ثم يعود ليتحدث عن المغول والتتار، وقد هدموا بغداد، وخربوا المدن وحرقوها، وأتوا من الشنائـع ما لا يتصـوره عقل. كان الشيـخ إبراهيم يتحدث ويروي الكثير من التفاصيل، والكل له سامعون، وكان حديثه في آذانهم أشهى من الطرب والنغم.. ويختلط الشعـر بالنثر في الملاحم التي يـرويهـا، ويخلص في النهاية إلى أن الصليبيين اندحروا مهـزومين أمام صـلابة صـلاح الدين، وشعب مصر العظيم، وأن المغول ارتـدُّوا على أعقابهم خـاسئين، وكثيـرون منهم اعتنقـوا الـدين الإسـلامي وذابـوا في مجتمعه الكبير، وبقيت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ـ على حد تعبير الشيخ إبراهيم سلامه ـ..

أجل، الشيخ يـروي.. والنرجيلة تكـركع، والأحـلام تمتزج بـالحقائق.. وزينب المسكينـة في داخل البيت تقف في مكـان حـرج بين العقل والجنـون.. والحسين ـ قـد صقلتـه التجـربـة المريرة ـ يجلس مـع رفاق أبيـه صامتـاً يستمع، ومـلامح وجهـه تتحـدد أكثر وأكثـر، وتصرفـاته تتسم بسيمـاء الرجـولة الصـامدة المتـرقبة.. والأم تضـع كفها على خـديها شـاردة بنظراتهـا إلى

المستقبل المجهول. . .

وذات مساء، قال الحاج مصطفى لأصحابه:

- إلى متى نظل هكذا كالأسرى في بيوتنا؟

قال الجنجيهي:

- ولماذا نخرج إلى الشارع والزيارات؟؟ لقد ساءت الحال، وتبدلت الأمور، وأصبحنا كالغرباء في بلدنا، وعيون الفرنسيين في كل مكان، والفتن - نجّانا الله منها - تسود أنحاء القاهرة، وبرطلمين يتفرعن. . في مثل هذه الأحوال يا حاج مصطفى، على العاقل أن يلزم بيته.

وقال الشيخ إبراهيم سلامه:

- في رأيي يجب أن نمارس حياتنا العادية، لأن معنى كلمات الجنجيهي أن نسجن أنفسنا ما دام الفرنسيون يحتلون البلاد، وهذا مستحيل.

وأردف الحاج مصطفى:

- إن ما تقوله هو الصواب، يجب أن نخرج إلى الشارع لنرى الناس، ونسمع شكاياتهم، ونلّم بمشاكلهم. . في مثل هذه الأزمات، يجب أن يقترب الناس ويتناقشوا ويتلاحموا. . إن ترابط الجميع يخفف الكثير من المآسي، ويخلق لها الحلول المناسبة. . ثم. . أعني أن المعركة لم تنتهِ بعد. . ألا يجوز أن نلتقي بالشيخ السادات ونسمع رأيه؟؟ ومسألة الضرائب الجديدة، ألا تستحق منا المناقشة والدراسة؟؟ إن الناس في ضنك، والتجارات الخارجية توقفت أو كادت، وحالة الناس

المعيشية لا تسرّ، وإذا لم يكن في الإمكان هزيمة الفرنسيين الآن، ففي الإمكان ـ على الأقل ـ وقفهم عند حدهم، أليس كذلك؟..

●

وخرج الحاج مصطفى عن عزلته وصمته في الأيام التالية، وأخذ يمارس تجارته كالمعتاد، ويلتقي بالشيخ السادات، وبالشيخ الجبرتي المؤرخ المعروف، وبعض أعضاء الديوان.. وكان سعيداً إذ رأى الناس كالعهد بهم، لم يفقدوا الأمل، أو يستسلموا للهزيمة، ما زالوا يتحدثون عن المقاومة، وطرد الفرنسيين، والخلاص من مظالمهم وعنجهيتهم، «المعدن الأصيل لا يأكله الصدأ، أو يفنيه التراب»، هكذا كان يردِّد الحاج مصطفى في ثقةٍ وأمل، كان يقول لأصحابه:

ـ عندما يجد العدو أن خسائره أكثر من مكاسبه، وأنه يعيش في خوف وتوجُّس، وأنه لا سلام ولا أمن، ولا ثقة بينه وبين المحكومين، فإنه ـ إنْ عاجلاً أو آجلاً ـ سوف يحمل عصاه ويرحل.. وعلينا أيها السادة، أن نجعل العدو يخسر دائماً.. يخاف دائماً.. يشعر أننا نكنُّ له العداء، مهما طال الزمن، ومهما فعل...

لكن عينيّ زوجة الحاج مصطفى كانتا ترقبانه في يقظة، وترصدان حركاته وسكناته، لأنها إنْ غفلت هذه المرة فقد تفقد زوجها أو ولدها أو كليهما.. إن مأساة خطيب ابنتها لم تزل

تـورثها الحسـرة والهموم، مـأساة مستمـرة ما دامت زينب تبكي وتأرق وتتصرف تصـرفات تـوحي بالخـوف والخطر المحـدق. .

وواجهت الزوجة زوجها بصراحة:

ـ يا حاج مصطفى، لقد بـدأتَ تمارس هـوايتك الخـطرة من جديد.

أجابها بقوله:

ـ تعقّلي يـا امـرأة. . إن مـا أفعله شيء يسـري في عــروقي وروحي. . قد أستطيع الإستغناء عن الطعام والشراب، لكني لا أستغني عن حريتي وكرامتي. . أتفهمين؟؟ بغير هذه المعاني لا يكون الرجل رجلاً، يجب أن تدركي ذلك، أما الخوف فهو عار، وأما الموت فلا نجاة منه، إنه نهاية كل حيّ، ورحم الله أبا الطيب المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وهمست في حزن:

ـ أمصرّ أنت على ما تقول؟

ـ بالطبع. .

ـ عوضي على الله. . لقد كتب علينا الِشقاء، إنـه قدر، ولا مفرّ من ذلك.

وتمتم في ذهول:

ـ رحلة العمر ـ مهما طالت ـ قصيرة. . آه من قلة الزاد، وبُعد السفـر، ووحشة الـطريق. . كمـا يقـول الإمـام عليّ ـ كـرَّم الله وجهه ـ .

أجابته زوجه بقولها:

ـ دائماً تتحدث عن الأقدمين، لقد كانوا في زمانٍ غير زماننا، وكان الرجال غير الرجال. .

ـ المبادىء التي عاشوا في ظلِّها ما زالت حيَّة، لكننا نجبن عن تحمُّل المسؤولية. . قلبي يحدثني أن الفرنسيين لا بد راحلون، وأننا بعون الله منتصرون. أجل. . لكننا قد ندفع الثمن غالياً. . لا بأس، لأن تكاليف الجهاد باهظة. .

وفي الليالي المسهدة الطويلة، كانت تجلس زوجة الحاج مصطفى تنتظر عودته. . ترى هل يعود؟؟ والقلق والخوف يعذبانها، وصور المستقبل الغامض تتشابك وتتلوَّن بشتى الألوان والإنفعالات؟. وتأتي زينب إلى جوار أُمها وتقول:

ـ سمعت أن خطيبي سوف يدخل الجنة.

ـ أجل يا حبيبتي.

ـ ما الذي يؤكد ذلك؟

ـ وعد الله. . .

ـ أي وعد يا أُمي؟

ـ لقد وعد المجاهدين في سبيله، والذين يستشهدون في معركة الحق، بأعظم الثواب. . .

ـ تتكلمين كما يتكلم أبي.

ـ أبوكِ صادق، وعلى حق يا زينب، لكننا بشر يا حبيبتي، وحب الدنيا متغلغل في صدورنا. . إننا أضعف من أن نؤمن مثل إيمانه، أو مثل إيمان مصطفى. . .

وافترَّ ثغر زينب عن ابتسامة غريبة وقالت:

- إذا كان هذا الطريق هو الوسيلة المضمونة للجنة، فلماذا لا يهرع الناس جميعاً إليها يا أُمي؟؟ يخيل لي أن خطيبي مصطفى قد اختار لنفسه نهاية رائعة، وإنْ ترك لنا الحسرة والأحزان..

وتبللت وجنتاها بالدموع وهي تقول:

- أيمكن أن ألتقي به في الجنة، إذا كتبها الله لي؟؟

قالت الأم:

- ولِمَ لا؟؟

وعاودها الإبتهاج الغريب وقالت:

- إنها فكرة رائعة، وأُمنية غالية.

وأدركت الأم أن فتاتها تتمادى في أحلامها الخطرة، وتعبر عن اضطراب كبير.. إن الصدمة التي سقطت على رأسها تغير من تفكيرها وسلوكها، وتجعلها تبدو على حافة الجنون.. وبينما الأم تفكر في أمر زينب التعسة، سمعتها تقول:

- إنني أنتظره كل مساء لدى النافذة..

دقّت الأم على صدرها في خوفٍ وقالت:

- ماذا؟؟ تنتظرينه؟؟ لقد انتهى الأمر وودَّع الدنيا، يجب أن تدركي هذه الحقيقة، مهما كانت مرارتها وبشاعتها.

فاستطردت زينب قائلة، دون أن تلقي إهتماماً يُذكر لكلمات أمها:

- يقولون أن الأرواح لا تعرف الحواجز والحدود.. إنها تقطع آلاف الأميال في ثوانٍ معدودات، وتخترق الحجُب، ولا تكترث

بـزمان أو مكـان. . وأنـا أعـرف أنـه كـان يحبني. . وأن روحـه لا شك تحوم الآن من حولنا. . إنني أكاد أراها بوجداني. .

ورفعت رأسها ثم ركزًت بصرها على سقف الحجرة، وأخذت تدور بنظراتها باحثة عن شيءٍ غالٍ عـزيز، ولهفـة غريبـة ترتسم على وجهها الشاحب الوسيم. . وصرخت أمها:

ـ زينب. .

ـ ماذا يا أمي؟؟

ـ هل جننتِ؟؟

ـ لا يا أمي. . إنني بخير. .

ودوت صفعة على وجه زينب، فانتفضت كمن تفيق من حلمٍ رهيب، وقالت من بين دموعها:

ـ لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا.

نهرتها أمها قائلة:

ـ خسئتِ أيتها الملعونة. . ألا يكفي ما حـدث؟! تريـدين أن يضحك علينا النـاس ويقولـون: إبنة مصـطفى البشتيلي أصابهـا الجنون حزناً على فتاها. . ثم يتصورون تصورات سخيفة لا مبرر لها؟! يجب أن تدركي أن الموت حق. . مات مصطفى كما مات آلاف مثله، وكما سيموت الآف. . وكما ستموتين أنتِ في يـومٍ من الأيـام. . ولو حـزن الناس على المـوتى كما تحـزنين، لمَـا ارتسمت إبتسامة واحدة على الشفاه. . .

وهزًت زينب رأسها في أسى وقالت:

ـ تعنين أنه لا بد أن أنساه. .

ـ كل ما أعنيه هو أن تكوني فتاة عاقلة، تحزنين كما يحزن الأسوياء من الناس، أما الإفراط والتمادي فإنه يقود إلى الهاوية. . والحقيقة يا ابنتي الحبيبة، أن كل ما يفعله البشر من مراسم الأحزان ـ مهما بالغوا فيها ـ لن يردَّ ذاهباً إلى الحياة مرة أخرى.

وتمتمت زينب، وقد أدركت ما ترمي إليه أمها من معنى بعيد:

ـ أجل يا أمي. . لكنني في بعض الأحيان أشعر أن آلامي أقوى من إرادتي. . ولهذا أنهار على الرغم مني. .

ـ إنني أعذرك يا زينب، لكن إلى متى؟؟ إن أباكِ يقاسي من أجلك، والحسين يرمقكِ بعينٍ قلقة، وأظن أنه من القسوة ألا نرحم بيتنا الصغير من الإنفعالات الشديدة. . يكفي ما تخبئه لنا الأيام من أشياءٍ لا يعلمها إلا الله. . .

فوجئت الأم بصوتٍ ينطلق من خلفها سعيداً رناناً:

ـ وهل تخفي لنا الأيام إلا كل عظيم؟. .

ـ مَن؟. . الحاج مصطفى؟. . بسم الله الرحمن الرحيم. .

ـ إنه أنا. .

ـ ماذا جرى؟

كانت أسارير وجهه تعبر عن السعادة القصوى، ويتحرك في رشاقة وسرعة كأنما قد عاد إليه الشباب من جديد. . وقال في ثقة:

ـ لطالما قلت لكم، إنهم بشر مثلنا. . قد ينهزمون وقد ينتصرون.

ـ الفرنسيون؟؟

ـ بالطبع، لقد حلّت بهم كارثة مدمرة.

ـ يبدو من كلماتك أن السلطان قد أرسل النجدة، أو أن المماليك قد عادوا وهاجموهم . . .

وقف منتصب القامة وقال:

ـ لا هذا ولا ذاك . . لقد استطاع الأسطول الإنجليزي ـ بإرشاد بعض البحارة من المصريين ـ أن يطبق على الأسطول الفرنسي في أبي قير، وأن يدمره عن آخره . . لقد قُتل الأميرال برويس قائد الأسطول . . يقولون أن الكارثة هزّت أعصاب نابليون، وأخرست كبار ضباطه، والرعب يسود معسكر الفرنسيين . . لقد وقعوا في فخ لا يرحم . . إننا نحيط بهم من كل جانب، وهم بلا أسطول يحميهم . . ثم إن فداحة الهزيمة تحطم من روحهم المعنوية . . وإذا كان هناك وقت مناسب للثأر منهم، وطردهم خارج بلادنا، فسيكون الآن . . إن الثورة يجب أن تشتعل في كل الأرجاء.

قالت الزوجة وقلبها يدق:

ـ ولماذا لا يكون ما تقوله مجرد شائعة كعشرات الشائعات التي تنطلق من آنٍ لآخرٍ من عساكر السلطان القادمين من الشرق والشمال؟؟

وانفجر الحاج مصطفى ضاحكاً، ثم قال:

ـ هذا عين ما قاله الفرنسيون . . إنها مجرد شائعات كاذبة، وسيقطعون لسان كل مَن يروّجها . . وفعلاً قبض برطلمين

الملعون على عددٍ من الأبرياء، وخيَّروهم بين دفع الفدية أو قطع ألسنتهم.. وهذا، يا زوجتي، ما جعلني أفكر في التصديق، ثم جاء شهود عيان من الإسكندرية يروون ما حدث... وفي أوربا يتحدث الناس عن كارثة البحرية الفرنسية، وفي مصر مَن يتحدث عنها يُقطع لسانه...

وأرادت زوجه أن تطفىء من حماسه، وفي نفس الوقت ترفه عن زينب التي شدَّتها الأنباء الجديدة، فأخذت تستمع في لهفة.. قالت الأم:

- إنه نصر لا دخل لك فيه..

- تأبين إلا أن تثيري حفيظتي.. ألم أقل لكِ اَن رجالنا كانوا يرشدون السفن الإنجليزية؟.. وعلى أية حال، فإن دورنا في المعركة لم يكن في صالح الفرنسيين، يكفي أننا لم نؤازرهم، والفلاحون في البحيرة والصعيد يفتكون بالغزاة المتقدمين في كل فرصة تسنح.. إن عدم تعاوننا مع الأعداء لا شك كان سبباً من أسباب هزيمتهم الصارخة..

ثم استطرد بعد فترة صمت:

- وفي يوم الخلاص الأكبر ستكون نهايتهم على أيدينا.. إننا نتركهم لتتخطفهم الغربان من كل صوب، ثم نجهز عليهم الإجهاز التام.

قالت الزوجة مداعبة:

- حذار أن تتحدث في هذا الموضوع ثانية.. فلستَ في غنى عن لسانك، وليس معك ما تدفعه فدية.

قال الحاج مصطفى:

ـ آه يا زوجتي البلهاء.. الحقائق تصرخ بأعلى صوتها.. الحقائق لا يمكن كتمانها، لأنها أقوى من الأسوار والسيوف وبطش الجبابرة..

وانتشت زينب بعض الشيء.. إن الثأر من السفاكين يبرد من حرارة وجْدها المشتعل المحروم...

١٣

وقع برتلمي في ورطة، هكذا تؤكد الحوادث الجارية، لكنه يبحث عن حلّ.. لقد استولت على تفكيره تلك المأساة الفردية، مأساة ابنته.. لتذهب جيوش الفرنسيين إلى الجحيم، الذي أشعله الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض.. إنها مجرد معركة واحدة خسرها الفرنسيون، ولم تزل لهم القوة.. مثل هذا الحدث ـ برغم ضخامته ـ لا يصحُّ أن يقف عقبة في طريق مستقبل «هيلدا».

وشقَّ برتلمي طريقه إلى «بركة الفيل» قاصداً ديبوي.. إنه لا يرتجف هذه المرة، إن لديه من الشجاعة ما يجعله ينسى كل شيء ـ ولو للحظات ـ من أجل شرف وحيدته ومستقبلها، وليكن ما يكون.. وعندما دخل القصر الكبير، قاده مالوس إلى قاعة الإستقبال الفخمة.. كان ديبوي يجلس وحيداً وقد ركز خدّه على قبضته اليمنى، وبدا عليه أنه غارق في تفكيرٍ عميق، ثم رفع رأسه وكأنه يفيق من حلم، وتمتم:

ـ طاب صباحك يا برتلمي . .

وتصافحا، ثم جلسا صامتين بعض الوقت، وأخيراً قال ديبوي :

ـ إني أشمّ رائحة الغدر من المصريين، والمصائب لا تأتي فرادى.

وقال برتلمي :

ـ إن تحرُّك المصريين معناه القضاء عليهم، ثم إنهم أضعف من أن يجابهوا قواتنا المنظمة الضاربة، ولعل الشيء الوحيد الذي أربك خططنا هو نكبة أسطولنا في البحر الأبيض، ومع ذلك فإن مثل هذه الخسارة الفادحة في الإمكان تداركها، وهي تحتاج لبعض الوقت. .

تنهّد ديبوي في حسرة :

ـ هذا ما يزعمه نابليون، الذي يُبدي إستخفافاً بالأمر، وإن كنت واثقاً أنه أُصيب بصدمةٍ نفسية من جرّاء النكبة.

وسادت فترة صمت، قال بعدها ديبوي :

ـ هل عندك جديد من الأخبار؟

ـ لا شيء يُذكر. . مخابراتنا تؤكد أن الشيخ السادات يلعب بذيله، إنه رجل داهية، من العسير إجتذابه إلى صفوفنا، وهو لا يكفّ عن تعبئة الشعور ضدنا، ومع ذلك فإن رأي ساري عسكر ألا نصيبه بأذى، وأن نكتفي بمراقبته، وإبطال مفعول سمومه بشتى الطرق. . .

وتوقف برتلمي برهة، ثم قال فجأة دون مقدمات :

ـ سيدي . . إن ما يشغلني هو أمر آخر في غاية الأهمية .

ـ ماذا تعني؟؟

ـ جنـرال ديبـوي . . أنت تعلم أن هيلدا إبنتي الـوحيـدة . . وتعلم أيضاً ما أقدِّمه لجيش فرنسا من خدمات . . وأنت كضابط عظيم ، ومحارب مشهود له لا يمكن أن تتخلى عن نُبلك وشرفـك العسكري . .

قال في دهشة :

ـ أكاد لا أفهمك يا برتلمي . .

قال برتلمي موضحاً :

ـ أنت عـاشرتهـا معاشـرة الأزواج، وهذا يعني أنهـا لا بدّ أن تكون زوجتك . . .

وذهل ديبوي ، لم يكن يتوقع أن تجري الأمور على هذا النحو السخيف . . إنها فتاة جميلة أحبته ، وبادلته الهوى، فقضى معها أويقـاتٍ جميلةٍ دون تحفُّظ، ودون أيـة شـروط مسبقـة . . لقـد سلمت له نفسها دون قيد أو شرط ، وكذلك ـ على ما يظن ـ بدت رغبة أبيها . . وفي باريس وإيطاليا وغيرهما كان يفعل ذلك لمجرد المتعة . . وقال ديبوي في شيءٍ من الضيق :

ـ كلامك يحمل صيغة الأمر يا برتلمي ، ولهذا أرفضه .

قال برتلمي وقد سال على جبينه عرق غزير :

ـ عفواً سيدي الجنـرال، إنني لا آمرك ،ولكني أرجـو وأُلحّ في الرجاء، أعلم أن ابنتي لا ترقى إلى مقامك السامي ، وأنـه زواج قد يكون غيـر متكافىء، لكن تصـرفك معهـا قد محـا كل تلك

الإعتبارات الهامة . .

إبتسم ديبوي متوتراً وقال:

ـ لشد ماتأثرت بالشرقيين يا برتلمي، إن هذه مسألة عادية جداً في فرنسا، ألا تعلم ذلك؟؟ ومع ذلك فإن الزواج مسألة هينة . .

قال برتلمي في مرحٍ ظاهر:

ـ شكراً يا سيدي، هذا ما توقعته، لسوف أظل أحمل لك هذه المكرمة طوال حياتي، ثم إنه لشيء رائع أن تتزوج ابنتي رجلاً عظيماً مثلك . .

وهمَّ برتلمي بالقيام ليقبِّل يد ديبوي، غير أنه بقي في مكانه حينما سمعه يقول:

ـ يبدو أنك لم تفهمني كما يجب يا برتلمي . .

ـ ماذا يعني سيدي؟؟

ـ أعني أن في إمكاني أن أدبر لها زواجاً من أحد ضباطي الحديثي السنّ . . أنت تعلم أني متقدم في السن، وليس هناك تناسُب حقيقي بيني وبينها، إنها مثل ابنتي، والأهم من هذا كله هو أنني . . . متزوج.

وشحب وجه برتلمي وصاح في غضبٍ مكبوت:

ـ ماذا؟؟ متزوج؟؟

ـ أجل، وزوجتي في باريس . . والمسيحي المؤمن لا يتزوج إلا واحدة . .

تساقطت الدموع من عيني برتلمي على الرغم منه، لقد انهارَ تماماً، ولكنه عاد وأسرع بمسح دموعه، وعزَّ عليه أن يبكي . .

«لا . . لا يصحُّ أن أبكي . . إن الجبار الذي أذّل الرجـال ومحق المتمـردين، من العار أن يبكي . . إن سـطوتي تعـرفهـا شـوارع القاهرة وبيوتها العريقة، وضرباتـي الساحقة قد تردّد صـداها في آفاق مصر والخـارج . . . وديبوي سـأستطيـع أن أُسوّي حسـابي معـه . . إن عجزي هـذه المرة عن أن أفعـل شيئاً عجـز مؤقت، سوف أتبعه بضربة ماكرة تقضي على ديبوي الذي استباح كبريائي وشرفي، وحطم قلب ابنتي . . فإن انتصرت فبها ونعمت، وإن لم أنجح فيكفيني أنني تمرّدتُ على عجزي، وحاولتُ الثأر من ذلك الـذئب القادم من وراء البحـار . . من ذلك المسيحي (المؤمن) الذي يرعى قدسية الدين، ويرفض الزواج بأكثر من واحدة» . . .

وأفاق من شروده على صوت ديبوي :

ـ أعتـرف أنني شـاركت بعض الشيء في الخـطأ، وتحمُّـل المسؤوليـة أمر لا بـد منه، وسـأقـوم بـواجبي كمـواطن شـريف بالطريقة التي أراها تصلح لذلك . . إنني لم أبعث بـالجند لجرّ ابنتك إلى بيتي . . لقد أتت بمحض إرادتها . . . إنني أمتلك من الجواري البيض والسود ميراثاً كبيراً تركه لي المماليك . . والنساء كثيرات وبلا ثمن . . أنت تعلم ذلك . . إن هيلدا رائعة الجمال يا بـرتلمي، ولسوف يـركع ضبـاطي تحت أقدامهـا، وإني لأعـدك بترقية أي ضابط يتقدم بطلب يدها، وأظن أن ذلك سوف يحدث ي وقتٍ قريب، فلا تحمل همّاً . . .

ثم استطرد:

ـ الأهم من ذلك كله أن تبقى علاقتنا على خير ما يرام . . .

وأدرك برتلمي أن مثل هذا الحادث قد يعكر الصفو بينهما، وبالتالي سيؤثر على وضع برتلمي كرجل ذي مكانة، وبهذا يفقد شرف ابنته بالإضافة إلى منصبه الكبير. . ثم إنه قد بيَّت في نفسه أمراً، ولا بد أن يحاول إخفاء نواياه حتى يبلغ هدفه، ثم يبقى على مكانته، ويعثر على الزوج المناسب لفتاته.

واصطنع برتلمي إبتسامة كبيرة، وقال:

ـ سيدي. . إن مصلحة فرنسا فوق كل اعتبار. . لقد نذرت نفسي قرباناً لحكومة الدير كتوار العظيمة، وللقضاء على كل أعداء فرنسا. . أما مشكلة «هيلدا» فهي في منتهى التفاهة، ما دمتَ قد وعدتَ بحلِّها بالطريقة التي تراها مناسبة. . .

وبدا الإرتياح على وجه الجنرال ديبوي وهو يستمع لكلماته. . لم يكن يأخذ كلمات برتلمي من قبل مأخذ الجد، لأن ديبوي يعرف جيداً مَن هو برتلمي، ولا يخفى عليه أنه عميل رخيص مهما كان الأمر، وإن حُسن علاقته به أمر ضروري لسير الأمور في مجراها الطبيعي. . ففي إمكان ديبوي أن يبصق في وجهه، ويصرخ فيه: «إذهب أنت وابنتك إلى الجحيم». . لكنه كان واثقاً أنه لا داعي لشيء من هذا القبيل.

وسرعان ما أدار ديبوي دفة الحديث:

ـ كن على حذر يا برتلمي. . إفتح عينيك جيداً. . إنني على خبرة تامة بما يحدث عندما يُصاب جيش الإحتلال بنكسة. . إن القوى المضادة تتجمع، وتجد فرصتها الذهبية قد حانت. . .

قال برتلمي، وهو يحاول أن يبعد شبح هيلدا من رأسه:

ـ أعرف ذلك جيداً الآن، وقد تم القبض عل تسعين رجلاً من المماليك الهاربين، ولسوف أنفذ فيهم حكم الإعدام فوراً وبنفسي . . إن الضربات السريعة الماحقة تبعث الرعب في قلوب الشعب، فيستكين ولا يرفع في وجهنا سلاحاً . . .

ـ حسناً . . هذا ما يجب أن يكون .

تنهّد ديبوي في ملل، وأدرك برتلمي أن وقت الرحيل قد حان، فجمع أشتات نفسه المبعثرة، وخرج رافع الرأس، شامخ الأنف، وفي قلبه مراجل من الغضب تثور وتفور كبركان هائج . . .

●

وما أن توارى برتلمي عن الأنظار، حتى صاح الجنرال ديبوي طالباً الكابتن مالوس . .

وسرعان ما أتى مالوس وأدّى التحية العسكرية ووقف جامداً لا يتحرك .

قال ديبوي :

ـ لا تحاول أن تنكر شيئاً . . أعرف أن هناك علاقة ما بينك وبين هيلدا .

قال مالوس في ذعر :

ـ سيدي . . .

ـ لا تقاطعني يا كابتن . . أنا لم أتضايق أو أحزن عندما علمتُ بالنبأ من أحد رجالي . . لقد سعدت أيما سعادة . . وأنا لا أخدعك أو أغرر بك يا مالوس، ولا أحاول إستدراجك . .

ـ لكني يا سيدي لم أُقدِمْ على شيء من هذا القبيل. . لقد كنت أؤدِّي عملي بشرف، ودون غرض خبيث في غيبتك، وعند إيصالها لمنزلها، وأُقسم على ذلك. .

سدَّد إليه ديبوي نظرات حادة لا تلين، وقال:

ـ إفهمني. . أنا لا أريدها. . بل أتمنى التخلص منها على وجه السرعة، وهذا لا يتم إلا بعملية إحلال. . إن الفراغ الذي سأتركه لديها يجب عليك أن تملأه فوراً من أجل المصلحة العليا . . أنت تدرك أهمية أبيها بالنسبة لنا ، ولهذا آمرك بأن تهرول الليلة إلى بيتها . . إنه أمر واجب التنفيذ ، وسأعتبرك قد نجحت في مهمتك عندما تقطع زيارتها لي . . أتفهمني؟؟ ثم إنها فتاة لطيفة رائعة الجمال ، وأظنك في حاجة لأن تقضي معها أوقاتاً طيبة . . لا أريد مزيداً من المناقشة أو الإعتراض ، والأحداث يا مالوس تتحرك بسرعة ، وكارثة الأسطول لم تبرد نيرانها بعد ، ولسنا في حاجة إلى مشاغل جانبية ، أو جبهات داخلية تستنفذ فيها قوانا ، نحن في حاجة إلى السرعة والتركيز ، والقضاء على المشاكل الصغيرة . .

كان قلب مالوس يدق. . الفتاة رائعة وجميلة، ولكَم تمناها لنفسه منذ أن رآها، ولكَم حلَم بها، وتصوّر لقاءاته معها تصوُّراً دقيقاً مُلِحّاً، لكن الذي يؤلمه ويحزُّ في نفسه هو أنه يتلقف فُتات المائدة العامرة التي يتناول عليها الجنرال أطايب الطعام . . ومع ذلك فهو جائع ، وفي حاجة ماسّة إلى الطعام . . ولو كانت فُتات المائدة. . ثم إنه يؤدي دوره بتكليف ، ومن أجل مصلحة عليا . .

وتمتم مالوس وهو يرتجف :

ـ أمر سيدي.

ـ إن مهمتك ستكون سهلة على ما يبدو. لقد علمت أن الفتاة تميل إليك كل الميل، على الرغم من تحفظك الظاهر..

ـ هذه مسألة ثانوية.. إن ما يهمني هو أمر سيادتكم.

وقال ديبوي بصوتٍ هادىء مضطرب على غير عادته:

ـ إنصراف..

فأدّى الكابتن مالوس التحية العسكرية، وانصرف...

١٤

كانت زوجة الحاج مصطفى البشتيلي في أشد حالات التعاسة، إنها تتوقع دائماً كارثة من أي نوع، هذا الإحساس هو الذي يعذبها، ويحيل حياتها إلى جحيم.. ويبدو أن ذلك كله يُعزي إلى اليأس العنيف الذي يخالط مشاعرها وأفكارها، إن هؤلاء الشياطين الفرنسيين ـ بآلاتهم الجهنمية ـ من العسير أن يُهزموا، ذلك ما وقر في ذهنها، وإزدادت تعاستها شدة وهي ترى زوجها يغرق في جو العمل والإستعداد للمشاركة الفعلية في ثورة لتدمير قوى الشرّ والعدوان.. وكانت توقن أن عاطفة زوجها تطغى على تفكيره، وأنه لا يقدم أمام نفسه حساباً دقيقاً للموقف.. واهتزّ زوجها إزاء سؤال محرج ألقته عليه، لقد قالت:

ـ ألم تفكر في العاقبة إذا ما حاقت بكم الهزيمة مرة ثانية؟؟

كان سؤالاً دقيقاً خطيراً، على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية، هذا ما

تبادر إلى ذهنه، ولم تكن خطورته نابعة من خوفه على نفسه وأُسرته، وإنما الذي جعله يفكر هو أثر الهزيمة ـ لو حدثت ـ على ملايين البشر في مصر كلها. . . وعادت الزوجة تقول:

ـ العقلاء يفكرون في احتمالات الهزيمة قبل احتمالات النصر.

أجابها بقوله:

ـ الحقيقة أنكِ تتفلسفين بطريقةٍ معقولة.

ـ لا أعرف الفلسفة، ولكني أقول ما يختلج في صدري.

ـ حسناً. . لو فكّر الفرنسيون في احتمالات الهزيمة، لمَا عبروا البحار وقطعوا المسافات الشاسعة ليحتلوا أرضنا. . . أعرف أنكِ على جانبٍ من الصواب له شأنه، غير أن المعركة يجب أن تستمر، والسبب بسيط هو أننا لن نخسر أكثر مما خسرنا، ثم إن كرامتنا تأبى علينا أن نستسلم على طول الخط. . سنخسر رجالاً وسيخسرون، وسنتعرض لمزيدٍ من الضغط والعسف، هذا أقصى ما يستطيعونه. . .

قالت في شيءٍ من السخرية:

ـ وهل هناك مصائب أكثر من ذلك؟

قال في حدّة:

ـ أجل. .

ـ ماذا؟؟

ـ أن نرضى بالهوان!. .

وتركها قاصداً الأزهر. . وقد كان المسجد الكبير في تلك

الأيام قلب الأمة النابض، فيه يلتقي الدين بالدنيا، وتتبلور آمال الشعب وأفكاره، بوتقة الماضي والحاضر - كما يقول البشتيلي - ، ومجلس شورى الأمة، التنظيم الوحيد الذي يشعُّ بنوره الوهّاج في شتى الأنحاء.. وكان للشيخ السادات مكانة طيبة، دعمها عدم اشتراكه في عضوية الديوان الذي كوّنه نابليون ليحكم من خلاله، وليتجنب الكثير من المشاكل، تحت زيف الشعارات الخادعة.

وفي داخل الأزهر الواسع الجليل، شعر البشتيلي - كعادته - باطمئنانٍ غريب، ذلك الإطمئنان الذي يخالج قائداً همّاماً وقد أوى إلى قلعة حصينة لا تستطيع أية قوة أن تتخطى أسوارها، أو تقتحم حماها.. عشرات من الرجال يستعدون للثورة الشاملة، ولم تكن القيادة لنوعٍ واحدٍ من الرجال ، فقد كان هناك التجار والأعيان وصغار أرباب الحِرَف والمِهَن المختلفة ، ولم يكن لقب « عالم » وقفاً على رجال بعينهم تخصصوا في دراسة الدين والعلم ، بل كان العلم مشاعاً ، فكثير من التجار أو أصحاب الحِرَف يتناوبون خطَب الجمعة في الأزهر الشريف .

وتطلّع البشتيلي إلى الوجوه الكثيرة التي تشرق بالثقة والأمل، يقرأ في العيون رغبة أكيدة في التضحية والصبر عليها.. هنا ينسى البشتيلي أي تردُّد، وينسى تلك «الفلسفات» التي تثرثر بها زوجه، ولا يذكر سوى أنه بين رجال كبار النفوس يسعد الإنسان بالنضال معهم، ويلتقي بأي مصير مهما كان رهيباً، إن اللغط

يتناثر هنا وهناك، وعديد من الأخبار تملأ رحبات المسجد، واندحار الأسطول الفرنسي يحظى بالجانب الأكبر من التعليق والدراسة، ويفكرون في المعنى السطحي والعميق في نفس الوقت، وهو أن الفرنسيين تجري عليهم سنن النصر والهزيمة كما تجري على غيرهم.. ويدور الحديث عن الضرائب الكثيرة التي أرهقت المواطنين، وتفتيش المنازل، وكسر الدكاكين، واستخراج الخبايا والودائع، والفديات التي تؤخذ من ذوي النفوذ والمراكز، والقروض الإجبارية من أهل الحِرَف...

وتذكر البشتيلي ـ وهو يمرق وسط هذه الحشود ـ كيف كان برتلمي يقطع رؤوس الوطنيين، ويطوف بها في الشوارع لبثٍّ الرعب في القلوب.. وتذكر السجون وما فيها من رهائن ومسجونين، وقسوة بالغة البشاعة.. ثم عاد ينظر إلى ما حوله من مظاهر حيَّة، فتمتم: «ولو.. إن هذا الشعب لن يموت ولن يستسلم، ولو تحوَّل كل الفرنسيين جميعهم إلى أنماط متشابهة على صورة برتلمي اللعين»...

ويمضي البشتيلي في طريقه، ويشتد به العجب وهو يرى ألواناً شتى من أبناء الدول العربية: مغاربة وشوام وسودانيين ويمنيين وحجازيين وعراقيين.. إنهم جميعاً يهتمُّون بالأمر وكأنه يعنيهم بالدرجة الأولى، ويلتقون مع إخوانهم المصريين في جدلٍ صاخب، ويُبدون رغبتهم بالمشاركة في البذل والتضحية... ويتمتم البشتيلي بينه وبين نفسه: «سنضع لهم في كل حارة متراس، ولسوف يتفجر الموت من تحت أقدامهم أينما

ساروا، سيرون شعباً بأسره وقد تحوَّل إلى جيشٍ كبيرٍ يمتـد في كل ناحية، ومن الضروري أن يرى فينا الأعداء أُمةً صلبة، صعبة المراس، تدافع عن معتقداتها وشرفها وحريتها بكل ما أُوتيت من قـوة.. ستتفجـر اللعنـة عليهم لأوهى الأسبـاب.. إنني أرى الجماهير تزمجر وتتوثب ليوم الثأر، ولن تستطيع قوة في الأرض أن توقف تدفُق البركان الهادر... مرحباً بالموت»...

ورأى البشتيلي أفواجاً من لابسي الأردية القروية يزحفون نحو الأزهر، وينتشرون في ردهاته الكثيرة الواسعة.. هذا النـوع من التجمـع التلقـائي لا يعني سـوى أن جمـاهيـر الشعب تـرفض الإستكانة والـذل وأنه يستـوي في ذلك أهـل الريف والحضـر، والعـرب في مصـر وخـارج مصـر.. ويهمس البشتيلي لنفسـه: «مستحيـل أن تُخذَل تلك الإرادة الجبـارة.. إرادة الحق الـذي ينطلق في مواجهـة الشرّ، بـرغم إتساع الفـارق بينهما من حيث القوة المادية»...

والتقى البشتيلي بإخوانه الثوار وعلى رأسهم الشيخ السادات، وبعد دراسة الأمر من كافة نواحيه، قال السادات:

ـ «سيروا على بركة الله.. ولينصرنّ الله مَن ينصره»...

وزحف الثوار خارج المسجـد الكبير.. كـانت الحوانيت في الشـوارع مغلقـة، وتجمعـات النـاس تلفت النـظر في الميـادين والشوارع، تلك التجمعات تـأخذ في التـلاحم لتكون كتـلاً من البشـر أضخم وأكبـر.. وهـديـر كـالـرعـد يصمُّ الآذان، إنـه الطوفان...

ويدرك أعضاء الديوان مدى الخطر الذي يلوح في الأفق، فيهرعون إلى الثائرين محاولين تهدئتهم، ومحاولين إيجاد حل سلمي لمظالم الفرنسيين، وخاصة الضرائب الجديدة، إذ كانت هي الشرارة التي أشعلت الثورة الشاملة الكامنة في النفوس، تلك الثورة التي كانت ستنطلق حتماً - حتى ولو لم تُفرض الضرائب الجديدة الجائرة - . . لكن أعضاء الديوان كانوا في موقفٍ لا يُحسدون عليه، إن الإرادة الشعبية أقوى من منطقهم وتخوُّفهم، بل إنهم تعرّضوا لاتهامات كثيرة تنال من وطنيتهم وإخلاصهم، كان صوت أعضاء الديوان أضعف من أن يوقع أدنى تحوُّل في مجرى النضال الشعبي العملاق. . وصاح رجل من غمار الناس لا يعرفه أحد، وإن كان صوته قوياً واضحاً:

- يا أعضاء الديوان. . إن مكانكم ليس هنا. . إذهبوا إلى ساري عسكر وقدِّموا له فروض الطاعة والولاء. . إن قراراتكم واجتماعاتكم لا تُلزمنا بشيء. .

وردَّ أحد أعضاء الديوان بصوتٍ واهن:

- يعلم الله كم نبغض هؤلاء الغزاة الأنجاس. . فلينصرنكم الله وليؤيدكم بقوته التي لا تُقهر. . .

وسارت الحشود الهادرة تدوس تحت أقدامها أية مقاومة أو إعتراض. . . وأمام بيت القاضي التركي «أدهم أفندي» توقفوا، وطلبوا من القاضي أن يصحبهم إلى نابليون، ليتكلم بلسانهم ويعلن تمرُّدهم على الضرائب الجديدة، واحتجاجهم على تصرفاته الجائرة. . ولم يكن القاضي من السذاجة بحيث يجهل

معنى تجمعّهم حوله، وإجباره على الانخراط في سلك الثورة المنتظرة. . وأدرك القاضي أن الأمر أكبر من الضرائب، إنه شيء آخر يعرفه الناظر في وجوه أولئك المندفعين كالطوفان. . وحاول القاضي التركي الإفلات، فتناثرت التعليقات من حوله:

ـ أنت جبان رعديد. .

ـ أنت لا تمثل الحق الذي تتبناه، ولا الشريعة الغرّاء التي تزعم أنك تحكم بها. .

ـ أنت تمثل السلطان في تخاذله عنا. .

ـ أنت متخلف عن الجهاد. .

ـ لستَ قاضياً، وإنما أنت أشبه ما تكون بشاهد الزور المأجور. . .

كلمات كثيرة كوقع السياط تنطلق من هنا وهناك، وعلى الرغم من بساطتها، إلا أنها كانت تمثل ـ في رأي البشتيلي ـ محاكمة عابرة للقاضي التركي وأمثاله. . ولم يطل الموقف بهم، إذ سرعان ما أصدرت الجماهير الثائرة حكمها، فضربوا القاضي ورجاله، وصادروا ممتلكاته وتركوه مجرّداً من كل مجدٍ أو مالٍ أو كرامة. . فارتمى جانب الطريق واهن القوى، ينظر إلى الزحف الباسل في عجزٍ ويأسٍ وأسى.

ولم يكن هناك من أملٍ في أن يتجهوا إلى ساري عسكر. . إن المقاومة المسلحة هي الحل بالنسبة لقوة غاشمة لا تذعن لحق أعزل. . وظهرت السيوف والبنادق، وأخذ الرجال يسارعون بإتمام المتاريس، وخوض المعركة. . .

١٥

إندفع برتلمي في عجلةٍ إلى حجرة هيلدا وقال:

ـ معذرة يا عزيزتي.. لسوف أبادر بالذهاب إلى ديبوي، إن نُذر العاصفة قد بَدَتْ في الأفق..

قالت ساخرة:

ـ عندما تصل إلى ديبوي أبلغه تحياتي.. ثم لا تنسَ يا أبي أنني في انتظار مالوس الليلة.. لكَم سعدتُ بلقائه بالأمس، إنه كالحَمل الوديع، يتحمل كل ما أرميه من نقدٍ لاذع..

ودهش أبوها لسخرياتها، كان يتوقع أن تسأله عن العاصفة، وعن الأحداث الهامة التي توشك أن تأخذ مكانها على مسرح القاهرة.. يبدو أن الإكثار من الخمر قد جعلها تهرف بكلماتٍ غير مناسبة في بعض الأحيان، ومع ذلك فقد قال محاولاً جرّها إلى ما يهمّه:

ـ سيظل الأزهر مصدراً للمتاعب، إن زعماء الثورة قد اتخذوه مقراً لهم، وألّبوا علينا الجماهير، وهذه حماقة لا تغتفر، لسوف نهدمه على رؤوسهم إذا اقتضى الأمر...

قالت هيلدا وهي ما زالت مضطجعة على سريرها:

ـ أيضايقكم أن يثوروا؟؟

ـ بالطبع.. هذا عين الجهل وسخف التصرف.

تمتمت:

ـ ومَن في مقدوره أن يرى تصرفات ديبوي وأمثاله ثم لا يثور؟.. لو كنت في مكانهم لمَا فعلت غير ما فعلوا.. دائماً يا

أبي تنظرون إلى الأمور من وجهة نظر شخصية، ولو نظرتم إليها من وجهة نظر الآخرين لوجدتم أن لهم ألف مبرر.

قال برتلمي:

ـ عزيزتي.. الموقف خطير، وأراني مضطراً للانصراف على عجل.

ـ ومالوس؟..

ـ أظنه لن يستطيع الحضور الليلة..

ـ إذن فسأقضي ليلة تعسة..

ـ ماذا جرى لكِ يا هيلدا؟؟ إنكِ تنسين أنني أبوكِ، وأن هناك أسلوباً لائقاً لا بد وأن تخاطبيني به... وانصرف غاضباً، بينما قالت هيلدا لنفسها: «اللعنة على الجميع.. لتشتعل النار في كل مكان، وليكن ديبوي ومَن معه حطباً لها.. لم أعد أشعر بالشفقة على أحد، إلا أولئك المساكين المظلومين الذين تجرُّونهم بالحبال، وتقطعون رؤوسهم، وتقذفون بهم خلف الأسوار، وتتصرفون معهم وكأنكم آلهة لا رادّ لمشيئتكم.. أيها السفَلة»...

●

التقى برتلمي بالجنرال ديبوي، فوجده هو الآخر مضطرباً حائراً.. إن الاستسلام والصمت اللذين يسودان القاهرة، قد انقلبا فجأة إلى شرّ مستطير يهدِّد بالأخطار الشديدة، ولم يكن برتلمي بمستطيع أن يخفي حقده على الشيخ السادات وزملائه،

فضلاً عن أن إلقاء التبعة على الشيخ يخلي برتلمي من المسؤولية ، ولا تجعل توقعاته السابقة في موضع السخرية والهزء ، ولهذا قال :

ـ إن السادات سبب هذه النكبة.

قال ديبوي :

ـ السادات وحده ليس شيئاً، إن الذين يسيرون خلفه، ويلتفون حوله، ويستمعون لأوامره من عامة الشعب هم كل شيء...

ـ بالتأكيد هو العقل المدبر لكل هذا، ومع ذلك فإني واثق أن مجرد ظهورنا وسط هذه الجماهير سوف يشتتها، ويمزق الرابطة بينها، إنهم أجبن مما تتصور.. هيا بنا قبل أن يستفحل الأمر ونعجز عن تداركه.

قال ديبوي في ضيق:

ـ حسناً، لسوف أسير معك إليهم، هذا ما يراه نابليون هو الآخر، لكنها مغامرة قد تكلفنا الكثير...

وخرج الجنرال وبرتلمي ومعهما عدد من الضباط والجنود راكبين جيادهم، مسلحين بالبنادق، وانطلقوا مسرعين نحو حيّ «الغورية»، وفي منتصف المسافة بين الغورية وبين «القصرين» كانت جماهير الشعب تتزاحم وتهدر هاتفة في وجوه الفرنسيين، ملوِّحة بالسلاح والعصي، والغضب يزأر في عيونهم وعلى سحناتهم الحانقة.. ولم يفت ديبوي أن ذلك هو الوجه الحقيقي للثورة، فرأى أن يعودوا أدراجهم حتى ينجوا بأنفسهم، وحتى يكملوا استعداداتهم، غير أن برتلمي رفض ذلك بشدة، وقال:

ـ إنني أعرفهم منذ سنين، وهم أجبن مما تتصور. . إن مجرد ظهورنا بينهم سوف يذيب شجاعتهم، ويبدِّد كل مقاومة لديهم.

ومضى ديبوي في طريقه متوجساً، كانت خطوات حصانه أبطأ، واندفاعه أقل. . وتذكر برتلمي فجأة ما حدث لابنته المسكينة، وكيف قسا عليها ديبوي في استهتارٍ غريب، لم يرحمها ولم يأبه لكرامتها. . وتمنى برتلمي في تلك اللحظات أن تنطلق رمية طائشة فتحطم رأس ذلك المغرور ديبوي. . إن علاقته بها قد فترت على الرغم من محاولات برتلمي المتجددة لمحو آثار ما حدث من جراء ابنته، لكن الشوائب قد عكرت صفو اللقاء بينهما، تلك الشوائب التي لا تُرى ولكن يحس بها قلب كل منهما، مثل تلك العلاقة المتوترة المشبوهة يجب أن يوضع لها حد. . ودقَّ قلب برتلمي في عنف، ورفع غدارته صوب الجماهير المحتشدة التي تعترض الطريق، ثم أطلق الرصاص. . وكانت طلقته كعود الثقاب الذي أشعل فتيل الانفجار الضخم، فأحاطت الجماهير بهم، وأحدق الخطر بديبوي حكمدار المدينة والذي يعرفه الجميع، بينما أخذ برتلمي يروغ هنا وهناك، وكان ديبوي مضطراً لأن يقاوم باستماتة، محاولاً دفع تلك الأمواج البشرية التي تحاول الفتك به، ولكن هيهات، فقد انقضَّ عليه أحد الثوار وغيّب خنجره في صدره وهو يصيح:

ـ خذ هذه أيها الملعون.

عندما سقط ديبوي حدث هرج ومرج شديدين، وتصايح الثوار بأن الجنرال الكبير قد سقط على الأرض، فاشتعلت حماسة

الجماهير، وفرَّ الفرنسيون هاربين، ثم عادت مجموعة كبيرة من الجنود الفرنسيين ومعهم طبيب من أطباء الحملة، لكن الوقت قد فات، وانتهى ديبوي. . .

تنهد برتلمي في ارتياح، ولمع في عينيه بريق الشماتة، وإن تظاهر بالحزن والسخط، وأخذ يرعد ويهدِّد، ويطلق الرصاص هنا وهناك، لكن حي الأزهر قد احتشد بما يزيد على خمسة عشر ألفاً من الثوار الذين أخذوا يفدون من كل مكان، واكتظت بهم الحواري والأزقة والشوارع الكبيرة. . وأصدر نابليون أوامره:

ـ يجب أن تحاصروا القاهرة، حتى تقطعوا عنها المدد، وتمنعوا دخول العربان وأهل القرى إليها. . لقد قتل الثوار الكولونيل سلكوسكي هو الآخر، وضحايانا يزيدون كل لحظة، والثوار يُبدون مقاومة لم تكن منتظرة. . .

وعاود أعضاء الديوان، وعلى رأسهم الشيخ المهدي والشرقاوي والبكري، الاتصال بالثوار لصرفهم، ودرء المخاطر المرتقبة، لكن هدير الجماهير كان أقوى من أي رجاء، وأبسل من أي منطق، فولّوا مذعورين مخافة الموت. . بينما وقف الفرنسيون على مقربةٍ من الثوار، وهم في حيرة كبرى وخوف شديد. . وأخيراً حضر برتلمي وفي يده آخر تعليمات ساري عسكر نابليون، وأخذ يقرأها في شماتةٍ واحتداد:

ـ «عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع، ولتكن المدافع في أصلح موقع، ليكون الضرب أشد أثراً. . بلِّغوا الجنرال «دومارتان» أن يفعل مثل

ذلك، وأن يستولي على مدخل الأزهر، والمنازل الموصلة إليه، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع . . والقائد العام يأمر بأن تقتلوا كل مَن تلقونه في الشوارع المسلحة، وعليكم أن تعلنوا للأهالي بأن كل المنازل التي تُلقى منها الحجارة تُحرق حالاً بالنار، ويُعفى عن المنازل الأخرى، وعليكم أن تقتلوا كل مَن بالمسجد، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود». . .

وعند الظهر انقذفت القنابل من فوق جبل المقطم، وأخذت تتساقط بعنفٍ وكثرة على الأزهر والصنادقية والغورية والفحامية، فتحوَّل الحيّ إلى ما يشبه الخرابات، وكاد الجامع ينقض على كل مَن فيه . .

ووقف برتلمي منتصب القامة ينظر بعين الشماتة والحقد إلى الأبنية التي تتهدم، ومئات القتلى والجرحى الذين يسقطون . . وأحنقه أن كثيرين لا يتوقفون عن التقدم بعد الإصابة، فهم يظلون يزحفون بقواهم الخائرة وأقدامهم الكليلة، نحو التلال التي توضع عليها المدافع، ونحو الأماكن التي يحتشد فيها الفرنسيون، وكان يعجب لهؤلاء البشر الذين يقاومون في استماتة على أرض معركة ميئوس منها، ولم يكن ليستريح إلا إذا أطلق غدارته صوب ثائر جريح يترنح كي يجهز عليه، حتى الشهداء الذين يتساقطون لم يكونوا ليرووا غليله، كان يشعر أنه متعطش دائماً إلى مزيدٍ من التدمير والقتل والدم . . .

كانت الساعة قد شارفت الثامنة من مساء ذلك اليوم المشهود،

وتطلع الحاج مصطفى البشتيلي حواليه بعد أن نفـذت ذخيرتـه، وصمتت بندقيته الصدئة، إنه يرى الضحايا الكثيرين وقد توسدوا التراب هادئين، لا يأبهون للضجيج القاتـل الذي يصمُّ الآذان، والـدماء المتجمـدة تمازج التـراب الحزين، والأنقـاض ـ بـرغم الـظلمة ـ تمتـد في كل نـاحية، وأصـوات النساء والأطفـال تبلغ مسمعه، فتنسكب دموعه الغزار. . وتذكّر ولـده الحسين آنذاك، وسرعان ما شعر بالخجل، إن هؤلاء الشبان الذين فقدوا الحياة، أو يئنون من هول الآلام المبرحة كلهم أبناؤه. . وتحامل البشتيلي على نفسه، كان يفكر في الذهاب إلى الشيخ السادات. . لكنها لحظـات حـرجـة، وعليـه الآن أن يشقّ طـريقـه وسط المــوت والكمائن لعله يستطيع الوصول إلى بيته، فقد يأتي يوم آخر يكون أحسن حـظاً من هـذا اليـوم. . أجـل، لسـوف يلتقي بـزوجـه، وستسدِّد إليه نظراتها العاتبة، وستعيد على مسمعه ما قالتـه قبيل نشوب الثورة، فهل في إمكانه أن يردّ عليها ويقنعها كما كان يفعل كـل مرة؟؟ ولسـوف تسألـه عن ولدهـا الحسين والدمـوع تغـرق عينيهـا، أتراه يـأوي إلى عزلتـه من جـديـد، مستسلمـاً لليـأس والألم؟؟ أتراه يفقد وحيده كما فقدَ صهره بالأمس؟؟ وماذا سيفعل الفرنسيون بعد هذه النكسة القاسية؟؟ وماذا سيكـون أثرهـا على سكان القاهرة؟؟ لقد سمع أحد الثوار يقول منذ لحظات:

ـ لقد خسرنـا المعركـة هذه المـرة أيضاً. . وعلينـا أن نسارع بالهجرة إلى السويس، إن الفرنسيين لم يحتلوها بعد. . لو بقينا هنا لفتكوا بنا عن آخرنا، وفي السويس نستطيع أن نقاوم الغزاة

الذين سيقدمون صوب الشرق. .

وفكّر البشتيلي، أيمكن أن يفعل ذلك، وهو الذي رفض الهروب والهجرة وندّد بالمهاجرين على رؤوس الأشهاد؟؟ لا. . مستحيل أن يحدث ذلك. . وحانت منه التفاتة، فرأى أعداداً ضخمة من فرسان العدو تنحدر نحو مبنى الأزهر الشريف. . إن بقاءه في مكانه معناه الموت. . وأسرع إلى زقاقٍ قريب. . لقد نجا من الموت في المعركة لحكمة يعلمها الله، فلا يصح أن يسلم نفسه هكذا بلا معركة لأيدي العدو كي يفعلوا به الأفاعيل. . وأخذ يتسلل من زقاق إلى زقاق، ويثب من سطحٍ إلى سطح. . .

وقبيل الفجر كان على شاطىء النيل عند بولاق. . واقترب في حذرٍ من منزله. . وحينما دفع الباب وجد عيون زوجه وابنته محترقة من الدموع والخوف والعذاب. . .

تمتم وهو يدلف حزيناً إلى الداخل:

ـ «هذا أمر الله». . .

١٦

وترتمي المدينة العظيمة جريحة القلب والجسم، تكتم الأنين، وتجترّ الأسى الدامي، وآثار الخرائب والدمار والدماء كئيبة المعالم، وقوات الغزاة تقتحم الحصون، وتجوب الأحياء الثائرة، تقتل كل حامل للسلاح، وتنكل بالشيوخ والشباب، وتدهم البيوت كي تنهب ما فيها، وتبحث عن الثوار أينما كانوا، والناس بين هاربٍ خارج القاهرة، أو لائذٍ في بيته لا

بريم ينتظر المصير المجهول، مـا أقسى الإنتظار الـوجل الـذي يجهـل ما تخفيـه طيّات المستقبـل. . وبرتلمي الـرومي ينـطلق كالشيطان هـو ورجالـه من العسس يقبضون على النـاس لمجرد الشبهة، ويطيحون بالرؤوس إذا ما ثبت لهم اشتراك الضحية في الثـورة، والمدينـة الحزينـة مستسلمة للقضـاء، وعلى الرغم من استسلامها وجراحها، والرعب المنتشر في نواحيها، إلا أنهـا لم تفقد الأمل كلية و «سبحانَ مَن يحيي العظام وهي رميم».

أما الأزهر فيا لهول ما رأى!! إن أوامر نابليون تنفذ بحذافيرها، الخيول تقتحم البوابة الكبيرة، والجنـود يتخذون لهم مـرابط في القبلة الشـريفـة، والأيـدي القـذرة تـدهم الـطلبـة في أروقتهم فيجردونهم من المال والمتاع والطعام، ويدوسون بأحذيتهم كتب العلم والمصاحف، ويثيرون الفوضى والاضطراب في أرجـائه، كل شيء قد هان في أعين الغزاة الخبثاء، حتى المقدّسات. . .

وهنـا يتأكـد للجميع أن دعـاوى ساري عسكـر عن الحـريـة والعدالة والإخـاء والمساواة، أكـاذيب لا تسندهـا الوقـائع، وأن زعمهم بـأنهم جـاؤوا لتخليص الـديـار المصـريـة من عسف المماليك، ادّعاء باطل لا يقوم على أساس، وأدرك الناس للمرة الـثانية ، أن لا حـرية في ظـل إحتلال، ولا عـدالة مـع الجشع الإستعماري، وأن المعـركـة لا بـد أن تستمـر بـرغم ألـوف الضحايا. . .

●

وكان برتلمي يتحرك في يقظة وشماتة، لا يستـطيع أن يخفي فرحه الشيطاني، ولـمَ لا يفرح؟؟ لقـد نال من السلطة مـا يجعله يحكم في أمر الحياة والمـوت على هواه، إن أرواح البشـر على كفه يلهو بها كيفما شاء، وامتلاك مصـائر النـاس أمر يبعث على النشوة والغرور، ويغـري بالقسـوة وإشباع الـرغبات الشـرِّيرة. . وبرطلمين في حاجةٍ مُلحّة ودائمة إلى الانتقام، إنه من ذلك النوع من الرجال الشواذ الذين لا يظهرون في الأوقـات الطبيعيـة، إن لهم تـوقيت وظـروف معينـة، أمثـال بـرتلمي يـوجـدون حيث يوجد الانحراف والقسوة واحتقار المُثل الإنسانية الرفيعة، وفي غير هذه الظروف العصيبة لا يكون أمام أمثال برتلمي سوى التحـوُّل إلى إنحرافات صغيرة كاللصوصية والعبث والاستغلال . . أجل، إنما تلهو الشياطين حيث الانتكاش الوحشي للإنسان. . لمَ لا يفرح بـرتلمي، وقد استـطاع أن يجد الفـرصة الـرائعة التي يـرى فيهـا «الجنرال ديبوي» ملقى في زقـاق ضيق تنزف من صـدره الدمـاء، والشحوب يسود وجهه المتغطرس، ونـظرات الكبريـاء تنطفىء في عينيه المتبجحتين، والعجز يشلُّه عن الحركة وإصدار الأوامـر؟ . . «لتفرح صغيرتي الحبيبة هيلدا، فإن الصفعـة القاتلة التي تلقَّـاها ديبـوي تشفي الغليل وتخفف من آلام جـراحهـا النفسيـة لتفـرح حبيبتي هيلدا، لأن أباها قادر على أن يثأر، وأن يتصدى لكل قوة تحاول النَّيل من كبريائه».

ولـمَ لا يفرح برتلمي، وهو يرى كبار الأثرياء والتجار يقدمون له

الهدايا والهِبات، ويسكبون في أُذنيـه ترانيم الـرجاء والشفـاعة، هؤلاء الــذين لم يكن في استــطاعتــه ـ قبــل مجـيء الحـملة الفرنسية ـ أن يحظى بمجرد الجلوس معهم؟ . .

ولِمَ لا يفرح، وقد أمكنه الله من أعدائـه، يفعل بهم مـا شاء دون حسيب أو رقيب؟ . .

وينـظر برتلمي وهـو راكب على جواده، ومن حـولـه رجـالـه المسلحـون، ينظر إلى طـوابيـر الأسـرى وهي تُسـاق عنـوة إلى مصائرها المجهولة، وعيون النسـوة خلف النوافـذ تنظر وتـذرف الدموع، وتسكب الأنين. . يا لها من مشاهد مؤثرة تحرِّك مشاعره بالنشوة، وتملؤه بالفخار! . . فيصرخ بهم كي يسرعوا في السير، ويهتف برجاله أن يلهبوا ظهـورهم ووجوههم بـالسياط، فـإذا ما أبدى أحد الأسرى تأففاً أو اعتراضاً، فليس هناك عقـوبة عـاجلة سوى الموت. . .

●

وعاد برتلمي في المسـاء. . أفسح لـه الحراس الـطريق، وأدّوا التحية للرجل الذي يستمتع بأبشع شهرة في القاهرة. . وصاح وهو يلقي بجسده على أقرب أريكة:

ـ هيلدا. . هيلدا. . أين أنتِ يا حمامتي الصغيرة؟؟

قدمت مترنحة، وقالت في تعثر:

ـ ألم ينتهِ سفك الدماء بعد؟؟

ـ لا أعتقد، إنه ضرورة يا حبيبتي. .

ـ ضرورة؟!

ـ أجل، لا بد أن يموت بعض الناس ليسعد الآخرون.

ـ لكن الموت بشع، والسعادة في جانب يقابلها الشقاء في جانبٍ آخر.

ـ إرادة الله يا فتاتي.. كالليل والنهار، وماذا كنا نفعل؟؟ نربت على ظهر الثوار، وننحني لإرادتهم، ونفتح صدورنا لرصاصهم؟؟ أظن أن هذا بلاهة.

قالت متسائلة:

ـ ولِمَ لا نبحث عن سبب لثورتهم؟؟

قال ضاحكاً:

ـ وهل هناك من سببٍ سوى غبائهم وغرورهم؟؟

ـ ربما يكونون أصحاب حق..

ـ دعكِ من هذه المثاليات الفارغة.. إنهم يشكون من الضرائب ولا يفكرون في أن الجنود والحكومة في حاجةٍ إلى مال، ويندّدون بالغزو، وهذه حكاية قديمة يردّدها كل شعبٍ مهزوم.. يجب أن يفهموا أن القوي هو الذي يحكم.. أجل.. القوي هو الذي يستطيع أن يحكم، سواء أكانت رعيّته في قريةٍ أو مدينةٍ أو دولة.. هكذا الدنيا منذ أن خلقها الله، والاعتراض على ذلك اعتراض على مشيئة الله...

واستطرد غامزاً بإحدى عينيه:

ـ ثم لا تنسي يا حبيبتي أن الثوار قتلوا ما يقرب من مائتين وخمسين من رجالنا، وقتلوا سلكوسكي و.. و.. ديبوي..

قالت في غيظ:

ـ أجل ديبوي . .

ردَّ في استبشاع مصطنع :

ـ الجنـرال ديبوي العـظيم المسكين . . لقد قتله الغـوغاء في زقاقٍ حقير . . لشدّ ما أسف نابليون لمصـرعه . . إن لـه تاريخـاً ضخماً . . أليس مما يحنق ويثير أن تنتهي حياة هذا القائد الهمام على يد صعلوك مجهول من سكان القاهـرة؟؟ هذا الصعلوك لم يعرفه أحد، ولن تذكره كتب التاريخ . .

وصمت برهة ، ثم عاد يقول :

ـ الحقيقة أنني أسفتُ عليه ، على الرغم من حماقته وغروره .

قالت هيلدا :

ـ لكن إطلاقك الرصاص يا أبي هو الذي عرَّضه للتهلكة .

أجابها بقوله :

ـ هذا تحليل متحيز للأحداث، لو كان الأمر كما تقولين لقتلت أنا مكانه . . لكن إرادة الله يا عزيزتي فوق إرادتنا، فلربمـا كان في مصرعه حكمة عليا تخفى علينا . . والأقدار تنتقم يا هيلدا .

نظرت إليه في دهشة :

ـ أتعتقد ذلك؟؟ إن الأقدار ليس لها مشاعر مشـابهة لمشـاعر البشر، فهي لا تحقد ولا تثأر . . .

وتغيّر وجه برتلمي ، وبرقت عيناه في شماتة وقال :

ـ يكفي أن هـذا الـوغـد الغـادر قـد جعلك تقضين الليـالي المسهدة الحزينة من جرَّاء الخديعة التي أوقعك في شباكها، أنتِ لا تعلمين الكثير عما كنت أعانيه من عذابٍ وشقاء، لا أنكر أنني

سعدتُ لمصرعه، لكن سعادتي كان في الإمكان أن تكون أعظم وأكبر لو اعتصرت عنقه بيدي.

وهزَّ رأسه ثم استطرد:

- ومع ذلك فالنتيجة في الحالين متقاربة.. أليس كذلك؟؟

قالت وهي تصبّ كأسين من الخمر:

- وهل أصاب مالوس مكروه؟

أجاب مطمئناً:

- إنه بخير، وأعتقد أنه قد يفرغ من أعباء العمل بعد يومين على الأكثر.. أعرف أنكِ كنتِ تقاسين الكثير من الوحشة والفراغ أثناء الثورة، لكن الضربة القاصمة السريعة قد قضت على الشر، وأعادت إلى المدينة وجهها الهادىء، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

وتذكرت هيلدا ديبوي من جديد وقالت:

- إن قتل ديبوي لم يؤثر في نفسي، لم يختلف الوضع، كانت حياته تعذبني، وأصبح موته لا يفرحني.. كل شيء كما هو، ومع ذلك فإن ديبوي باختصار، ما هو إلا عنوان لقصة مبتذلة.. أنا وأنت وهو شخصيات تعسة فيها.. والحقيقة يا أبي أن ما أشعر به غريب غاية الغرابة.. تصوَّر أنني أفكر في الماضي بإلحاح.. لقد كنت آنذاك سعيدة.. كان بيتنا متواضعاً، وكان حانوت الزجاجات الذي نبيع فيه يدرُّ علينا بعض الدخل الإضافي.. وكنا مندمجين مع طوائف ليست من علية القوم على أية حال.. أما اليوم فها هو القصر والحرس ومنصبك الضخم والسلطة والمال

والفرنسيون.. ومع ذلك فإن هيلدا اليوم أتعس كثيراً من هيلدا بنت فرط الرمان.. هيلدا الأمس كانت مرحة طروباً لا تعرف القلق ولا الخمر أو الأرق.. صدِّقني يا أبي، لو خُيِّرت بين اليوم والأمس لأخترتُ الأمس...

كان أبوها ينظر إليها في دهشة، كان على النقيض منها تماماً.. لكَم تمنى أن يبصق على الماضي بكل ما فيه، أن يدوس الذكريات المُرَّة، ويسحقها دون رحمة كما يسحق الرؤوس المتمردة، ولو خطر بباله أن يكون على غرار فتاته في التفكير، لأصابه الجنون...

قال برتلمي مخاطباً ابنته:

ـ أنتِ حالمة..

ـ هذا ما أحسه دون زيف..

ـ ليس الأمر مجرد إحساس، يجب أن تفكري.

ـ كلما فكرت زاد إيماني بإحساساتي القلبية، وزادت تعاستي، ولهذا أحاول أن أهرب.. أن أنسى.. لقد علمتني يا أبي كيف أغرق أساي وأحزاني في كأس الخمر.. أتعرف أن مالوس هو الآخر لا يختلف عن كأس الخمر؟.. إن هذه المحاولات تجعلني أعبر رؤى حالمة هادئة بعض الشيء، وإن انتابتها الوساوس والغيوم...

قال متضاحكاً:

ـ يا لكِ من قاسية يا هيلدا.. وإنما تنسين واجبك كربَّة بيت نحو أبيها المرهق المتعب.. أريد كثيراً من الطعام والشراب...

١٧

لقد توقفت المقاومة، وعـاد الجرحى والمغلوبون على أمرهم إلى دورهم يضمدون جراحهم، واجتاح المدينـة رعب «ما بعـد المعركة»، لعله في كثيرٍ من الأحيان أقسى من المعركة نفسهـا، إن الغالب في تلك الأوقات يملي إرادتـه، وينكل بـأعدائـه وقد صمتت مقاومتهم، والأنباء تسري في كل مكان:

برتلمي يسوق الناس إلى السجون..

برتلمي ورجال العسس يذيقون الثوار ألوان العذاب..

برتلمي ينفذ أحكام الإعدام بنفسه.. حتى في النساء!..

وحيّ بـولاق يرقـد على شاطيء النيـل ينزف دمـاً وعذابـاً..

والحـاج مصطفى البشتيلي قـد اختفى عـن العيون داخـل بيته، فاطمأن قلب زوجه، وخاصة بعد أن عاد الحسين هو الآخر دون أن يُصاب بغير خدوش قليلة في بدنه لا خوف منها البتة.. وكان معنى هذه الجروح خـطيراً غـاية الخـطورة.. إنها دليـل الإدانة والإشتراك في الثورة.. ومن ثم أصرَّت أمه على أن يـرحل إلى بيت عمومته في قرية بشتيل بالجيزة، حتى تلتئم جروحه ويفلت من غضب برتلمي ورجاله الذين لا يـرحمون. ولم يجـد الحاج مصطفى بُدّاً من الموافقة، لقد علمته الأيام والأحداث أن الحيطة واجبة في مثل هذه الظروف.. وتنهدت الأم في ارتياحٍ بعد أن عبر الحسين النيل إلى بشتيل، لكن ارتياحها قد انقلب إلى قلق بالغ، وهي تسمـع الأحذيـة الثقيلة تدقُّ بـاب بيتها في عنف.

وتمتم الحاج مصطفى:

ـ لقد جاؤوا.

هتفت الزوجة وقد شحب وجهها:

ـ مَن تقصد؟

سدَّد إليها نظرات لا تطرف وقال:

ـ أنتِ تعرفين.. برتلمي ورجاله..

ودقَّت على صدرها مرتاعة:

ـ مستحيل أن يحدث ذلك!..

وتوالت الطرقات العنيفة، وانفجرت زينب باكية، وقد انتابها الإنهيار العصبي، وخطا الحاج في صمتٍ وإصرار نحو باب البيت، وفتحه.. الوجوه الخائنة اللعينة ترمقه في ريبة، والحقد ينطلق مع شعاع النظرات الآثم.. وامتدَّت يد لتمسك بخناقه وتجرّه في غلظة، الحاج يبتسم ابتسامة شاحبة حزينة، تنبي عن العجز الفاضح، عن مأساة الإنسان الحرّ يتجرَّع كأس الذلّ والهوان، وتمتم الحاج:

ـ لا داعي لكل هذا.. إني آتٍ معكم.

ـ ستساق كالكلب الحقير!..

لم يعلِّق الحاج بشيءٍ، وما جدوى الردّ؟؟ المنتصر يضع الصفات والأحكام حسبما يرى ويلصقها بالمغلوبين، والمغلوبون لا بد أن يكونوا حقراء أذلّاء خونة، والمنتصرون هم دائماً الشرفاء الفضلاء العادلون... إن كلماتهم وأحكامهم مقدسة لا تشوبها شائبة.. ورنت على قفاه صفعة لم يشعر لها بألمٍ جسماني، وإن شعر بها كخنجر مسموم يخترق قلبه الكبير، وركلة أخرى أصابت

بطنه، فشعر بدوار،كاد يسقط، لكن قدميه تسيران بقدرة قادر، لم يسقط، إن قلبه يدق بسرعة، ووعيه الكامل يعود. . إن كثيرين يهرولون في الشارع تحت سياط العسس وكلماتهم البذيئة، وبرتلمي يتقدم الموكب، والعيون الفضولية تتحسس الطريق إليه في وجل، ويُساق الحاج مصطفى لينضم إلى طابور طويل موثوق بالحبال، ويستدير برتلمي، ثم يرفع سوطه إلى أعلى ويهوي على وجه الحاج مصطفى، ويصرخ بلكنته المقيتة التي يعرفها أهل القاهرة:

ـ أنت أحد المتمردين الحقراء. . هذا ما يبدو على وجهك.

ويهمس الناس في الشارع الكبير: «فرط الرمان يضرب الحاج مصطفى. . للمهانة!! مسكين إنه رجل إحسان وعطف ومروءة. . لكنها إرادة الله. . نحن في آخر الزمان، لقد ذهبت أيام الفضيلة والكرامة». . .

وتثور الدماء في رأس الحاج مصطفى، ويكاد يعجز عن رؤية أي شيء أمامه، ستار أحمر يقف حائلاً بينه وبين المشهد المؤلم، هذا الستار لا وجود له أمام الناس بالتأكيد، لكن الحاج مصطفى يراه. . ويتنهد الحاج في أسى، ويمضي في الطابور الذليل رافعاً رأسه قدر ما يستطيع، لكن كلمات حلوة تنسكب على قلبه المشتعل «كل شيء يهون في سبيل الله. . كل شيء يهون من أجل الوطن وحرماته. . الصبر طيب يا فرط الرمان».

كان الطريق إلى القلعة شاقاً مريراً طويلاً، الناس في الطرقات

يرون الموكب الذليل، فمنهم مَن يفرّ، ومنهم مَن يذرف الدموع، ومنهم مَن يدقّ الأرض بعنفٍ معلناً إحتجاجه العاجز. . والنسوة في النوافذ والمشربيات قد تقرحت جفونهن لهول ما يرَينَ كل ساعة، والحاج مصطفى يلهث ويجري تحت السياط الحارقة، والوجوه اللعينة في كل مكان، والمدافع منصوبة موجهة إلى ضمير الإنسان وشرفه. . ولدى باب السجن الكبير حطّ الموكب التعس رحاله. . . شباب وشيوخ ونساء. . . وعندما دلف الحاج إلى الداخل، غمرته سكينة من نوعٍ غريب، لقد قال لنفسه:

ـ «الأمر أهون مما يتصورون. . ما العمر؟؟ إنه حيِّز زمني محدود. . له نهاية، لا يوجد فرق كبير بين أن تكون النهاية اليوم أو غداً. . لقد استطعت أن أؤدِّي بعض الواجب، ولا شيء يقلقني سوى أن هؤلاء الأوغاد ما زالوا يتحكمون في مصائر العباد، لكني واثق أن ذلك لن يطول أمده». . .

●

كانت الزنزانة التي أدخلوه فيها شبه مظلمة، تفوح منها رائحة منفرة، يسكنها تسعة من الرجال، على الرغم من أنها لا تتسّع لغير ثلاثة، وتكوّم الرجال التسعة متلاصقين، إنهم في أواخر شهر أكتوبر، ومع ذلك فالحرّ شديد، والأنفاس تكاد تختنق، والظمأ يكاد يقتلهم، هنا لا شيء اسمه الإنسان، كل القيم الكبيرة العريقة تذبل وتحتضر، والناس لا يُنظر إليهم في مثل هذا المكان إلا كحيوانات لا قيمة لها، ولا فائدة منها، ولا يُنادى على أحدٍ

باسمه إلا في الأوقات العصيبة. . وقال أحد التعساء:

- أيها الرجال. . إننا هنا لا نستطيع أن ننام أو نقضي حاجتنا. . لم أكن أتصور أن هناك شيئاً ألعن من الموت، وها أنا أراه. . أيمكن أن نبقى هكذا طويلاً؟. .

ولم يكد ينتهي من كلامه حتى فُتح الباب، وكان قد مضى عليهم في هذا الجحر أكثر من خمسة عشرة ساعة، وصاح أحد رجال برتلمي:

- هذا هو طعامكم. . .

كمية لا بأس بها من كسرات الخبز، إنها بقايا طعام الجنود، فتلقفها الرجال ثم وضعوها في كومةٍ بينهم، وامتدت أيديهم الكثيرة تتناول لقيمات تسدُّ الجوع القاتل. . وعاد أحد الرجال يقول:

- لا أستطيع أن أبتلع الطعام. . نحن في حاجةٍ إلى ماء. . أنا لا أطيق هذا العذاب. . لا بد أن أدق باب الزنزانة ليحضروا لنا ماء. .

قال آخر:

- إنك تقدم على عملٍ طائشٍ قد يكون سيء العاقبة. .

فلم يلتفت إلى كلامه، وأخذ يشقُّ طريقه بصعوبةٍ نحو الباب المغلق، وقبل أن يهوي بقبضته على الباب، تناهى إلى أسماعهم صوت إستغاثة وضراعة، وتسمَّر الجميع في أماكنهم، وتمتم الحاج مصطفى:

- ما هذا؟؟

قال أحد الرجال الذين مضى عليهم في الزنزانة ثلاثة أيام:

ـ لقد بدأت حصة العذاب الرهيب.. لا بد أن يحصلوا على اعترافات، وليس لـديهم وسيلة سوى السيـاط وانتزاع الأظـافر، وحرق الأبدان بأسياخٍ من الحديد المحمّى.. إن برتلمي يتفنن في اختيار أبشع ألوان العذاب.

قال الحاج مصطفى:

ـ أية إعترافات؟؟

ـ إنهم يسألون عن زعماء الثورة.. عن السلاح.. عن الأموال المخبأة.. عن الإتصالات الجارية بين الثوار وأعداء فـرنسا في الخارج.. يريدون أن يعرفوا أشياء كثـيرة...

وعـلا الصياح والإستغـاثة مـرة أخرى، فتـوقفـوا عن الكـلام والطعام وطلب المـاء، وصاح أحـد الرجـال في حالـةٍ هستيريـة وبصوتٍ جريحٍ متمرد:

ـ أين الله؟؟

وهتف الحاج مصطفى:

ـ أستغفر الله.. وهل لنا غيره في هذه الأوقات العصيبة؟؟

ومضى الرجل الأول يقول:

ـ ولماذا يتركنـا هكذا؟؟ وهـل من الضروري أن نقـاسي هذا العـذاب على أيدي هؤلاء الكفـرة؟؟ وأين العدل؟؟ ألسنـا على حق؟؟ فلمَ لا ينصرنا؟؟

وخطا الحاج مصطفى نحوه وأمسك بيده وصاح:

ـ كف عن هذا الهراء يا رجل، إنك تكاد تفقد إيمانك وتصبح

مثلهم. . أنسيت؟؟ تذكر ما قاساه صحابة الرسول ﷺ من بطش وتعذيب وقتل، ألم يكن في قدرة الله أن ينجيهم من هذا الشقاء كله؟؟ إن بعض الأنبياء قد قُتلوا.

وترك الحاج مصطفى يده، ثم قال والدموع تترقرق في عينيه:

ـ إن لكل شيءٍ ثمناً، وثمن الحرية ما تراه في هذه الأيام العصيبة. .

وإنهار الرجل باكياً وهو يقول:

ـ ليت هذه السياط كانت على جسدي أنا. . إنني أتعذب أكثر مما يتعذب هؤلاء المساكين في الخارج. .

وفتح الباب فجأة، وصاح شرطي أرمني التحق بخدمة الغزاة:

ـ هاكم دلواً من الماء، وآخر لتقضوا فيه حاجتكم. . يجب أن تسرعوا وتنتهوا من كل شيء. . النوم ممنوع. . قد تُطلَبون للإستجواب في أية لحظة، وليس لدينا وقت لإيقاظ أحد. . مفهوم؟. .

ولم يجيبوا على أوامره بغير الصمت الذاهل. .

وبعد ساعة فُتح الباب مرة أخرى، ثم قذفوا برجلٍ يئنُّ وسط الظلام، لم يكن هناك مكان لمجرد الجلوس، وتحسّسه أحد الجالسين:

ـ مَن أنت؟؟

قال وهو يتأوه:

ـ لا تلمسوا جسدي. . هل عندكم ماء؟؟

وارتشف جرعات من سطل صغير، وتمتم:

ـ أشعر أنها النهاية . .

قال الحاج مصطفى :

ـ ماذا بك؟؟

ـ ليس في بدني شبر إلا وفيه ضربة سوط . . إن جلدي ينزف دماً .

ـ لماذا؟؟

قال وهو يئنّ :

ـ وأنتم؟؟ لماذا أتوا بكم؟؟ نفس السبب . . تصوّروا . . إن برتلمي قطع الليلة رؤوس إثني عشر رجلاً، ثم وضعهم في زكائب، وأصدر أوامره بقذفهم في النيل . . أليس هؤلاء الضحايا أسعد حالاً مني؟ . . إن الشيء الوحيد الذي يعذبني هو أنني أموت هكذا ببطءٍ وتحت أبشع أنواع الإنتقام . . صدِّقوني . إن أعظم شيءٍ هو أن أن يموت الإنسان في ميدان المعركة . . لماذا لم نقاوم حتى آخر رجل؟؟ أرجوكم . . مزيداً من الماء . . إن جوفي يحترق . . لا أستطيع الكلام أو الحركة . . قرِّبوا الماء من فمي . . .

وتسابقت الأيدي باحثةً عن بقايا الماء وسط الظلام الذي يلفُّ الزنزانة الكئيبة . . وتمتم الحاج مصطفى :

ـ خذ الماء . .

لكن الرجل لم يحرِّك ساكناً . .

ثم عاد فقال له :

ـ قلت لك . . ها هو الماء . . حسناً . . لسوف أضعه على

فمك. .

وفتح الرجل فمه بصعوبة، ووضع الحاج السطل على فمه، لكن الماء كان يتسرب من زاويتي فمه. . .

ودقق الحاج مصطفى النظر في وجهه وقد اقترب منه وتمتم :

ـ ما اسمك؟؟ ومن أي حيّ من أحياء القاهرة؟؟

لم يردّ. . فلمس الحاج جبهته، وتحسَّس نبضه وصدره، ثم قال والدموع تتساقط فوق خدَّيه :

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله. . لقد أسلم الروح». .

وامتزج نشيج الرجال التسعة الخافت. . وساد السكون الأسود ترنيمة حزينة تتغلغل في الأعماق. . .

١٨

أليس من المضحك والمحزن معاً، ألا يستطيع البشتيلي أن يجد بضعة أشبار كافية لجسمه حتى يستطيع النوم؟. .

وتذكّر بيته الواسع الكبير، وحجرة الضيوف والاستقبال، وحجرات الخدم، وعشش الدواجن، وشاطىء النيل في بولاق حيث الهواء المنعش، والناس يروحون ويجيئون، والأفق الأزرق ممتد رحب ينعكس على الروح بالسكون والدعة والروعة، وبعض الفقراء يتوسدون التراب على الأرصفة تحت ضوء القمر. . تذكر كل ذلك، ثم عاد إلى الزنزانة الضيقة المعتمة والرجال الثمانية، والنوم يداعب أجفانهم وهم جلوس، ورائحة

العرق والعطن وبقايا المخلفات الآدمية بـالدلـو الموضـوع لصق الباب، كلها تختلط وتثير التقزز والغثيان. وأخيراً قال البشتيلي:

ـ أيها الرجـال. . إنها ظـروف صعبة قـاسية تلك التي نـوجد فيها، ومع ذلك فمن الضروري أن نكيّف أنفسنا حسب الوضـع الراهن. . لنحاول النوم في أوضاع متضادة بحيث توازي رأسك قدميْ جارك، على ألا ينام أحد على ظهره بل على جنبه، حتى تتوفر مساحة كافية لنوم أكبر عدد ممكن، وأعتقد أن المكان يكفي سبعـة على جنوبهم، أمـا الاثنان فيمكنهمـا أن ينامـا جـالسين، ولسوف يتناوب الباقون معهم النوم جلوساً كل ساعتين.

ثم حاولوا النوم حسبما رسم البشتيلي، وبقي هو جالساً يفكر، لم يكن يتصور أن يتحجر قلب الإنسان، ويبلغ هذه الدرجة من القسـوة مهما كـان الأمر، وتسـاءل: أيستطيـع الفرنسيـون بهـذه الـطريقة أن يحققـوا أغراضهم، ويقضـوا على مناوئيهم؟؟ إنهم يوغرون الصدور ويملأونهـا بمزيـدٍ من الأحقاد التي لا تمـوت، والعنف لا يولد سوى الكراهية، وإنْ أدّى إلى الاستسلام التام في الظاهر، والغريب أنهم قد يكونون دائبين على إصدار منشوراتهم الكاذبة التي تتحدث عن الحرية والإخاء والمساواة، وعن رغبتهم الأكيدة في تحرير المصريين من طغيـان المماليك وظلمهم. . . ولا شـك أن أعضـاء الـديـوان مـا زالـوا يجتمعـون ويصـدرون القـرارات، ويوقعـون المنشورات، ويـدعون النـاس إلى الهدوء والسكينة وإطاعة أُولي الأمر. . . يا لها من طريقةٍ خبيثـةٍ ينفذهـا نابليون!! إنه لا يستطيع أن يُحيل الشعب إلى أصدقاء لـه، ولن

يكون الخضوع له إلا لوناً من الخوف المؤقت يخفي تحت طيَّاته ثورة عارمة تنطلق دائماً في الوقت المناسب.

وتلفَّت البشتيلي حواليه، لقد نام الرجال برغم الظروف القاسية، إنهم لم يتذوقوا النوم منذ عشرات الساعات، وها هم يستسلمون لسلطان الكرى على الرغم منهم، وبعضهم يهذي ويتكلم بصوتٍ مرتفعٍ وهو نائم، كلمات متناثرة تنطلق من أفواه بعض النائمين: «أنا مظلوم.. لم أفعل شيئاً... عيب يا سعاد.. إسمعي كلام أُمك.. أعطني قلة الماء البارد، إن زوري يكاد يحترق.. أنا لا أخدعك يا صاحبي.. الثمن كما قلت لك.. إنه محدد في الغورية والفحامين وبولاق، وهو يكاد يكون ثمنه الأصلي... آه.. إنهم يقتلون الناس في الأزهر.. ويربطون خيولهم في القبلة»...

وشعر الحاج مصطفى بالضيق يعاوده من جديد، وعلى الرغم منه أخذ يتذكر صديقه التاجر المهاجر أحمد المدبولي، إنه يعيش الآن في يافا ببلاد الشام، معه المال الذي يكفيه، ينعم بهدوء البال والراحة، تفصله مئات الأميال عن عناء القاهرة وعذاباتها، لشدّ ما قسا على صديقه عندما هاجر، واتهمه بالجبن والنذالة، إن الحاج مصطفى يتمنى أن لو كان الآن في يافا، وأنه يحاول أن يحشد جيشاً من العرب والمسلمين المقيمين والنازحين، ثم يهاجم مصر من الشرق ليخلصها من طغيان الفرنسيين، وماذا كان عيب الهجرة، وخاصة بعد أن ضاقت السبل، وحلّت الهزيمة، وتمكن الأعداء من رقاب العباد؟؟ لكن الحاج مصطفى

يستدرك، ويحرك رأسه في اعتراض وضيق، ويلعن وساوس الشيطان، ويستغفر الله، ويؤكد لنفسه أن ما قدِّر لا بد أن يكون، وأن إرادة الله فوق كل إرادة، وأنه لا يصح مطلقاً أن يحكم على مبادئه وتصرفاته كلها من خلال فترة عصيبة تعسة كتلك الفترة السوداء التي يحياها الآن، لأن أحكامه في مثل هذه الظروف لا شك ستكون واقعة تحت تأثير مؤقت عنيف، ينحرف بها نحو الشطط، ويفقدها صوابها ودقتها.. لكن الشعور الذي لم يستطع الحاج مصطفى أن يتخلص منه، هو أن الموت أهون من هذه المعاملة القاسية التي يلقاها الآن.

وتوقف عن الاستطراد في أفكاره، عندما صكت سمعه تلك الأصوات الضارعة التي تصرخ من شدة العذاب.. آه.. المأساة التي تسحق فؤاده وكبرياءه.. ورفع الرجال النائمون رؤوسهم فجأة، وعيونهم تدور في محاجرها تائهة قائلة:

- ماذا جرى؟؟

- ما يجري هنا عادة.. أنتم تعرفون.. إنه برتلمي وزبانية الجحيم ينصبون الموازين الجائرة ليفصلوا في مصائر العباد قبل اليوم الآخر..

قالها الحاج مصطفى البشتيلي، ثم خفض رأسه ليداري دموعه، لكن الحاج مصطفى بُهت عندما سمع أحد الرجال يقول:

- لم يكن هناك داعٍ لأن نحرِّض الناس على الثورة.. ها أنتم ترون النتيجة.. ألم نكن نعلم أن قوتنا دون قوة الفرنسيين

بكثير؟؟ أعترف أننا أخطأنا خطأ جسيماً، وأننا تسببنا للوطن في حلول كوارث محزنة.

وصرخ الحاج مصطفى بأعلى صوته:

- كفى.. إنك تتكلم بوحي من ضعفك وهزيمتك.

وصمت الرجل، بينما استطرد البشتيلي:

- ما هكذا يجب أن تناقش الأمور.. إن الباطل كان دائماً أقوى من الحق من حيث العدد والعدة، لكن النصر كان من نصيب أصحاب الحق، لأنهم يدافعون في استماتة عن شيء أصيل يؤمنون به، ولأن الله معهم.. هل نسيتم تاريخكم؟؟ كان الرسول وبضعة نفر يواجهون رجالات مكة وكبراءها، وكانوا يقاسون شتى صنوف العذاب.. وبعد سنوات قليلة كانت كلمة التوحيد، ونور الهداية ينشران أريجهما العطر فوق الجزيرة العربية والشام وفارس وجزء كبير من بلاد الرومان.. إن الهزيمة المؤقتة التي منينا بها ليس معناها الموت.. إنها حلقة واحدة من سلسلة طويلة من النضال من أجل الحق الصريح.. إن مَن قبلنا كانوا يُنشرون بالمناشير، ويُفصل لحمهم عن عظامهم، ويتعرضون لامتحانات رهيبة، لكنهم صبروا حتى جاء نصرُ الله.. «وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين»...

كانوا يستمعون إليه في خشوع، والدموع تترقرق في العيون، وروح الأمل البعيد تلمس قلوبهم المحترقة بنسمةٍ نورانية، فيلفهم جو من الطمأنينة والإيمان الرطب..

وعاد الحاج مصطفى يقول:

ـ ردِّدوا معي بصوتٍ خفيض: «لا إله إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين».. إنها الكلمات التي نادى بها «ذا النون» ربّه، وهو غارق في خضمٍّ الكرب العظيم، فنجّاه الله...

وأخذوا يتمتمون ساعة أو بعض الساعة، لم يتوقفوا برغم الصراخ والسياط القاسية التي تمزِّق الظهور العارية، وتبدِّد سكون الليل في القلعة الكبيرة ذات الأسرار الرهيبة...

١٩

قالت هيلدا مخاطبة الكابتن مالوس:

ـ أيها العزيز مالوس، إنني أشعر بضجرٍ قاتل.

أجابها قائلاً:

ـ أهو الأسف على ديبوي؟

رفعت إليه عينين عاتبتين وقالت:

ـ إن ديبوي حدث طارىء، قيمته الحقيقية تافهة، كعشرات الأحداث التي لا معنى يُذكر لها في حياة كل فرد.. إنه يثير حنقي وتقززي أكثرممايثير عطفي، والفترة التي قضيتها معه مرّت كحلمٍ سخيف، أنت تعرف ذلك يا مالوس..

وأطرقت برهة، ثم عادت تقول:

ـ إن مجرد ذكر اسمه يثير أعصابي، فلا داعي لأن أسمع اسمه مرة أخرى.

ـ تعرفين أن هذا يبهجني يا هيلدا العزيزة.

وشردت ببصرها إلى بعيد، ثم قالت في نبراتٍ حالمةٍ ذات رنّة

خاصة:

ـ أيحزنك أن أقول الحق؟

ـ لقد عاهدت نفسي أن يظلَّ قلبي وعقلي متفتحين لتلقي الحقيقة، لأن تجاهلها حماقة.

ـ رائع.. إن هناك رجلاً في حياتي لا أستطيع أن أنساه، على الرغم من أن أبي يؤكد لي أنه قد لقي حتفه في المعارك الأولى، وربما لا يؤذي شعورك أن أذكر بالخير رجلاً رحل إلى العالم الآخر.. إنه مجرد ذكرى، أتفهمني؟؟ كان إسمه «ابراهيم آغا» أحببته كما لم أحب أحداً من قبل، كان حبه لي مجرَّداً من كل معنى دنيء.. ربما تسمي هذا حباً خيالياً أو رومانسياً كما تزعم، لكنني واثقة أنني أعبر عن حقيقة شعوري.. إن حياتي معه تبدو الآن وكأنها رؤى حلوة باهرة...

قال مالوس مندهشاً:

ـ من الغريب أن تنطقي بمثل هذه الأحاديث بعد أن قضينا منذ ساعة لحظات من أحلى أيام عمرنا، كنت أعتقد أنني أخلص وأحب إنسان إلى قلبك، هذا ما أستشعره من معاملتك وكلماتك التي ترسخ في ذهني، وأظل أتذكرها طوال الليل والنهار، حسبتني أنسب بديل لمثل هذا الرجل.

قالت في ثقة:

ـ لا يمكن أن يكون البديل صورة طبق الأصل.

ـ هذا معنى عميق يستحق التصديق والاحترام، لكن لماذا كان ابراهيم على تلك الصورة الحالمة؟

قالت وهي تتنهد:

ـ هذا ما لا أستطيع تفسيره، كان ابراهيم حقيقة مشرقة ملأت كياني كله وروحي، كيف؟ لا أدري، لماذا؟ لا أدري..

ولمحت هيلدا سحابات من ضيق تغشي وجه مالوس، لقد زعم أنه متفتح العقل والقلب، وأن الحقيقة لا تزعجه، لكنها ترى الآن أن الغيرة أقوى من الحقيقة، وأن منطق العاطفة أقوى بكثير من منطق العقل، وخاصة في مثل تلك الظروف، وخلال سنيّ العمر الوهاجة بالعواطف والانفعالات، وتمتمت:

ـ هل تضايقت؟

قال وهو يزفر:

ـ ربما، إنها كبرياء الرجل.. أنت تدركين ذلك لا شك.

ـ لكن ابراهيم مات وانتهى أمره.

ـ الأشياء التي تتحدثين عنها يا هيلدا لا تموت، إنني لا أعرف ابراهيم هذا، لكنني متيقن أن صورته الغامضة ستلاحقني في يقظتي ومنامي، ستظل تطفىء من حماسة حبي المشتعل، أيمكن أن أنسى أو أتجاهل صورة رجل له هذه المكانة المقدسة في قلبك؟؟ ومع ذلك فإن الأمر ليس له علاج حاسم سريع.. إنه متروك للزمن والتجارب.

ابتسمت هيلدا وقالت:

ـ لقد استنتجت حقيقة جميلة.

ـ ما هي؟

ـ إنك تحبني وتغار عليّ في عنفٍ بالغ..

فطوَّقها بذراعيه وهو يقول:

ـ أتشكّين في هذا لحظة يا حبيبتي؟

ـ كنت أعتقد أنكم معشر الفرنسيين لا تفكرون في غير اللذات العابرة، لأن القسوة التي تعاملون بها المواطنين هنا، جعلتني أؤمن بأنكم تختطفون كل شيء اختطافاً حتى تهرولوا إلى غيره، إن ما يسعدكم هو أن تروا مظاهر الاستسلام تحت ضرباتكم العنيفة.

قال مالوس:

ـ قد تعيدين التفكير في النتائج والأحكام التي توصلتِ إليها، لو نظرت إلى وضعي ووجدتني أنا المستسلم استسلاماً تاماً لكِ يا هيلدا.. ثم طبع على شفتيها قبلة طويلة..

قالت في أدب:

ـ آن أن تنصرف، فإن أبي على وشك الحضور.

ـ وهل يضايقه أن يجدني هنا؟

ـ على الأقل من الناحية الشكلية.. إنها مجرد تقاليد يجب أن تُراعى.

قال مالوس:

ـ إن أمامي بعض الوقت، الغريب أنكِ تتهمينني بالتقصير في الحضور، وتشكين من الفراغ القاتل الذي تعانين منه، ثم تأتين الآن وتطلبين مني أن أنصرف.. إن اللهفة التي تستقبلينني بها تختلف كثيراً عن الفتور الذي تودعينني به.

ـ حسناً.. فلتبقَ كما تشاء..

ولم تكد تكمل عبارتها حتى دقَّ الباب. .

قالت هيلدا:

- ألم أقــل لــك؟ لقــد أتى أبي. . ألا تشعــر الآن بـبعض الحرج؟. .

قال وهو يلِّم شعثه:

- أنتِ على حق. . .

دخـل برتلمي وانصـرف مـالـوس. . وألقى بـرتلمي بجسـده المتعب فـوق أقرب مقعـد، كان حـائراً بين رغبتـه الشديـدة في النوم، وشوقه الجارف للطعام. . وقالت هيلدا:

- ما معنى أن تخرج في العصـر ولا تعود إلا في صبـاح اليوم التـالي لتنام؟ أيمكن أن تمضي الأمـور على هذه الـوتيرة؟ إنني أقاسي من ملل قاتل، وأنت لا تكاد تشعر بما أعانيه.

- وماذا أفعل في المهمة الصعبة الموكولة إليّ؟

- أية مهمة، بعد أن انتهت الثورة وعاد السكون؟

قال برتلمي ساخراً:

- انتهت الثورة؟ يا له من حلم!. . لقد نشبت من جـديد في أقاصي الصعيد والوجه البحري، وصدق صديقنا الفرنسي «ريبو» الـذي يقول في أحد مقالاته: «كان الجنود يعملون علـى إخمـاد الثورة بإطـلاق الرصاص على الفلاحين، وفرض الغرامات على البلاد، لكن الثورة كانت كحيَّة ذات مائة رأس، كلمـا أخمدهـا السيف والنار في ناحية، ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كـانت، فكأنهـا تعـظم ويتسـع مـداهـا، كلمـا ارتحلت من بلدٍ

لآخر». . هذا ما قاله ريبو الذكي. . والحقيقة أن دوري هنا في القاهرة له طبيعة أخرى، إنني كقائد لرجال العسس ذو مسؤولية مضاعفة. . فأنا أقضي الليل بطوله في القلعة.

قالت هيلدا:

ـ القلعة؟!

ـ أجل. . السجن. . الجميع يعرفون ذلك، إنني أقوم باستجواب الثوار وتأديبهم وكشف خططهم، وقتلهم إذا اقتضى الأمر.

قالت متأففة:

ـ إنه شيء رهيب!. . .

ـ ليكن، إن تصفية جيوب المقاومة أمر لا مفر منه، وإلا ضعنا، وهو إجراء عادي إبان الحروب والأزمات. . إن رقة قلبك يا هيلدا تجعل على عينيكِ غشاوة تحجب عنكِ ما يجب إدراكه، أتظنين أنه في الإمكان أن نستقبل الثوار كما نستقبل الشرفاء والنبلاء؟ وماذا نحصل منهم بعد ذلك؟. . إننا ننتزع أظافرهم فلا يتكلمون، ونمزِّق أجسادهم بالسياط فلا يجيبون بغير الأنين، ونسمل عيونهم، ونقطع ألسنتهم فيصمدون بطريقةٍ تحنقني. . ماذا يريد هؤلاء الأغبياء؟ إنهم كمجموعة من الثيران الهزيلة تحاول أن تنطح جبل المقطم كي تزحزحه من مكانه. . .

قالت هيلدا، وقد اقشعرَّ بدنها:

ـ أبي. . دع هذا الحديث، وقل لي كيف أعيش وحدي في هذا القصر الواسع؟. . لا بد من حلّ.

ابتسم في وهن:

- اطمئني.. لن تكوني وحدك بعد اليوم.

- ماذا تعني؟

- لسوف تأتي امرأة أخرى تعيش معنا.

قالت في اهتمام:

- أتتزوج؟

- ليس هذا على وجه الدقة، ولكنه شيء قريب منه.. إنها مجرد صديقة مؤقتة، لأن الزواج يحتاج إلى وقت وتدبر واختيار سليم.

هزّت رأسها وقد فهمت كل شيء.. ستنضم إلى الأسرة «داعرة» ترفه عن أبيها. ماذا جرى للدنيا؟.. كل شيء يتحوّل، كثير من القِيَم تُداس بالنعال القذرة، حماقات تُرتكب دون وازع من خُلق أو ضمير، الجرائم تُرتكب ببساطة، وأنا - هيلدا الطاهرة - أمضي في الموكب الآثم دون إرادة أو عزيمة، كلنا نسير في القافلة التعسة، فلا نكاد نفيق لنتوقف أو نغيِّر وجهتنا، أو حتى نُبدي قليلاً من الندم... لقد انتهت أيام زمان الرائعة «يا بنت فرط الرمان يا حلوة»...

٢٥

جلس «برتلمي» منتفش الشعر، جرت الخمرة في دمه فبعثت الاحمرار في وجهه، والنزوة في عينيه، والغرور والقسوة في قلبه. وكان جلوسه في سجن القلعة ومن حوله عدد من الضباط والجنود غالبيتهم من الأروام، وعدد قليل من الفرنسيين..

وكانت الأضواء الباهرة تفيض على المكان، وتبدد ظلمة الليل الحالك، وقال برتلمي لمن حوله:

ـ أعتقد أننا قد نفذنا حكم الإعدام في أكثر من ثمانين زعيماً من زعماء الثورة، أقطع الرأس، فتذبل الأطراف وتموت، كان هذا هو رأيي دائماً، ومن حسن الحظ أن ساري عسكر نابليون قد اقتنع به، أما باقي المسجونين فقد استطعنا أن نذيقهم ألواناً من العذاب البدني والنفسي، فتحطم كبرياؤهم، وحلّ اليأس والذلّ في قلوبهم.

ثم دار بأنفه يميناً ويساراً كذئب مفترس، وقال:

ـ إن رائحة القلعة لا تُطاق، هؤلاء الأوباش المعتقلون أصبحت رائحتهم منتنة تثير التقزز..

وصمت برهة، ونظر إلى أحد الضباط الأرمن وقال:

ـ يعقوب..

ـ نعم سيدي..

ـ هناك لعبة يحلو لي أن أمارسها دائماً.

ـ الشطرنج؟..

قهقه برتلمي ساخراً:

ـ أيها الساذج، أنا لا أطيق التفكير الطويل المملّ، ولا الجلوس لساعات طويلة، إنني أتصرف بيدي وقلبي أكثر مما أتصرف بعقلي، وأقدّس الآراء السريعة الحاسمة، التفكير الطويل، ودراسة الأشياء الدقيقة، والاهتمام بالتوافه يأخذ بيد الإنسان إلى التيه والعقم والتردد. أتفهمني؟

قال يعقوب:

ـ تحت أمرك يا سيدي.

ـ حسناً. . أريد أن تجمع لي عشرين رجلاً من عظماء القوم من بين هؤلاء المعتقلين. .

ردَّ يعقوب بسرعة:

ـ فهمت يا سيدي، ونحضرهم لك لنقطع رؤوسهم، ثم نضعهم في زكائب ونقذف بهم في النيل.

وعاد برتلمي يقهقه من جديد:

ـ أيها الأبله، لقد سئمت هذه اللعبة. . أريد أن تجمعهم هنا لأكلمهم.

همس يعقوب في دهشة:

ـ تكلمهم؟! أتعني التحقيق معهم وتعذيبهم.

ـ لا أقصد ذلك. . أنت ترى أن المعتقل قد أصبح قذراً، ورائحة القلعة لا تُطاق، وأعتقد أن هؤلاء العشرين، إذا ما خلعوا أحذيتهم وشمَّروا عن سواعدهم، فلسوف يحسنون نظافة الأرض، وغسل الأبواب والنوافذ، وإزالة المخلفات الآدمية بطريقةٍ نظيفة. . يجب أن يمارسوا عمل الخدم لفترةٍ من حياتهم، حتى تتهذب نفوسهم، وترقّ حاشيتهم. . جهِّز لكل واحدٍ منهم مكنسة وقطعة من الخيش ودلواً جميلاً. .

دقَّ يعقوب الأرض بقدمه، وأدّى التحية العسكرية قائلاً:

ـ أمر سيدي. . وأنا أفهم الباقي. . أعني يجب أن يتحركوا بسرعة، ومَن يشمئز أو يتوانى فالسياط كفيلة بتنشيطه.

تنهد برتلمي في ارتياحٍ وقال:

ـ لتجمع لي الرجال العشرين بسرعة. . .

●

أسرع الضابط بالمرور على مختلف الزنزانات والعنابر. . كان يسأل كل واحدٍ عن عمله ومركزه واسمه، والحيّ الذي يقطن فيه، أو البلد التي قَدِمَ منها. . ثم اختار في النهاية عشرين رجلاً أغلبهم من كبار التجار والعلماء ومشايخ الحرَف الشائعة، وكان من بينهم الحاج مصطفى البشتيلي. . وتراصّ الرجال العشرون أمام برتلمي الذي وقف مرفوع الهامة، واضعاً يديه في جيبيْ سترته، بارز الصدر وكأنه يتحدّى أكبر قوة في الوجود، ثم قال مخاطباً الرجال:

ـ أنتم تعرفون مَن أنا، إن كلمتي هنا هي القانون، لقد أعدمت الكثيرين منكم، لأن مَن يتحدّى إرادتي لا يستحق أن يعيش. . أعرف أن أغلبكم من علية القوم، وأن كل واحدٍ منكم يحتفظ بشجرة النسب في بيته، لكنها حماقة لا معنى لها. . إن رجلاً مثلي لا يُعرف له أب منذ الصغر، يستطيع أن يدوسكم ويدوس مجد آبائكم أيها الحقراء. . إن فرنسا قد انتصرت، وستوالي انتصاراتها حتى يدين لها العالم بالطاعة والولاء، ومَن يعتقد غير ذلك، فهو خائن أو مجنون أو مخدوع، والثلاثة أنواع لا معنى لوجودهم على قيد الحياة. . . أتمنى أن تغيروا أفكاركم، وتصححوا معتقداتكم، والدليل على ذلك، الدليل الذي أنتظره

منكم هو الطاعة، وتنفيذ الأوامر. . والآن عليكم أن تقوموا بتنظيف القلعة، وخدمة باقي المعتقلين والمسجونين والعساكر. . أتفهمون؟؟ والآن تستطيعون البدء في عملكم.

صُدم البشتيلي لأول وهلة، لكنه شعر بعد ذلك بفرحةٍ غامرة، لعل مصدرها إحساسه بأنه يؤدي عملاً طيباً من أجل مواطنيه المحبوسين، أو لعله أدرك أنه ضرب جديد من ضروب الصبر والجهاد في سبيل الله، ثم انه فتح صدره لهواء نوفمبر المنعش، برغم برودة الجو، وأخذ يستنشق ذلك الهواء في لذةٍ ونهم، لا شك أن خروجه للعمل بعيداً عن ضيق الزنزانة وظلامها وعفونتها يخفف بعض الشيء من عنت نفسه، وحرج صدره. . إن العمل الذي سيؤدّيه عمل محط في نظر برتلمي، لكنه عمل على أية حال، ويؤدّيه كثير من الناس، والبشتيلي لا يتميز عن باقي الناس بميزة، فالتفاضل بين الناس ـ كما علّمه الدين ـ لا يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح. . والنظافة وخدمة زملائه السجناء عمل صالح لا شك في ذلك. .

لكن الذي أحنقه أكثر، تلك الكلمات الشاذة الشرسة التي خرجت من فم برتلمي الملعون. . إنه يتكلم كإله، كسلطة عليا لا رادّ لمشيئتها. . إن مثل هذه الكلمات التي أطلقها برتلمي، لا عقاب لها سوى قطع رقبته أو تحطيم رأسه الخبيث، لكن ماذا يفعل وهو سجين عاجز مقهور؟. . ما أبشع أن يكون الإنسان الحر عاجزاً عن ردِّ الإهانة، وجدع أنف الطغاة المتهورين!. . لكن مَن يدري؟ ألا يمكن أن يكون يوم العقاب والثأر قد قرب؟

ثم إن الله سبحانه قادر على سحق أولئك الذين ينزعون إلى التألُّه والتجبُّر وإذلال الأبرياء من بني البشر. . .

أمسك الحاج بمكنسته، وأخذ يجلو الأقذار عن الأرض، كان يؤدِّي عمله في همة ونشاط ملحوظين. . وزينب الآن في البيت ببولاق، دامعة العين، تبكي فتاها الراحل، وتبكي أباها السجين، وتنظر إلى المستقبل بعين الخوف والقلق. . وولده الحسين يتميز غيظاً وألماً، وهو يفكر في أمر أبيه السجين ذي المصير المجهول. . وأُمهما تجلس كعادتها شاحبة الوجه، محتنقة العينين، واضعة خدّها على قبضتها المرتعشة، تفكر في وضع زوجها العنيد الذي طلّق حياة الدعة والراحة، ورفض الهجرة والنجاة بنفسه وبأسرته، وفضّل المشاق والمتاعب والمخاطر على كل ترف الدنيا وراحتها. . .

وزفر الحاج في ألم، ثم تمتم: «هيه. . دنيا». .

ولم يكد يرفع رأسه، حتى هوى على ظهره سوط من الخلف، وصوت أجش يصيح به:

ـ اشتغلْ يا كلب! . .

وكاد الحاج ينقضّ على الجندي الواقف خلفه تحت عتمة الليل، لكنه تماسك وابتسم في لذةٍ غريبةٍ وهو يقول: «حاضر». .

واستمر يعمل وقلبه يدق، وقطرات من العرق تتصبب على جبينه، برغم برودة الجو، وعاد يفكر «اشتغل يا كلب». . آه. . ما قيمة وجهة نظر الآخرين بالنسبة لي. . إنني أعرف مَن أنا، مجرد

جندي يخوض معركته الضارية ضد المعتدين، ومن ثم فإن ما يقوله برتلمي وزبانيته هراء، إنهم هم الحقراء أمام التاريخ وأمام الضمير الإنساني الحيّ. . وأمام الله. . أجل، إن وجهة نظر المنحرفين الطغاة لا قيمة لها، وإنما هي مجرد كلمات جوفاء تتلاشى في ليل القلعة البهيم. . .

٢١

لقد نال التعب منه كل منال، وأرهقه طول السفر، ولفحت السمرة وجهه الذابل النحيل الذي يدلُّ على أن صاحبه قد أبل لتوِّه من داء عضال، ودخل القاهرة قبيل المغرب، القاهرة «يا مدينتي الرائعة». . هكذا تمتم الضابط «ابراهيم آغا» وهو يلثم بنظراته المكدودة كل مظاهر الحياة في الشوارع الكبيرة. . الناس. . والحيوانات والمباني والأرض والسماء. . ما أشد الفارق بين حياة الكرّ والفرّ والتهلكة في أعماق الصعيد وجباله ووديانه، وبين مدينته الحبيبة القاهرة بكل ما فيها من ذكريات وأمجاد وأحلام وردية. . لكنه ـ للأسف ـ يتسلل عبر الشوارع كلصّ هارب، عيناه تتأرجحان في خوفٍ وقلق، هو يعلم أن عيون العسس في كل مكان، وأن مصير أي واحد من المماليك في القاهرة هو الإعدام، وأن مصير كل مَن يتستر على مملوك أو يؤويه مصير قاسٍ لا رحمة فيه، يا لها من ليالٍ قاسية تلك التي عاشها «ابراهيم آغا» مع «مراد بك» ورجاله في الصعيد!! إن «ديزيه» أحد القواد الفرنسيين الكبار، يطارد مراد ورجاله من مكان إلى مكان، ويضيق عليهم الخناق، ويضرب

عليهم بقسوة. . وعلى الرغم من المآزق التي يتعرض لها «ديزيه»، والكمائن التي ينصبها له أبناء مصر البواسل في قرى الصعيد ومدنها ونجوعها، إلا أنه يتقدم، مستهيناً بالتضحيات، متخطياً كل العقبات، حتى تتحقق للفرنسيين السيادة الكاملة على الوجه القبلي، هكذا كانت أوامر نابليون الصريحة. . ومع أن خطوط تمرين «ديزيه»، سواء في البر أو النهر، تتعرض لهجمات رجال المقاومة المصريين، ويتكبد بسبب ذلك الخسائر الفادحة، إلا أنه يسلك كل السبل، ويستعمل العنف البالغ في أغلب الأحيان، حتى يقضي على المقاومة، ويحصل على المؤن، ويؤمّن الطريق لقواته. . .

●

تُرى ما مصير هيلدا الآن؟ وكيف حالها؟. . إن إسم أباها يتردد على كل لسان، أصبح برتلمي شخصية رهيبة تشيع الرعب والكراهية في كل الأنحاء، ونال من المجد الملوّث بالدم ما لم يكن يحلم به قط، فهل ترك هذا كله أثراً على شخصية «هيلدا بنت فرط الرمان الحلوة»؟. . وأياً كان الأمر، فإن ابراهيم يتحرق شوقاً لرؤية هيلدا، فهو يتذكر الأيام الجميلة التي قضياها معاً، ويتذكر عهود الحب والوفاء والأمنيات الجميلة التي رتعا في جناتها ردحاً من الزمن، لسوف يبحث عن هيلدا. . لعلها تكون المأوى الوحيد الآن الذي يلجأ اليه في هذا الجو المضطرب الآسن ، ولا شك أن حب أبيها لها وتأثيرها عليه ، سوف يضمن لابراهيم

السلامة ، لأن ابراهيم لو ذهب إلى أحد أصدقائه القدامى من المصريين أو الأتراك ، فربما يسلمه لحبل الجلاد ، أو لسيف العسس ، فيقضي عليه قبل أن تعلم هيلدا بأمره . . إن ابراهيم يشك في نية برتلمي ولا يؤمن قط بأنه شهم نبيل ، مستحيل أن يكون برتلمي كذلك في هذه الأيام . . .

وظلّ ابراهيم يحث الخطى حتى وصل منزل برتلمي . . وهتف ابراهيم بأحد المتسولين العاجزين:

ـ لا شك أن هذا هو بيت «فرط الرمان» .

قال الرجل، وهو يرفع إلى السائل عينين واهنتي البصر:

ـ لا شك أنك غريب عن هذه الديار . . لقد رحل «فرط الرمان» من زمن . . إنه يقيم الآن في قصرٍ كبير، تحفّه الحرس والكلاب المتوحشة . . حذار أن تقترب من هناك .

ودار ابراهيم حول البيت المهجور يستعيد الماضي والذكريات، ولم يترك المكان إلا بعد أن عرف مقرّ برتلمي الجديد، لكنه لا يستطيع المزيد من المشي . . لكَم قاسى طوال الطريق، محاولاً تجنب نقط المراقبة والمطاردة التي رتبها الفرنسيون في أماكن عدة، ثم إنه يشعر بجوعٍ شديدٍ ورغبة عارمة في النوم، ثم إن الغبار يكسو رداءه ويلوِّث وجهه وحذاءه، ويترك آثاره الواضحة على يديه وعنقه . . وليس من اللياقة أن يطرق باب القصر الكبير، أو يتسلق أسواره ويقابل هيلدا وهو على هذه الصورة الشائنة . . وانحنى ابراهيم في ذلة، وهمس في أُذن المتسول الجالس إلى جواره:

ـ أعندك طعام؟

قال المتسول، وهو يستخرج من جعبته رغيفاً وحصوات من الملح :

ـ ألم أقل أنك غريب؟؟ حذار أن تكون أحد الثوار أو المماليك الهاربين، إن «فرط الرمان» لا يرحم.

لم يعلّق ابراهيم بشيء، وإنما أقبل على الخبز والملح بلهفةٍ شديدة، كان الطعام ألذ وأشهى من أي طعام ذاقه طوال حياته، لسوف يذهب إلى جامع الأزهر الشريف، وفي حيّ الأزهر سيجد الكنافة التي يحبها، والمشروبات الدافئة وبعض الفاكهة، فهو يملك قدراً من النقود قليلاً.. وفي أحد أروقة الأزهر سيجد المكان الصالح للمبيت.. ما أكثر الذين يأويهم ذلك المسجد من كل لون وجنس، وهناك يأمن على نفسه، ويستطيع التفكير الهادىء، ورسم الخطة الناجحة، والتخطيط لحياته من جديد، ولا شك أن ذلك كله يعتمد على موقف هيلدا منه...

كان يخطو نحو الأزهر بقلبٍ واجفٍ مضطرب، وبقايا من دوريات العدو تتجول عبر الشوارع الرئيسية، في كثيرٍ من الإطمئنان وعدم الإكتراث.. ولفت نظره كثرة الدور المهدمة والخرائب، إن آثار التدمير تبدو واضحة جلية على الرغم من مرور ما يزيد على شهر من نشوب الثورة التي انتشرت أنباؤها في كل مكان...

ودخل المسجد الكبير، فاستشعر لأول وهلة قدراً من الطمأنينة والسلام، لقد رأى أنه في رحاب الله، وأنه يستطيع أن يؤدّي

بضع ركعات، لأنه في مسيس الحاجة ـ وخاصة في هذه الأوقات الحرجة ـ إلى مناجاة ربه، والركون إليه.. ما أعجب قلب الإنسان!! فإذا ما استشعر الخوف لاذ إلى كنف مولاه، وازداد تشبثاً والتصاقاً به.. إنه نوع من النقص الخلقي وتخلف الإيمان.. لمَ لا يظل الإنسان على ارتباط وثيق، وقرب دائم من الله؟.. إن ابراهيم يعترف بينه وبين نفسه، أن الدنيا شغلته طويلاً، وأن تفكيره في أطماعه الشخصية، وأمجاده الذاتية، قد صرفاه عن الطريق القويم.. لقد رأى الموت بعينيه أكثر من مرة، رآه في الصراع الدامي بين أميره وغيره من الأمراء في ساحات القاهرة وشوارعها، من أجل النزاع على السلطة قبل مجيء الحملة الفرنسية، ورآه في معركة «إمبابة» الشهيرة، حيث تدفقت النيران على رأسه هو وزملائه، ولم ينجُ إلا بأعجوبة، ورآه في المعارك العديدة التي دارت رحاها في أقاصي الصعيد ضد قوات «ديزيه»، ثم إنه لم يزل يسير يظلله تهديد الموت بجناحيه الرهيبين كمملوك هارب، تلاحقه عيون العسس...

يا لله.. ألم يفكر قبل ذلك في أن العمر رحلة قصيرة، وأن الله هو الملجأ الأول والأخير، وأن عمل الخير أجدى عليه وعلى الناس؟.. معانٍ كثيرة كلها تحتشد في رأس ابراهيم، وهو يتقدم صوب صنابير الماء ليزيل تراب السفر الممتزج بالعرق، لكنه يرى آثار العبث والتدمير في الأزهر نفسه.. لقد سمع عن ذلك من قبل، ولكنه كان يستبعد أن يحدث مثل ذلك.. أيصل بهم الاستهتار لهذا الحد، فيعبثون بالمقدسات، ويلوثون المحاريب،

ويلهون برمز السلام في الحرم الآمن؟ . . يا لهم من وحوش! . .

وتومض في ذهنه ومضة خاطفة من الماضي . . آه . . كنا ننهب المتاجر، ونسلب الآمنين أموالهم وأمتعتهم وبضائعهم، وكنا نشتبك في صراعاتٍ دنيوية تافهة . . إنهم يفعلون مثلما كنا نفعل، الغرور بالقوة الغاشمة، والتصرف بحماقة وقسوة . . يا له من درس! . .

وقضى «ابراهيم آغا» ليلة ليلاء بالأزهر، سمع الكثير عن الثورة وعن البطولات الفذّة . . ودمعت عيناه، وهو يتلقف في لهفةٍ كل كلمة عن الضحايا وقصص العذاب الوحشي الذي يقاسيه المواطنون الأبرياء على يدي الأعداء وأذنابهم، ثم الإذلال والمهانة التي لحقت بعلماء الأزهر وأشرافه، ووجهاء القوم الوطنيين المخلصين . . لقد رأت القاهرة الكثير من الصراعات الدامية، ومع ذلك فهي تقف صابرة صامدة، تتحدى العبودية والموت، وتأبى إلا أن تصمد للعاصفة الرعناء الوافدة من الغرب، والمعبأة بكل قوى الشر والتحدّي . . .

شيء آخر أزعج «ابراهيم آغا»، وأرّق نومه، وجعله يتقلب مغمض العينين مجهد الفكر، ذلك هو ما سمعه عن «برتلمي»، إن تصرفاته غاية في البشاعة والنذالة . . كيف يواجه مثل هذا المخلوق، ويضع يده في يده، وبرتلمي تقطر يداه من دماء الشهداء؟ . . أيمكن أن تبقى صداقتهما القديمة كما كانت؟ . . إن كل الظروف تقف ضد ذلك الإفتراض الساذج، ومع ذلك فإن لدى ابراهيم رغبة ملحّة في لقاء هيلدا، إن ما بينهما من الحب

شيء آخر له قداسته واحترامه، وقلبه لا يطاوعه على هجرانها من أجل سفالة أبيها، ولماذا تؤخذ الإبنة بذنب الأب؟. . إن مسؤولية الإنسان أمام ربه مسؤولية فردية، وهذا قمة العدالة، فلأطبق هذه النظرية على هيلدا المسكينة. . .

وأُذِّن للفجر بعد ليلة مرهفة، فتحامل ابراهيم على نفسه متثائباً مجهداً ليؤدِّي الفريضة. . .

٢٢

« يا له من من قصر رائع!» هذا ما تمتم به ابراهيم آغا، وهو يقيس قصر برتلمي الجديد بنظرات الدهشة، ثم استطرد:

ـ «أيمكن أن يكون هناك ذلك الفرق الشاسع بين مسكن برتلمي القديم والجديد، منعكساً على هيلدا الأمس واليوم؟؟ إن أخشَ ما أخشاه أن تكون هيلدا قد تغيَّرت». . .

كان قلبه يدق، وقدماه تتقدمان نحو الباب، وخوف مبهم يشدّه إلى الخلف، لكن ذكريات قديمة رائعة تحاول أن تبدِّد مخاوفه.

وحيّى ابراهيم بوّاب القصر في أدب، ثم أخبره أنه يريد فتاة القصر في أمرٍ هام، وما عليه إلا أن يبلغها اسمه. . وبعد دقائق كان ابراهيم يدلف إلى الممشى الأنيق وسط حديقة صغيرة عبقة الرائحة، تكتنفها الأزهار من كل جانب، وخاصة الأزهار الحمراء. . وعندما رأته هيلدا شحب وجهها واضطربت، وتمتمت دون وعي:

ـ مستحيل. .

ـ إني أحيّي أطيب قلب عرفته في حياتي . .

قالها وهو يمدُّ يـده مصافحـاً، بينما وقفت هيلدا جـامدة، ثم همست حالمة :

ـ كيف يحدث ذلك؟؟

أجابها ابراهيم :

ـ خضتُ إليـكِ يـا حبيبتي بحـار النـار والخـوف، واجتـزت صحراء العذاب والخطر، وكلما كلَّت قدماي ، لمعت في أُفق خيالي صـورتكِ البهيَّـة ، فيمتـلىء جسـدي بـالنشـاط ، وتفيض روحي بالأمل ، وأيقنتُ آنذاك أنكِ يا هيلدا أملي وحياتي . .

لم تفِقْ من شرودها وأخذت تقول:

ـ لم أصدِّق الخبر عندما أخبروني بموتـك. . كنت واثقة ثقة غريبة أنني لا بد أن ألقاك في يومٍ من الأيام. . وكلما أكدوا لي الخبر الكاذب المشؤوم، أزددتُ ثقة بوجودك، لكن مرور الأيـام كاد يوئسنـي. . إن كل يـوم يمرّ يجعلني أؤمن بقلبي وتفوُّقه على عقلي . .

ثم أفاقت إلى نفسها، واختـطفت يده تشبعها لثماً وتقبيـلاً، وأخذت تقول والدموع في عينيها :

ـ أشعـر الآن أنني قد بلغت مـرفـأ السـلام الـذي حلمت بـه طويلاً. . يا لها من ليالٍ عصيبة، لكأنما كنت أمخـر عباب بحرٍ هـائج عـاصف الزيـح، حالـك السواد لا تبـدو فيـه غيـر وجـوه أكرهها. . آه. . ديبوي. . وغيره كثيرون.

ابتسم في سعـادة، وقاسَ الحجـرة الأنيقة الفـاخرة الأثـاث،

وقال:

ـ أيمكن أن يحدث ذلك لأميرة ساحرة تحيى في هذا القصر الفخم؟..

ثم تذكر ما قالته في بداية حديثها، فأسرع قائلاً:

ـ لكن مَن أخبركِ أنني متّ؟

طأطأت رأسها في خجل وهي تقول:

ـ أبي..

ـ اوه.. لعل أحداً خدعه.. في مثل تلك المعارك الشديدة تترامى الأنباء هنا وهناك دون دقةٍ أو تحرٍّ.. المهم هو أنني حيّ أُرزق، وأني أجلس الآن إلى جوار نور عيني هيلدا.. هذه أعظم حقيقة في الوجود بالنسبة لي..

ثم تنهد في غير قليل من الألم وهمس:

ـ وعلى سفوح الجبال في أعماق الصعيد، كان وجهكِ الطاهر يشرق لي فيبدِّد الكثير من عذابي وضياعي.. كنت أحيا بشيء ولشيء عظيم.

وتساقطت دموعها بغزارةٍ وهي تقول:

ـ أما أنا فكنت أعيش ضائعة ممزقة في شبه غيبوبة.. أحاول النسيان بطرقٍ شتى كريهة إلى نفسي.. ولكن هيهات، إن الزيف والوسائل المصطنعة قد ورّطتني في مآسي كثيرة، وأضافت إلى أساي عذابات جديدة..

ثم أمسكت بذراعه وهي تشهق:

ـ صدِّقني.. إنني لا أستحق الحياة، ولا أستحق إنساناً نبيلاً

مثلك.. لو عرفتَ الحقيقة لبصقتَ في وجهي.. أجل، إنني أعني ما أقول.. إن الغزاة الغرباء الأقذار ـ وقد كنتَ تحمل سلاحك لحربهم ـ كانوا يفدون إلى بيتي فيستقبلهم أبي بالبِشْر والترحاب، ويملأون القصر بالضجيج والمرح والنكات الفارغة، وأنا أشاركهم العبث والكؤوس.. أنفسهم؟؟ العبث والكؤوس.. كلهم ذئاب.. أبي.. ديبوي الصريع.. مالوس الساذج، وساري عسكر نابليون نفسه..

لم يغب عن فطنته أن أحداثاً جساماً قد جرت، وأن هيلدا قد قاست الكثير، وأن شبابها الغضّ قد تعرّض لعواصف عاتية..

ولم يدرِ ماذا يقول، لكنه تمتم والحيرة في عينيه:

ـ ما هكذا يكون اللقاء بعد غيبة طويلة..

ـ هل أخدعك؟؟ لم أعد أطيق تلك الحياة القذرة..

طأطأ رأسه في حزنٍ وقال:

ـ أعرف أن أباكِ قد أتى أفعالاً غريبة، لا أدري كيف تورّط في ذلك على هذه الصورة الفاضحة، ولا أدري كيف أقابله...

قاطعته هيلدا في خوف:

ـ أتنوي مقابلته؟.

ـ ولمَ لا؟؟

ـ القتل من نصيب كل مملوك هارب.

ـ أعرف ذلك.

ـ فكيف تغامر بحياتك يا ابراهيم؟..

ـ يستحيل أن يفعلها معي، إن ما بيننا من الودِّ القديم، ثم إن

ما له من صِلاتٍ وطيدةٍ بالفرنسيين، تجعله يحمي صديقاً له ولابنته.

قالت في ضيق:

ـ أنت لا تعرفه، إنه يبرِّر كل تصرُّف قاسٍ، ومصلحة الأمن ـ أعني مصلحة الفرنسيين ـ فوق كل اعتبار. . أرجوك. . يجب ألا تلقاه، ويجب أن تنصرف فوراً الآن حتى ندبر الأمر.

ودق باب حجرة الاستقبال، وهبَّت هيلدا واقفة في رعب ولم يستطع ابراهيم هو الآخر أن يداري انفعاله الطارىء. . وهتفت بصوتٍ مبحوح:

ـ مَن بالباب؟. .

ردَّ أحد الخدم قائلاً:

ـ الكابتن مالوس ينتظر. .

توثب الضيق في عينيها، وهتفت:

ـ قل له ليس الآن. . ليأتِ في وقتٍ آخر. .

وفتح الباب فجأة، وجاءها صوت مالوس:

ـ أيمكن أن أعود دون أن أراكِ، وبيني وبينكِ خطوات قليلة؟. .

اندفعت هيلدا نحو الباب كالمسعورة، وأخذت تدفع مالوس بكلتا يديها، وهي تصرخ:

ـ إذهب. . إذهب. . لا أريد أن أراك.

وبين ذهوله الزائد تلفَّت يمنة ويسرة، فوقعت عيناه على «ابراهيم آغا»، فهتف في خبثٍ، وقد رأى رقة حاله وشحوب

وجهه:

ـ أيمكن أن يكون هذا هو السبب؟؟ يا له من سببٍ تافه! . .

قالت وهي تتميز غيظاً:

ـ هل علموك في باريس أن تفاجىء حجرات النساء هكذا دون استئذان؟ إن تصرفاً كهذا يعدُّ تصرفاً تافهاً من إنسان تافه.

احتقن وجهه، وتناوشته الشكوك وصرخ:

ـ مَن هذا؟

قالت وهي تشعر بلذةٍ غريبة، وكأنها تنتقم وتصفع كبرياءه وكبرياء ديبوي من قبله:

ـ إنه صديقي العزيز «ابراهيم آغا»، هل عرفته؟ . . لقد حدثتك طويلاً عنه.

هزَّ مالوس رأسه وقال:

ـ كنت أعتقد أن الموتى لا يُبعثون . . والآن أعلن انسحابي . .

وجذب الباب بشدةٍ وهو ينصرف، بينما ألقت هيلدا بجسدها المرتعش على المقعد، وسرعان ما تذكرت أن مالوس قد يخبر والدها بكل ما رأى، فاشتد بها الخوف والإضطراب، إنها ليست على استعداد لأن تعرِّض ابراهيم لأدنى خطر . . وذهل ابراهيم وهو يراها تثب كالقطة، ثم تجري صوب الباب وتهتف بصوتٍ مرتفع:

ـ مالوس . . مالوس . .

وتقابلا في منتصف الطريق، فقال مالوس:

ـ هل من إساءة أخرى توجهينها إليّ؟؟

قالت هيلدا والدموع تختلط بالخوف في عينيها:
ـ أيمكن أن أطلب منك كرجلٍ نبيلٍ شيئاً بسيطاً؟؟
ـ إنني في خدمتك.. إنني أحترم الأوقات الرائعة التي..
فقاطعته قائلة:
ـ عدني بألا تخبر أبي بأي شيءٍ مما حدث الآن.
قال في ضيق وهو يستدير خارجاً:
ـ على الرغم من قسوة الموقف، إلا أنني أعدكِ بذلك..

●

لحظات حلوة قضتها هيلدا مع ابراهيم، كانا يطفئان أواراً إشتد وطال شبوبه، وعلى الرغم من سعادته الفائقة، إلا أن ما سمعه من هيلدا وما رآه من تصرفاتها وتصرفات ضيفها الغريب، قد بعث في نفسه تساؤلاتٍ حائرة، وشكوكاً كثيرة.. ولم يكن الوقت ليسمح بالاستفسار والتحرِّي، لأن موعد أبيها قد أزف، وهي مُصرة إصراراً جازماً على أن ينصرف قبل أن يأتي، وليمنحها فرصة كافية لتدبر الأمر.. وتمتمت في سعادة وهي تودعه متعجلة:
ـ إن لقاء الموتى لقاء رائع...
وبعد أن انصرف ابراهيم، فوجئت هيلدا بصديقة أبيها تنظر إليها في انبهار، قالت هيلدا:
ـ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟
قالت متخابثة:
ـ مجرد الصدفة، أهناك ما يضايقك؟

قالت هيلدا محتدَّةً:

ـ يجب أن تفهمي وضعك هنا.. ليست بي رغبة لجرح شعورك، فلا تدفعيني إلى ذلك، وتذكري دائماً أن لي الكلمة الأولى هنا..

وتركتها وانصرفت إلى حجرتها...

٢٣

كان ابراهيم يتصوَّر أن الإقامة بالأزهر هينة، لا تحوم حولها الشبهات أو تلاحقها المنغصات، لكن الثورة وانبعاثها من قلب الأزهر، قد أثارت الشكوك في نفوس الفرنسيين وعيونهم، مخافة أن تحدث تجمعات مشابهة، أو تبذر بذور تدبير جديد لحركة تمرُّد ثانية، ثم إن ترك الأفكار المناوئة للعدوان لكي تنمو وتترعرع عملية خطرة تكلف المحتلين الكثير من الوقت والجهد والدماء، ومن ثم بثوا الجواسيس في أروقة الأزهر، مما جعل ابراهيم آغا يشعر بالقلق المتزايد، حتى أنه آثر الاحتفاظ بملابسه الرثة، وعدم الاهتمام بهندامه، حتى يبدو وكأنه طالب علم فقير، أو مجذوب من المجاذيب، ولم يكن هذا يمنعه بأن يصلح الكثير من هندامه عند ذهابه للقاء هيلدا.

وحاول ابراهيم أن يقضي الجزء الأكبر من وقته خارج الأزهر، حيث شوارع القاهرة وأزقتها الكثيرة، وحيث يلتقي ببعض المماليك المتخفين، وبعض الأصدقاء من الترك أو المصريين، وكان حذراً غاية الحذر بحيث لا يلتقي بإنسان يشك

فيه أدنى شك.

ولم يكن هناك مناص من أن يكون موضوع الساعة ـ الإحتلال ـ هو أهم ما يدور حوله الحديث، ويلي ذلك في الأهمية موقف المماليك بالذات، ولم يكن «ابراهيم آغا» ليبدي إرتياحاً للأحداث الجارية، فالفرنسيون يطاردون فلول المماليك في الشرق وفي الجنوب، و«مراد بك» قد تشتتت قواته أكثر من مرة، وبعثرتها ضربات «ديزيه».. والذي آلم ابراهيم آغا، أنه شعر بروح اليأس تدبُّ في صفوف المماليك، حتى أن البعض يفكر في مهادنة الفرنسيين والتعاون معهم، وكان ابراهيم يثور ويقول: «كيف نمدُّ أيدينا لمصافحة عدو غدر بنا، وسفك دماءنا، وأذلَّ مجدنا، وعاث في الأرض الطيبة فساداً؟» ولعله لم يجرؤ على رمي مراد بك بالخيانة جهراً، وإن كان في قرارة نفسه يؤمن أعمق الإيمان أن مراد بك لا خُلق له ولا مبدأ، وأنه يضع نصب عينيه أولاً وأخيراً مصلحته الخاصة، فإذا ما خُيِّر بين مصلحته ومصلحة وطنه ـ إن صحَّ أن يسمى وطنه ـ داس على مقدسات الوطن وأمجاده، فلم يكن غريباً أن يفكر في التصالح مع الفرنسيين والتعاون معهم، على أن يهبوه بعض السلطات الرسمية والميزات الوضعية..

لهذا شعر «ابراهيم آغا» بالاختناق وهو يلهث في أعماق الصعيد بحثاً عن الأمن وراحة الضمير، وبحثاً عن القيَم الحقيقية التي تجعل من الإنسان إنساناً بمعنى الكلمة... وعوّل ابراهيم على أن يرحل إلى القاهرة، أن يقتحم المخاطر والصعاب ليبلغ

المدينة التي أحبَّها، وليعيش بين أهلها ـ ولو متخفياً ـ يجري عليه ما يجري على أهلها من الصراع الدامي، والتعرض للعدوان الغاشم بكل شجاعة. . إن ابراهيم يشعر لأول مرة، أن إنشقاقه على «جماعة» المماليك إنما هو عمل شريف نبيل، لقد قرر إتخاذ هذه الخطوة عندما قرَّر مراد بك أن يبعث بمندوبٍ إلى الفرنسيين للتفاهم معهم، وعقد صلح يحقق له أي كسب مهما كان رخيصاً. .

لهذا عاد ابراهيم إلى القاهرة، إلى صدرها الحنون. . إلى الأماكن التي أحبَّها والمقدسات التي عشقتها روحه، وإلى ذكرياته الحلوة. . ولكَم تمنى في هذه الأيام العصيبة ألا يجعله الله من طائفة المماليك، لكن ما الحيلة وقد أراد القدر، ولا رادّ لإرادته، إن لم يكن في استطاعته أن يغير جنسيته، فلا أقل من أن يكون من حيث السلوك والتفكير والتطلعات مصرياً صميماً، إنه تآلف من نوع أصيل، تآلف مع الأمة التي احتضنت صباه وشبابه وأمانيه، وهو سعيد بهذه النتيجة. . .

●

شيء آخر هام ألح عليه إلحاحاً شديداً، بعد أن قضى في القاهرة أياماً قليلة، هذا الشيء انبثق في ذهنه انبثاقاً، حاول أن يبعده عن ذهنه فلم يستطع. . «إن برتلمي الخائن يجب أن يموت»، ذلك الخاطر يطارده صباح مساء. . ويحاول ابراهيم أن ينظر في عينيْ هيلدا الجميلة، ويحاول أن يستشف روحها

الـوادعة البـائسة، لعـل ذلك يحجب عن ذهنـه ذلـك الخـاطـر المُلِحّ. . لكن النـداء يتـردد في أعمـاقـه «إن بـرتلمي يجب أن يمـوت»، الرجـل الذي ذبـح المئات، والـذي يمسك بمقـاديـر التعسـاء في هذا الـوطن المغلوب على أمـره، ويتصـرف وكـأن ليست هناك قوة أخـرى تعلو عليه، ولا تعـرف الرحمـة إلى قلبه سبيلاً. . ذلك الذي تنكّر لكل المعاني الإنسانية الرفيعة. . هـل هناك فائدة من وجود هذا الإنسان؟؟ ثم، هل إذا حوكم أمام أية محكمة عادلة، أيكون نصيبه غير الإعدام؟؟ هناك أشياء كثيرة لا تنفع لا يحرم اقتـلاعها، فمـا بالـك إذا نتج الضـرر عن مخلوق شـائن كبـرتلمي؟. . إنـه إنسـان خـائن تحت أي فلسفـة من الفلسفـات المحايـدة. . لكن دمـوع هيلدا تقف في الـطريق. . ومعها الحراسة المشدَّدة، والجواسيس المنبثة في كـل مكان. . «آه يا قلبي المتأرجح بين الولاء للحب والولاء للأرض الطيبة. . إنك يا قلبي تكتوي بنيران حُبَّين كليهما غالٍ وعزيز». .

وفي رحبة الأزهر الشريف، حيث يوجد الناس المتحمسون، والذكريـات الداميـة، والأفكار الملتهبـة، يعزم ابـراهيم ويصمم على الانتقام من برتلمي، بـرغم كل شيء. . وبين يـدي هيلدا أميـرة الحب والأحلام، يتـراجـع ابـراهيم خـطوات وخـطوات، وينسى في نشـوة الحب، وكلماتهـا الرقيقـة الوفيـة، كل أحقـاد الحياة، ويأنف من العنف والدماء والخواطر المدمرة. . .

●

كـان ابراهيم على مـوعـدٍ مـع هيلدا، وكـان يعـرف الـوقت المناسب لزيارتها بالاتفاق معهـا. . ولم تغفل عين هيلدا، فقـد كانت تدرس الأمر كي تجد له حلاً، أتفاتح والدها، وتشـرح له أمر ابراهيم وتطلب منه العفو عنه، والحماية له كمملوك مطارَد؟؟ ولم تكن تعلم ما يدور خلف ظهرها، فعندما اقترب ابراهيم ذات مساء من باب البيت، إنقضَّ عليه خمسة من الرجال وأمسكوا به، فشلُّوا حركته وأغلقـوا فمه حتى لا يصيـح ويثير الضجيـج، وفي دقائق كان موثوقاً بالحبال ومدفـوعاً في عنف واحتقـار إلى سجن القلعة. . .

وتمتم وهم يقذفون به داخل زنزانة مظلمة:

ـ أجل. . إن برتلمي كان يجب أن يموت. . لكن ما الحيلة، وقـد سبق السيف العـزل، وانقضَّ عليَّ رجـالـه كـالقضـاء النافذ؟؟ إن تصرفه هـذا هو الـذي قطع الشـك باليقين. . آمنت الآن أن مشـاعر الحقـد التي تعتمل في قلبي ضـده كـانت على حق. . لكن ماذا أفعل وقد فات الأوان. . وأصبحت في حجـرةٍ مظلمةٍ لا أنيس ولا رفيق ولا سلاح؟. . لينعم برتلمي بطغيانـه، ولينعم أيضـاً بشقاء ابنتـه. . لكن هـل من الضـروري أن تشقى هيلدا؟؟ آه من مأساة العجز الساحقة!. .

وألقى بجسده في ركنٍ من أركان الزنزانة. .

وتناهى إلى سمعه صوت حزين عميق التأثير، يتردد صداه في ظلمة الليل الحالكة، ولم يكن يعلم أهو صوت سجَّان أو صوت مسجون:

لـو كـان بكـايـا على المحبــوب يجيبهـولي
لكنت أبكي وأجيب الناس يبكولي
يا ليلي . . يا عيني . .

أجل، لا يجدي البكاء أمام صولة القضاء، ولا تنفع الـدموع في معركةٍ ضاريةٍ أشعلها المجرمون . . اللعنة على برتلمي الحقير وعلى كـل مَن رفعه إلى تلك المكـانة الملوَّثـة، وأباح لـه إذلال البشر، والغدر اللئيم . .

لم يكن «ابراهيم» يعلم بالطبع، أن هيلدا وقفت تنتظرطويـلاً موعده . . ودخل عليها أبوها ومعه مالـوس، وهي تقطع الحجـرة ذهاباً وإياباً، والقلق الشديد بادٍ على وجهها، وقالت دون تدبُّر:

ـ جئتما في غير موعدكما.

ـ لا شك أن هذا يسعدكِ يا فتاتي العزيـزة، ألـم تتشكي كثيراً من غيابي المتكرر؟؟

وشمَّ أنفها الحساس رائحة غدر مستتر، وخاصة أنها قرأت في عيني مالوس شماتة وخبثـاً، لكن عقلها لا يصـدق أن يغدر بهـا الفتى الباريسي «المهذب»، وفـاتها أن الغيـرة تصنع الحمـاقات المنحطّة . . .

لم تستـطع أن تداري شحـوب وجهها واضـطراب نظراتهـا، وأخذت تعبث بأناملها، ثم ولَّت هاربة، فتبعها أبوها قائلاً:

ـ ما بكِ؟

قالت في اقتضاب:

ـ لا شيء.

ـ لا تخفي عني شيئاً.
التفتت إليه كنمرة شرسة وصاحت:
ـ لا أريد أن أرى مالوس هنا بعد اليوم.
ابتسم في دهاءٍ وهدوءٍ قائلاً:
ـ لماذا؟؟
ـ لأني لا أريد ذلك.
ـ ليس هذا بكافٍ.
ـ هل من الضروري أن أُبدي أسباباً أخرى؟
ـ أعتقد ذلك.
ـ إذن فإليك الحقيقة.. إنني أكرهه وأحتقره.. فلا يلجئني لأن أقول له ذلك في وجهه، إن أردت الحفاظ على كرامته.
هزَّ رأسه وقال:
ـ هل هناك رجل آخر؟
قالت في حدَّة:
ـ هذا من شأني..
ثم استدارت إليه واستطردت:
ـ وإذا كان هناك رجل آخر، فأعتقد أن عيونك وعيون مالوس لن تجهله.
قال محتجّاً:
ـ لا يمكن أن يكون هذا بالنسبة لإبنتي الوحيدة.
اقتربت منه وقالت:
ـ أبي.. أيمكن أن تصدقني الحديث ولو مرة واحدة؟

ـ ومنذ متى كذبتُ عليكِ؟

قالت دون تحفظ:

ـ كـذبتَ عليَّ عندمـا أخبرتني أن ابـراهيم آغا قـد مـات في المعركة.

قال متصنعاً الدهشة:

ـ وهل حدث غير ذلك؟!

واندفع مالوس في رعونةٍ وحـمـقٍ نحو باب الصالة تاركاً خلفه حجرة الإستقبال وقال في شماتة:

ـ لقد انتهى أمر ابراهيم، ولن تريه بعد الآن..

وصاح برتلمي:

ـ ماذا تقول يا مالوس؟!

قالت هيلدا وهي تصرُّ على أسنانها من الغيظ:

ـ يقول الحقيقة..

وران عليهم صمت عميق لفتـرة وجيـزة، قـالت هيلدا في أعقابها:

ـ إذا لم يعد ابراهيم حتى الغد، فلسوف أقتل نفسي..

وجـرت صوب حجرة نومها وهي تشهق باكية...

٣٤

كان تهديد هيلدا حاسماً، قاطعاً، فانفض برتلمي رأسه أمامها مستسلماً، بينما هاجت أحقاد مالوس، غير أنه كظمها، باذلاً في ذلك أقصى ما يستطيع من جهد...

قال برتلمي وقد انفرد بمالوس:

ـ لا تحزن يا مالوس، سوف نستجيب لرغبتها.

قال مالوس:

ـ ما معنى ذلك؟ . . أيقهرنا ذلك المملوك الصعلوك؟ . .

أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية يا مالوس، إنني فقط أريد الحفاظ على حياة هيلدا المسكينة وتهدئة أعصابها، ولا يعني ذلك هزيمتنا أمام ابراهيم آغا. . إنه لم يزل ـ وسيظل ـ بين أيدينا، وسنوجه إليه الضربة القاصمة في الوقت المناسب، بل إن وجوده إلى جوار هيلدا فيه عديد من الفوائد، ألا يجوز أن تزهد فيه، وتكتشف مزيداً من النقائص؟؟ ثم لا تنسَ يا مالوس، أن قلوب البشر قابلة لتحوُّلات كثيرة.

هزَّ مالوس رأسه قائلاً:

ـ كلامك يبدو منطقياً ومعقولاً، لكني لا أستطيع الصبر عليه.

قال برتلمي:

ـ تماماً مثل هيلدا. . تحكم عواطفك في مصيرك. . لا يصحّ أن تكون هكذا دائماً يا عزيزي مالوس.

ـ أنا لا أطيق رؤية هذا المخلوق.

ـ بل يجب أن تبشّ في وجهه. . لمَ لا نستغله؟؟ ألا يمكن استعماله في الكشف عن خبايا المماليك، وأعداء الحملة الفرنسية في أنحاء البلاد؟؟ وعندما يصبح غير ذي فائدة لي، وتصبح هيلدا أكثر تعقلاً ونضجاً، نمسك بابراهيم ونقذف به في أعماق الجحيم. . إنها خطة ماكرة يا مالوس الصغير. . .

توجّه برتلمي إلى القلعة، إن قلبه يخفق من شدة السعادة، وهو يدلف عبر بوابتها السوداء المتجهمة، هناك يكتشف لنفسه سلطات مطلقة، ونفوذاً لا حدّ له، ابتداءً من السبِّ وضرب السياط، حتى القتل.. ومرَّ - وهو في الطريق إلى زنزانة ابراهيم - بممرّ ضيق طويل.. كان هناك شيخ ينظف الممشى بقطعةٍ من الخيش، وعندما حاذاه برتلمي هتف الشيخ فجأة:

- إلى متى نبقى محبوسين يا سيد برتلمي؟؟ إن سجننا هنا بلا محاكمة وبلا نهاية محددة..

ركله برتلمي في عنف، فاتكأ الشيخ على الحائط، وابتسم في مرارةٍ وقال:

- أليس لي حق الشكوى؟؟ إنني ألتمس العدالة..

وصاح برتلمي طالباً يعقوب، وقال برتلمي وهو يصرُّ على أسنانه من الغيظ:

- هذا المجنون فيه بقية من رجولة وشجاعة.. إن الذلّ المستمر والتجويع والبقاء في ظلام الزنزانة لفترة طويلة، قد يصلح حاله، ويجعل منه طفلاً سلس القياد.. ضاعفوا له العقوبة.. مائة سوط على الأقل.. مفهوم؟؟

هزَّ الحاج مصطفى البشتيلي رأسه، لم تفارقه تلك الإبتسامة المرة، وقال وقلبه يدق:

- «... لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

لم يلقِ برتلمي بالاً بعد ذلك لِما قاله الحاج مصطفى، كانت مشكلة هيلدا وابراهيم آغا تشغل تفكيره.. شعر بالذلة والهوان

وهـو يذهب إلى القلعـة لاستخراج ابـراهيم بنفسـه. . مـا أكثـر الرغبات المكبوتة في داخله، تلك الرغبات التي لا يستـطيع أن ينفث عنها، إنه دائماً عاجز عن تحقيق الكثير مما يصبو إليه، ومع ذلـك فـالنـاس ـ كـل النـاس ـ يـظنـون أنـه قـادر على صنـع المستحيل. . .

ـ مساء الخير أيها الفارس الصديق. .

قالها برتلمي، بعد أن فتح السجان باب زنزانة ابراهيم الذي كان مضطجعـاً على الأرض فوق لـوح متسخ من الخشب. . لم يتحـرك ابراهيم من مكـانه، وصـاح وهو يـدقق النظر من خـلال الضوء المتدفق إلى الزنزانة المظلمة:

ـ مَن؟؟ برتلمي؟؟

ـ إنه أنا. . .

قال ابراهيم وهو يتنهد:

ـ إنه مكان رائع لكي تضع فيه الأصدقاء.

اقترب منه برتلمي مصافحاً وهو يقول:

ـ إن ما حدث كان نتيجة سوء فهم خطير. . تصوَّر. . وصلتنا رسـالة من رجـالنـا في الصعيـد، أعني رجـالنـا المنـدسِّين بين المماليك، وأخطرونا بقـدومك وبـأنك تعمـل على إثارة الفتن، والكشف عن خـطط الجيش الفرنسي وأسـراره. . ومن ثم كـان عليَّ أن أقبض عليك بأمرٍ من السلطات العليا، ولو لم أفعل ذلك لأصابني رزاز الاتهام والشبهات. . أنت تعلم موقفي الحـرج. . لو كنت أنت إبني لمَا فعلت غير ذلك. . .

قال ابراهيم:

- إن شيئاً من هذا لم يحدث.. لا أنكر أنني ساخط على ما يجري سخط أي فردٍ من أفراد الشعب، لكن سخطي لا يرقى لدرجة التآمر والتجسس، ثم إن هيلدا تعلم كل شيء... لشدّ ما أخشى أن تكون الرسالة التي وصلتك ملفّقة!..

وخرج برتلمي وإلى جواره ابراهيم، كانا يتجاذبان أطراف الحديث كأصدقاء لم يحدث بينهما شيء من الجفوة أو سوء الفهم.. وتذاكرا الأيام الجميلة، ثم جاء ذكر الحرب والثورة والخراب والدمار والدماء.. وهنا قال برتلمي:

- إن التسليم بما هو قائم أمر لا بد منه، وهزيمة الفرنسيين مستحيلة، والمقاومة غباء.. إن جيوش العالم كلها لم تستطع قهر فرنسا، فلا يعقل أن تأتي دولة صغيرة متخلفة ممزقة، وتحاول هزيمة أقوى جيوش الأرض.. فما رأيك في ما أقول؟؟

قال ابراهيم:

- هذا رأي غالبية المماليك..

- لكن لماذا يصرُّون على المقاومة؟؟

- لتحقيق أكبر قدر من الشروط التي يقدمونها لعقد الصلح..

- وغير المماليك؟؟

- آه.. إن باقي الشعب مُصِرّ على المقاومة.. أنت تعلم ذلك.. أنت تسمِّيه غباءً وجنوناً، وهم يسمّونه دفاعاً عن الحق والحرية.. المسألة معقدة كما ترى، ولن يحلّها مزيد من الدماء والسياط يا سيد برتلمي.

قال برتلمي:

ـ ما هو الحل في رأيك يا ابراهيم؟

ـ أن يعود الفرنسيون من حيث أتوا.

ـ أنت تهذي.. أهذا هو رأيك أنت؟؟

ـ رأي رجل الشارع.

ـ وأنت؟؟

ـ أنا؟؟ وما قيمة رأيي؟؟ أنا مجرد مملوك طريد، يتلمس الحياة، ويبحث عن الأمن من شارع إلى شارع...

توقف برتلمي عن السير، وأدرك ما تنطوي عليه كلمات ابراهيم من إصرار وعناد.. لو قال هذه الكلمات رجل غير ابراهيم، إذن لمزّق برتلمي جسده إرباً إرباً، لكن هيلدا تقف حائلاً بين إنفاذ رغباته.. ورأى برتلمي أن من الحماقة الصبر على تلك الروح المتمردة الثائرة، فقال:

ـ يا سيد ابراهيم.. إنك كمملوك هارب عقوبتك الموت... ثم إن آراءك الخطرة التي تعترف بها الآن توردك مورد التهلكة، وأنت تعلم دقة مركزي، فضلاً عن أن الكابتن مالوس يعرف الكثير عن صلتك بنا.. وهو حاقد وناقم عليك.. لو كنت تحب هيلدا حقيقة لوفرتَ لأبيها الأمان، ولانسحبتَ من حياتنا في هدوءٍ وخفة، دون أن تثير خلفك ضجة صاخبة.. حسناً.. لسوف أستقبلك في بيتي لبضعة أيام، ومن الضروري أن تتصرف بروية خلال هذه الأيام، إن أنانيتك قد تؤدِّي بي وبك وبهيلدا إلى الدمار الكامل أتفهمني؟؟

قال ابراهيم:
ـ أُدرك تمـاماً مـا ترمي إليـه.. أنا لست أنـانياً.. إنني أحب ابنتك وأعتقد أنها تحبني كـذلك، لكني لن أستغـل هذه العـاطفة النبيلة إستغلالاً يشوِّه جمالها!!.
استقبلت هيلدا حبيبها استقبالاً حاراً، لم يخفف من حرارتـه وجود أبيها، وشعرت أنها وهي تلقاه في النور والهواء دون خوف، أنها قد انطلقت من قمقم رهيب خانق، ونـظرت إلى أبيها في ودٍّ وحنان وتمتمت:
ـ شكراً لك يا أبي.. الآن أستطيع أن أقبِّل وجنتيك وأنا واثقة من أنك تحبني أكثر من أي شيء في الوجود...
وتمتم ابراهيم بينه وبين نفسه:
ـ «بـل إنه يحب نفسـه أكثـر منـكِ، وأكثـر من أي شيء في الوجود»...

٦٥

أقفـرت الدار من الصحـاب، ولم يعد فيهـا سـوى الـدمـوع الحزينة والذكريات المريرة، ونسوة يلبسنَ السـواد.. وقَدِمَ ذات يـوم الشيخ الأعمى «على الجنجيهي» وطـرق الباب، فـاستقبله الحسين ـ نجل الحاج مصطفى البشتيلي ـ استقبالاً حاراً، وكانت الدموع تترقرق في عينيه، وتمتم الجنجيهي:
ـ ألم يعد الغائب بعد؟؟
ردَّ الحسين في أسى:

ـ وكل مسافر سيؤوب يوماً . .

وهزَّ الجنجيهي رأسه، بعد أن قصد حجـرة الضيوف، يقـوده إليها الحسين وقال:

ـ إن رضاءنا بما هو قـائم، وذلك الانتـظار القاتـل يبعثان في نفسي الضيق والأسف . .

ـ وماذا نفعل؟

ـ يجب أن نتحرك.

ـ كيف؟؟

ـ إن برتلمي قد يبيع إبنته بالنقود . .

قال الحسين:

ـ لا أفهم ما ترمي إليه . .

أتت فناجيل القهـوة السادة، وأعـطى الحسينُ الشيخَ واحـداً منها، ورشف الشيخ رشفة طويلة، ثم قال:

ـ تستطيع أن ترشوه بالمال، وبهـذا نشتري أبـاك من الضنك والعذاب، إن يوماً واحداً في السجن يسـاوي ألف دينار، ثم إن حياة السجن مهددة بالمخاطر، مَن يدري؟؟ لعل حركة تقوم، أو ثـورة تنشب، أو نـزوة تـطوف بـرأس بـرتلمي فيقضي على المسجونين . . إنه حقود مجنون . .

كان الحسين ينصت في اهتمام، ويدرك عن يقين ما يرمي إليه الشيخ الأعمى، ولعل العبارة الأخيرة قد أيقظت الرعب والخوف في قلبه . . ولم يتركه الشيخ لخواطره، فاستطرد يقول:

ـ لو استطاع أبوك أن يتصل بك لأوعز إليك بذلك. .

ـ بل أعتقد أنه يأنف من هذه الوسائل. .

ـ إفهمني يا ولدي. . إن خروج أبيك أمر له أهميته القصوى. . هذا بديهي في الأمور العادية، لكن في مثل تلك الظروف يتحتم طرق كل باب لإنقاذه. . إنه حفاظ على حياته، وحياة الأمة وشرفها.

وران عليهما الصمت، ووثبت إلى ذهن الحسين صورة أُمه الحزينة الباكية التي لا تنام من الليل إلا أويقات قصيرة. . وصورة وجه أخته الشاحب، والقلق والعناء النفسي وهما يتواثبان في محجريها. . وذلك البيت الموحش الذي أصابه الوجوم والهموم منذ أخذوا أباه. . وتذكر أيضاً أن المعركة ستطول وأنها ليست هينة، فقوات نابليون تحقق انتصارات وتكسب أرضاً في الجنوب والشرق، وجيشه يهرول نحو الشام ويطرق أبواب «يافا»، ويذبح من العرب والمدافعين الأحرار أربعة آلاف. . ويتسلل إلى «عكا». . يريد أن يثبت للعالم أنه أقوى من النكسة، ومن أسطول إنجلترا، ومن ثورات الشعب المصري، ومن تحديات أوربا، وليثبت أن آماله الكبرى ستتحقق برغم تحديات الظروف والأعداء، ويمضي في طريقه غير هيَّاب. . لقد أعطته الأقدار من القوة والطموح ما جعله يشقُّ طريقه في عنادٍ وإصرارٍ برغم الخسائر. . .

وقطع الجنجيهي على الحسين حبل أفكاره حين قال:

ـ إن كلامي لا يعني أن أباك ليس أهلاً للتضحية. . كلنا على

يقين أنه أقوى من الهزّات والعذاب الذي يسقيه له المجرمون. . إنه رجل مؤمن قوي الإيمان ومن ثم فلا خوف على كرامته وشرفه والقيَم العليا التي يؤمن بها.

خفض الحسين رأسه في حياءٍ وقال:

ـ لكن كيف الطريق إلى منزل «فرط الرمان»؟

ـ تستطيع أن تمهد الطريق بنقودك. . أليس لديك ما يكفي من المال؟

ـ نحن لا نضنُّ على أبي بأي شيء.

ـ إذا لم يكن لديك ما يكفي، فيمكنني أن أتصل بالشيخ ابراهيم سلامه ونذهب إلى الشيخ السادات، لعلنا نستطيع أن نجمع بعض المال. .

ردَّ الحسين على الفور:

ـ لا. . لا. . إن أبي لا يرضيه ذلك. . إن لدينا من المدخرات والمجوهرات وبعض العقارات ما يفي بمطالب برتلمي. . .

●

عندما انصرف الجنجيهي، وعاد الحسين إلى والدته وأخته زينب، شرح لهما وجهة النظر التي عرضها صديق أبيه، فأبدت الأم حماسة زائدة، وأيدتها أشد التأييد. . إنها لا تمانع في أية وسيلة لإعادة زوجها إليها، فقلبها دائماً يرتجف من الخوف على مصيره، والخواطر السوداء تلعب برأسها دائماً، وهي لا ترى في السماء غير الغيوم السوداء المنذرة، مهما رأى الآخرون زرقة

السماء وصفاءها، وعلقت زينب قائلة:

ـ أنـا على استعداد لأن أضحّي بـروحي من أجل أبي.. ولا يعيبنا أن نلبس الخيش، ونقتات كسرات الخبز، حتى يعود إلينا من ذلك المكان الرهيب الموحش..

وهزّ الحسين رأسه قائلاً:

ـ وفي هذا المكان تُرتكب أسوأ الخطايا في حق الشـرفاء.. ولحظات العناء قد تساوي دهراً طويلاً مريراً..

وأردفت الأم في حدّة:

ـ إن تركك لأبيك هذه الفترة يُعتبر عقوقاً لا يُغتفر...

●

الله وحده يعلم مدى ما تكبّده الحسين من مشاقٍ، وهو يطرق الأبواب، ويتحسس الطرق، كي يصل إلى برتلمي.. لقد قصد أحد الخواجات من كبار تجار المجوهرات، وقصد أحد كبار تجار الخمور، وذهب هنا وهناك، وكل واحد يريد أن يقبض الثمن من أجل خطواتٍ تمهيديةٍ قد تسفر وقد لا تسفر عن أية نتيجة.. وأمام الإصرار والبذل والتضحيات المتنوعة، استطاع الحسين أن يصل إلى هدفه...

قبض بـرتلمي الثمن، ودسّه في جيبه وهو يضع ساقاً على ساق، وينفث دخان نرجيلته، ويشمخ بأنفه.. وعاد في المساء ليداعب خليلته وإبنته، وليقضي وقتاً قصيراً مع الزائر الذي لا يرتاح إليه.. الصديق اللورد «ابراهيم آغا»...

وذات مساء، في السجن الكبير الرهيب، صاح أحد السجانين:

ـ مصطفى البشتيلي.. مصطفى البشتيلي..

ووجفت قلوب الرجال في الزنزانة الضيقة، وساد الشحوب وجوههم وانتصب الحاج مصطفى واقفاً، ماذا هناك؟؟ أهو فصل جديد من فصول العذاب في المأساة التي لا تنتهي، أم أنه حكم إعدام أصدره برتلمي بينه وبين نفسه؟؟ ربما ينادونه لكي ينظف مكاتب الضباط، وليسخروا من رجل له ماضيه وشهرته، وهي تسلية لذيذة على الرغم من وحشيتها... وتمتم أحد الرجال:

ـ خيراً.. اللهم اجعله خيراً.. لا تقلق يا حاج..

فصاح الحاج مصطفى:

ـ أنا هنا.. زنزانة رقم عشرين..

ودقت أحذية غليظة ثقيلة على أرض الممشى الضيق، وكان لوقعها صدى مزعج في النفوس... وعندما فُتح الباب، قال السجان بابتسامة قذرة:

ـ يبدو أن أمك قد دعت لك في «ليلة قدر».. مبروك يا مصطفى..

أصبح الحلم حقيقة.. الحاج لا يصدِّق أُذنيه ولا عينيه.. كثيراً ما خدعوه وكذبوا عليه، وخيَّبوا آماله.. لكن ألا يمكن أن يصدقوا ولو مرة واحدة؟!

وهتف أحد المسجونين بصوتٍ ضعيف:

ـ إذا وصلت سالماً إلى بيتك يا حاج، فبلِّغ السلام للعيال

والنساء والرجال، واقرأ لنا الفواتح عند أهل البيت.. ولتدعُ لنا الله بالسلامة والستر دنيا وآخرة . .

وتساقطت الدموع من عيني الحاج مصطفى، وعجز عن أن ينطق بكلمةٍ واحدة. . .

وخرج من الزنزانة ثم استدار وقال:

ـ الله معكم. . السلام عليكم ورحمة الله. . واصبروا. . إن العاقبة للمتقين. .

قاسه برتلمي بنظراته، وقال:

ـ كان درساً قاسياً. . أليس كذلك؟. . من العبث أن يحاول حمل صغير زحزحة جبل ضخم بقرنين هزيلين، أليس كذلك؟. . إن فكرة المقاومة فكرة جنونية أمام الجيش الفرنسي. . . وقد كان في استطاعتي أن أنفذ فيك حكم الإعدام، أليس كذلك؟. . ومع هذا فنحن نلجأ إلى الرحمة كحلّ في بعض الأحيان، حتى لا نُتهم بالقسوة والجمود. . . وتصرُّفنا معك الآن دليل أكيد على ما أقول، يا زعيم ثوار بولاق. . أليس كذلك؟. . إنني أغامر بالإفراج عنك، لأن تقارير رجالي عنك تؤكد خطورتك، ومع ذلك فأنا القادر على البطش بك في أي وقت أشاء. . فحذار أن تنسى نفسك. . وإلا. . . أليس كذلك؟. .

سدَّد الحاج نظرات متوجسة إلى وجه برتلمي المحتقن، وقال:

ـ بلى. . أفهم كل ما ترمي إليه.

ـ إذن فقد أمرت أن تعود إلى أهل بيتك فهم أولى بك، وعسى

أن تتحول بولاق المشاكسة إلى حيّ هادىء وادع، يعرف معنى النظام، ويدرك قيمة الطاعة لأولي الأمر.. والآن تستطيع الانصراف..

والتفت إلى رجاله قائلاً:

- إفتحوا الباب، ودعوه ليمضي في الطريق حراً وحده...

●

آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة، يا ذا الأسرار الغريبة.. يا ذا الرموز والأشباح والذكريات والمواويل الحزينة.. عدت إلى الشوارع الخالدة من مئات السنين التي لا تهجرها الخطوات العنيدة والسير المستمر إلى الأبد.. إلى المساجد السامقة بمآذنها وقبابها.. إلى القبة الزرقاء الصافية.. إلى الرجال الذين تجمدت الدموع في مآقيهم، وامتلأت قلوبهم بالعزم الحديدي.. إلى الأطفال يا قاهرة المعز.. وللأطفال في قلبي منزلة فريدة تزخر بالحب والحنان والبراءة والحيوية والسعادة البالغة...

آه.. عدت إليك يا ليل القاهرة.. يا قلبها الخافق... هذا هو عهد الله.. أن أظل أنسج من خيوط الليل المدلهمّ الدرع الواقي لمجدك يا بلدي.. وأظل أدق أعتاب «المقطم» حتى ينبثق فجر المنى.. ويبدِّد الشقاء والعناء...

٣٦

اشتعلت النار في قلب «مالوس» وشعر أن قبضة حديدية تكاد تعتصر عنقه، وتحسس عنقه فلم يجد أثراً لتلك القبضة، ماذا جرى له؟؟ إنه يكاد يجنّ، ولِمَ لا يجنُّ وهو الجندي الفرنسي المنتصر الذي يقف عاجزاً أمام قوة مملوك هارب، لا حول له؟.. لو كانت القوة سلاحاً وكرّاً وفراً لاستطاع أن يحسم الأمر، لكن مالوس يتجرع هزيمة من نوع غريب.. يواجه قوة خفية لا يستطيع الإمساك بها وتدميرها.

أجل.. إن «ابراهيم آغا» يعيش الآن في بيت «برتلمي»، ينعم بالمتعة والسعادة في حضرة «هيلدا» الجميلة، تلك التي تجاهلته منذ أن بزغ نجم ابراهيم.. لقد بذل مالوس جهوداً جبارة في إقناع برتلمي بالقضاء على ابراهيم، لكن برتلمي لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء إصرار هيلدا وتهديدها بقتل نفسها، وحاول مالوس أن يجتذب إليه قلب هيلدا بطرقٍ شتى، لكنها انصرفت عنه، وولّت وجهها وقلبها شطر فتاها الأول، فلم يبقَ أمام مالوس إلا أن يتجه إلى ابراهيم، فلِمَ لا يوجه القذيفة الأخيرة إلى ذلك المملوك المطارَد؟.. وستكون قذيفة من نوع مدمر خبيث.. إن هيلدا تبدو أمام ابراهيم في صورة الملاك الطاهر والمحب الولهان، وهي - بالتأكيد - لم تفكر في سرد قصتها الدامية مع ديبوي على أسماع ابراهيم، لا شك أنها تكتم سرًّها في قلبها، حاول جاهدة أن تخفي أساها عن فتاها، ولعلها تعيش معذبة

تنتظر اللحظة المناسبة التي تستطيع فيها أن تدلي باعترافها مبللاً بدموعها، لكن متى تأتي تلك اللحظة؟؟ إن مالوس وحده هو القادر على أن يقربها، ويكشف الستر عن كل ما حدث. .

ولم يضيع مالوس وقته هباءً، فقد حاول التقرب والتبسط مع ابراهيم في الأوقات القليلة التي يجتمع فيها شمل برتلمي وابراهيم ومالوس، وحاول مالوس ـ في نفس الوقت ـ أن يبدو وكأن أمر هيلدا وعلاقته بها لم تعد تؤثر على مشاعر الصداقة بينهم جميعاً، لكأنها كانت معركة أقرّ الجميع فيها ـ بروحٍ رياضيةٍ صرفة ـ بانتصار ابراهيم، هذا ما بدا واضحاً للعيان. .

غير أن الثعلب الجريح لم يكن يستطيع النوم في هدوء، وكيف ينام مالوس الشاب الذي تركت هيلدا في نفسه أعمق الأثر؟. . إن في إمكانه أن يطيح برأس ابراهيم، أو يشي به لأولي الأمر من الفرنسيين، لكنه لا يجرؤ على فعل ذلك، إن معناه ضياع كل أمل في الفوز بهيلدا، ولهذا كان عليه أن يعتصم بالدهاء والخبث، ويلجأ إلى الدسّ والخديعة، لعله يضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ: أن يتخلص من ابراهيم، ويحظى بهيلدا في الوقت نفسه. . ما أبشع ما يقاسي مالوس. . الحقد يشتعل في قلبه، لكنه يخفي لهبه بضلوعٍ تحترق وتتألم، والغيظ يدفعه إلى الحماقة دون هوادة، لكنه يكظمه، ويكزّ على أسنانه في صبرٍ نافذ، ويتنهد في حسرة، وهيلدا تبدو أمام عينيه كالرحيق الحلو الشهي، وهو ظامىء جائع لا يستطيع لمسها، ثم يداري عجزه الفاضح، وغيرته المتقدة، ولمَ لا يعتصم بالصبر والهدوء أمام

عجز السيف عن حسمه؟ . .

وذات مساء، تأبط ذراع ابـراهيم آغا، وطلب منـه أن يتجوّلا قليلاً في بعض شوارع القـاهرة الآمنـة تحت جنح الـظلام، فلم يمـانع ابـراهيم، كانـا يتخبطان في الحـديث عن هنـا وهنـاك، واستغلّ مالوس الظلام الضافي كي يخفي انفعالات وجهـه، ثم تمتم قائلاً:

ـ أيها الصديق العزيز، لا أدري كيف أفاتحك في الأمر، إنها تجربة شائكة ثقيلة على نفسي. . ومما يزيد الأمر صعـوبة أنـك تتوهم علاقـة عاطفيـة بيني وبين هيلدا. . حسناً. . أنـا لا أحب المداورة. . أقصد ما أريده صراحة، وأنت كذلك. . إنها أخلاق الفرسان في كل الدنيا. . ربما تُصاب بصدمةٍ نفسيةٍ قاسية، لكن هذا أهون من الخديعة. . .

قال ابراهيم وقد تلاحقت ضربات قلبه:

ـ أنا لا أفهم شيئاً.

ـ بالطبع. . لأن هيلدا تعمَّدت إخفـاء الحقيقة الشـائنة خلف ستار من الدمـوع والعبارات المعسـولة، كيمـا تحتفظ بحبك. . لأنها فعلاً تحبك. . لا أنكر ذلك مطلقاً. . لكن أتعرف شيئاً عن علاقتها بالجنرال ديبوي؟ . .

هتف ابراهيم آغا:

ـ ديبوي؟!

ـ أجل. . ديبوي. . ذلك الذئب الـذي سلبها أعـز ما تملكـه فتاة. . سلبها شرفها. . أتفهمني؟؟

ـ مستحيل . .

قالها ابراهيم في انفعال، بينما استطرد مالوس:

ـ لـك أن تستغرب الأمـروتستبعده . . لكن كـلامي لا يحتمل الشـك . . المسكينة وقعت فـريسة ظـروف قاسيـة . . إن أبـاهـا المغرور السافل قوّاد من نوعٍ رخيص . . أنت تعرفه . . والجنرال ديبوي كان ذا مركز خطير، ودهاء من نوعٍ خبيث . . وتحت تأثير الخمر والإغراء واليأس والضياع، سقطت هيلدا . . أجل سقطت هيلدا . .

أمسك ابراهيم بكتف مالوس وصرخ في انفعالٍ ملحوظ:

ـ أنت تكذب . .

قهقه مالوس، وتردَّد صدى قهقهاته عبر الظلام الممتد، وقال:

ـ يخيَّل إليَّ أنك لم تهتز لسقوط القاهرة كما تهتز الآن لسقوط هيلدا . . .

وسادت فترة صمت، تمتم مالوس بعدها قائلاً:

ـ ثم مات ديبوي قتيلاً بأيدي الثوار في شوارع القاهرة، بعد أن نفض يده من أمر هيلدا في تبجح وصفاقة . . لقد رفض الزواج منها، عاملها كما تعامل الخادم، دفعني للزواج منها . . تحركت إليها بالأمر العسكري . . وأنت تدرك تماماً المهمة القـاسية التي أُوكلت إليَّ . . . يا لها من مأساة . . لكن المأساة الأبشع هو أني تعلقت بها . . لا أدري كيف . . لم أفقد الأمل برغم مصـارحتها لي بحبـك . . ثم عـاشت هيلدا حيـاتهـا منـذ تلك الفتـرة وهي مخمـورة . . تترنـح وتهذي وتـدوس كل االمقـدسـات إلا حبهـا

لك.. لقد عاش في قلبها.. إنني أعترف.. لم أكن أريد أن أقول هذا الكلام كله.. إنه لشيء غريب حقاً!..

انهمرت الدموع من عيني «ابراهيم آغا»، وأخذ جسده يرتجف من شدة البكاء.. كان وجه هيلدا الجميلة يرتسم في خياله ملطخاً بالأوحال، ومن خلفها تبدو صورة أبيها أشبه ما تكون بصورة شيطان قذر.. ووراء ذلك كله آلاف الوجوه الفرنسية اللعينة وكأنها تقهقه في سخرية وشماتة...

ثم استدار ابراهيم ناحية مالوس، ورمقه بنظرات نارية، ثم دفعه في عنفٍ وهو يصيح:

- إبعد عني.. أيها السفلة.. أنتم المسؤولون عن هذا الشقاء كله.. عليكم اللعنة...

ثم انطلق ابراهيم مسرعاً في خضّم الظلام الكئيب، حتى غيَّبته ستائره السوداء..

وبقي مالوس صامتاً فترة، يفكر فيما حدث، وينظر عبر الظلام باحثاً عن الطريق الممتد الغامض الذي سلكه ابراهيم، ثم انفجر ضاحكاً.. كان يضحك في هستيرية، ثم استعاد هدوءه، ولمَّ شعثه، ويمّم وجهه صوب قصر برتلمي...

عندما رأته هيلدا قالت:

- لقد عدتَ بسرعة.. أين ابراهيم؟؟ ترى هل دبَّ بينكما الشقاق؟..

قال مالوس وهو يلقي بجسده المضطرب فوق أقرب مقعد:

- لقد ذهب.. وأظنه لن يعود.

هتفت في قلق:

ـ ماذا؟؟

ـ تلك هي الحقيقة.

ـ أنت تمزح.

ـ صدقيني.. لقد كان صديقاً رائعاً بالفعل.

ـ مستحيل أن يحدث ذلك يا مالوس.. لقد كان هنا منذ فترة وجيزة، وكان يتحدث في مرحٍ وثقة، لم يكن يبدو عليه أنه يعاني قلقاً أو عذاباً يدفعه للرحيل.. تُرى هل قدتموه إلى السجن ثانية؟؟ تكلم..

هزَّ مالوس كتفه في حيرةٍ وقلق:

ـ أنا لم أستطع تفسير موقفه.. كان تحوُّلاً مفاجئاً.. أكان يخدعنا؟؟

لا أدري.. أم هل أتى من قِبْل المماليك للقيام بمهمة سرية؟؟ لا أفهم.. المهم أنه ذهب ولن يعود.. هذا ما أكده لي.

إنقضَّت عليه هيلدا وقالت وهي تضربه بلكماتها الواهنة:

ـ ولماذا لم تمنعه من ذلك؟؟ لماذ لم تحضره إلى هنا بالقوة؟؟ إنني أتهمك بالتواطؤ معه.. أنت تنتقم مني أيها الخبيث لأني احتقرتك ودستُ عواطفك.. يجب أن تفهم.. لن أكون لك.. مستحيل أن أكون لك..

ومرَّت إلى حجرتها، وتناهى أنينها الحزين إلى سمع مالوس وهو يجلس مرتبكاً وحيداً حزيناً في حجرة الاستقبال، لا يدري

ماذا يفعل . . .

●

في حجرة منزوية بالأزهر الشريف. . جلس ابراهيم ينادمه أساه العميق. . لقد كان حقده على برتلمي أكثر من حقده على ديبوي. . إن خطيئته في حق ابنته من نوعٍ شاذٍ غريب. . وهيلدا هي الأخرى. . الذكريات الحلوة. . العهود والمواثيق. . بنت «فرط الرمان» الحلوة الساذجة. . الأحلام الوردية التي يحيا بها في أقاصي الصعيد وعلى سفوح الجبال. . كل هذا ذهب مع الريح العاصفة المحملة بالتراب والأوبئة والخطايا. . تلك الريح التي وفدت من الغرب تتضمن في ثناياها الأسى والعذاب. . لقد كان يفكر في قتل برتلمي من أجل خيانته للأسرة الكبيرة ـ الوطن ـ لكنه اليوم خان الأسرة الصغيرة، إبنته الوحيدة. . هذا المخلوق الشائن «برتلمي» لكأنما خُلق من كل نقائص الحياة ورذائلها. . فلمَ يعيش بعد هذا كله؟؟ أليس الموت أبسط عقوبة توجه إليه؟؟

لكن الحقيقة المُرَّة تصدم. . ابراهيم. .

إن برتلمي يعرفه جيداً. . وبرتلمي حوله مجموعة من الرجال اليقظين، فكيف يخترق هذا الحصار المضروب؟. . إن ابراهيم في مأزق، ويجب أن يفكر بحذرٍ وروية. . وقد ينقضُّ عليه برتلمي في غفلةٍ ويقضي عليه. . إنه خائن ملعون. . أصبح البقاء في القاهرة تهاوناً وتفريطاً. . لا بد أن يرحل ابراهيم مرة أخرى

إلى الصعيد . . هناك معركة . . وهنا معركة . . لكنهما في الحقيقة معركة واحدة . . فلسوف يعود إلى «مراد بك» ورجاله ليحارب الفرنسيين . . وعندما تحين الفرصة فلسوف يأتي ثانية إلى القاهرة، لينتقم من رأس الأفعى . . برتلمي اللعين . . .

٣٧

أقبل الحاج مصطفى على حيّ بولاق في شغفٍ بالغ، لقد أصبح للحياة مذاق جديد رائع، والحرمان الشديد جعله يوشك أن يندفع لمعانقة كل مَن في الشارع، حتى الأشجار والبيوت والحيوانات يجد رغبة عارمة في لثمها واحتضانها . . إنه لا يشعر برغبةٍ في النوم أو تناول الطعام، إنه يريد أن يستمتع بكل لحظة وكل كلمة وكل مشهد أمامه . . روحه جائعة لكل الكائنات . . لكأنما الحرية والحب والحياة شيء واحد . . لوحة رائعة يتلاءم فيها جمال الألوان بحسن التنسيق وعظمة التعبير . . لعنة الله عليك يا برتلمي، أيتها اللوحة الملطخة بالسواد . . .

قالت زوجه:

ـ نحمد الله على أن عدت إلينا سالماً.

أجابها بقوله:

ـ بل عدت وفي قلبي أطنان من الحقد المتقِّد.

صاحت في إحتجاج:

ـ ماذا جرى لعقلك يا حاج مصطفى؟؟ لقد ضحّينا بكل ما نملك حتى تعود إلينا، وكنت أعتقد أن ما قاسيناه في غيبتك، وما

تعرضت له من إيذاء في السجن، سوف يغيِّران من طريقتك في التفكير والتصرف.

قال الحاج وهو يصرُّ على أسنانه من الغيظ:

ـ أعرف كل ذلك.. لقد تغيرت فعلاً.. آمنت للمرة المائة أنه لا حياة بدون حرية، ولا ضمان في وجود المحتلين، ولا كرامة بغير الثورة.

هتفت في رعب:

ـ ماذا دهاك؟!

قال كالحالم وقد شحب وجهه:

ـ السياط على ظهري تصرخ بالثأر.. وضحايا الظلام في القلعة لهم نداء من نوعٍ غريبٍ أسمعه فيهز كياني، ويحرق مشاعري.. كنا بالنسبة لبرتلمي غير آدميين بالمرة، مجرد حيوانات.. لا.. لا.. أقل من الحيوانات.. أنتم هنا تتنفسون وتنامون وتمارسون حياة نظيفة.. إنني أدور بنظراتي في أنحاء بيتي الرحب النظيف.. وأشم رائحة الشواء.. وأفعل ما يحلو لي.. وهناك.. في ذلك الوادي الرهيب.. القلعة.. مجموعة من الأبرياء يحيون أحط حياة.. سلِّم على الحبايب يا حاج مصطفى.. لا تنسَنا يا حاج مصطفى.. دعواتك يا حاج مصطفى... هكذا كانوا يودعونني.. كانت العيون الدامعة ترمقني في أسى، المصير المجهول المعذب يرتسم على الجباه الشاحبة التي هدَّها الظلام والرعب والتعذيب... ماذا تقولين يا امرأة؟؟ تريدين أن ألزم بيتي وأتناول طعامي وشرابي.. ثم أنام

مـرتاح الضمـيـر. . يـا ليت!! صـدى الأنين يـدقُّ أُذني ويتخلل روحي ودمي. .

وحانت منه التفاتة إليها، فوجد الدموع تنهمر على خدّيها في صمت، وبدت لعينيه مسكينة تعسة، فقال في رقة:

ـ ما يبكيكِ يا زوجتي؟. .

أجابته قائلة:

ـ لشدّ ما أنا سعيدة بعودتك سالماً.

هزَّ رأسه قائلاً:

ـ أعرف ذلك. . .

فأردفت قائلة:

ـ وهذا لا يعني أن قلبي قد قُدَّ من حجر فلا آسى على الذين يتعذبون. . لكن إلى متى أظل رهينة الخوف والقلق؟. . إن قلبي لم يعد يحتمل. . .

و. . نقرات خفيفة على الباب. . وقَدِمَ الحسين، وأخبـر أباه أن الجنجيهي والشيخ ابراهيم سـلامه في الانتـظار. كان لقـاءً عامراً بالمشاعر الفيَّاضة. . وقبل أن يجلس هتف الجنجيهي:

ـ ألم تسمع آخر الأنباء؟

تطلعت إليه الوجوه المتلهفة، فاستطرد:

ـ سـوف تضحكـون كثيـراً حتى تستلقـوا على أقفيتكم من الضحك. . إنها مفاجأة المفاجآت. . .

صاحوا بصوتٍ واحد:

ـ ماذا؟؟

ـ لقد عاد المنحوس «أحمد المدبولي».

وصاحوا ثانية:

ـ كيف؟؟

ـ لقد استطاع نابليون أن يقبض على الهاربين المصريين في يافا.. وعندما فشل في احتلال عكا، عاد ومعه بعض الأسرى، وكذلك بعض السادة الهاربين، وفيهم السيد عمر مكرم، وحضرة المحترم أحمد أفندي المدبولي تاجر البارود.. لقد حضر إلى بيته القديم المنهوب وهو يرتجف، على الرغم من حسن معاملة نابليون لهم، وإعطائهم وعداً قاطعاً بأنهم لن يُمَسّوا بأذى.

قال البشتيلي:

ـ ولمَ لم يأتِ؟..

جلس الشيخ علي الجنجيهي، ثم قال وهو يهزُّ رأسه هزّات متئدة وقال:

ـ إنه في بيته لا يريم.. يقولون إنهم قد حققوا معه هل اتصل بأحدٍ من ضباط السلطان أم لا؟ وهل لديه أية معلومات عن تحركات تركيا في الشام؟.. وأخذوا عليه تعهداً مكتوباً بألا يمارس أي نشاط ضد الفرنسيين، وأن يحاول تهدئة الجماهير، والإبلاغ عن أية حركات يشتمّ منها رائحة الثورة.

هزّ البشتيلي رأسه قائلاً:

ـ لقد جنّدوه جاسوساً لهم.

قال الجنجيهي:

ـ على الرغم من الصداقة التي تربط بيننا وبينه، إلا أنني أعتقد أنه على استعداد لأن يبيع أباه للحفاظ على حياته.. إنه يخاف السجن والموت أكثر مما يخاف من نار الجحيم.. ورأيي أن نقطع صلتنا به.

وعلّق الشيخ ابراهيم سلامه قائلاً:

ـ إنها فتن كقطع الليل المظلم، نجانا الله منها».

والتقط الجنجيهي خيط الحديث وقال:

ـ هناك شائعات تقول أن ساري عسكر نابليون قد ترك الديار المصرية، وترك نائبه كليبر خليفة عنه، نظراً لاضطراب الأمور في فرنسا. والعائدون من الشام يؤكدون أن الإنجليز والأتراك يدبرون أمورهم لغزو الديار المصرية وطرد الفرنسيين منها...

وكان اتفاق الجميع يكاد يكون تاماً على أن الأيام المقبلة تحمل في ثناياها أحداثاً جساماً، وأن البلد مقدم على أخطار بالغة لا يعلم إلا الله مداها.. ثم طلبوا من البشتيلي أن يحكي لهم ما رآه في السجن، فأظهر تردداً وعزوفاً عن ذلك، فأراد الجنجيهي أن يستثيره كي يدفعه إلى الكلام دفعاً، فاتهمه بالخوف من العيون التي يبثها برتلمي، وتمتم:

ـ «ليس فينا جاسوس على أية حال».

قال البشتيلي وهو يشرد بنظراته:

ـ السجن أيها الأصدقاء عالم معزول.. دنيا من الانحراف والخطايا والانحطاط.. برتلمي أستاذ ضليع من أساتذة السفالة في العالم.. الأحداث الجارية تخلق مثل هذه الكائنات

الشائهة. . وتخلق في نفس الوقت رجالاً يرفعون جباههم في إباء تصدِّياً لخطايا الطغاة. . وفي السجن أيها الأصدقاء، إما أن تهتز القيَم وتضطرب المبادىء أمام أعين المكافحين، أو تزيدهم صلابة وإصراراً. . إنها ـ بالاختصار ـ تجربة مريرة عنيفة. . أنين. . دموع. . دماء. . رؤى مزعجة. . يأس مطبق. . ماذا أقول؟؟ دعوا هذا الأمر فإن قلبي يبكي. . الأيدي العجفاء المعروقة كانت تلوح لي وأنا خارج عبر البوابة السوداء. . الكلمات المتعثرة الحزينة تصدم قلبي. . ما أبشع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان!. .

وسادت فترة صمت. . وتربَّع الجنجيهي في مكانه، ووضع يده اليمنى على يمين وجهه، ثم تنحنح وسعل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وسمّى باسم الله الرحمن الرحيم، وأخذ يترنم :

ـ «لقد كان سقط في يوسف وإخوته آيات للسائلين . . . » .

والجميع صامتون يتمايلون في تأثير وهم يستمعون إلى صوته الرخيم يرتل آيات سورة يوسف.

٢٨

كان برتلمي يثق بقوة نابليون أكثر من ثقته بأي شيء في الوجود، إنه نوع آخر من العبادة، لأنه ليس مجرد تعشق للبطولة والأبطال، وقد كاد يسقط انهياراً عندما علم برحيله إلى فرنسا. . وعاد برتلمي إلى البيت صاخباً حانقاً، وهو يهتف:

ـ إن هذه الثقة المفرطة بالنفس التي يعتصم بها الفرنسيون قد تجاوزت حدودها، وقد تجلب عليهم الوبال. . كيف يسافر نابليون بعد هزيمته أمام أسوار عكا، وبعد أن ضحّى بالكثير من الجنود؟؟ إنه يسافر دون أن يساوره أدنى شك في احتمالات المستقبل. . وهذا خطأ. . ليس بين القواد مَن يستطيع أن يحل محله، أو يفكر مثل تفكيره الممتاز. . هذا الذي يهزأ بالهزائم، ويُحيلها إلى نصر، والذي لا تستطيع أقوى النكبات أن تنال من أحلامه وطموحه. . وهيهات أن يكون كليبر مثل نابليون! . .

قال مالوس الذي يجلس قبالته:

ـ إن لكليبر ماضياً عظيماً، لقد حقق انتصارات كبرى في أوربا. . ثم إن نابليون قد يعود ثانية، ولسوف يكون أكثر تقديراً لظروفنا في مصر، ولن يتوانى عن إرسال النجدات والمؤن والذخيرة اللازمة.

هزّ برتلمي رأسه وقال:

ـ إن رحيله خسارة كبرى مهما كان الأمر. فالأعداء يحيطون بنا من كل جانب. . الأتراك. . الإنجليز. . الثوار في مصر. . المتسللون من أنحاء العالم العربي والإسلامي. . .

وخرجت هيلدا محتقنة العينين وقالت بصوتٍ مرتعش:

ـ أين ذهب ابراهيم؟

قال أبوها:

ـ لقد رحل نابليون. .

صاحت:

ـ إلى الجحيم . . إنني أسأل عن ابراهيم . .
أجابها :
ـ إن ما نقاسيه من حيرةٍ بسبب رحيـل نابليـون أهم بكثير من فتى شريد كـابراهيم . . لقـد تركـكِ وهرب . . هـذا كل مـا في الأمر . . إتخذكِ النـذل وسيلة لتحقيق أطماعـه، محاولاً الكشف عن بعض أسراري . . كان غباءً منـي أنْ أفتح لـه بيتي . . لكن ماذا كنت فاعلاً أمام إلحاحك؟ . . لو فكرتِ يا ابنتي برويةٍ لَما خدعنا هذا الصعلوك المتمرد . . وأخيراً تأتين لتسألي عنه، وكان الأحـرى بكِ أن تبصقي على ذكراه وادِّعاءاته في الحب والإخلاص .
قالت في انفعال :
ـ معذرة يا أبي ، لم أعد أثق في كلامكم .
تدخَّل مالوس قائلاً :
ـ يجب أن تهـدئي يـا هيلدا . . أنتِ تـوجهين إلينـا اتهـامـاً خطيراً . . ثم لا تنسي أنكِ تخاطبين أباكِ . . يجب أن تضعي هذا فوق كل اعتبار .
قالت هيلدا :
ـ وما ذنبي؟؟ أنتم تدفعونني إلى التشكك في كل شيء . . ألم تخبرني يا أبي أنه قد مات، وأقسمتَ على ذلك؟ . . ثم ها هو قد عـاد . . أنتم تحكمـون على الأمـور حسب هـواكم، من وجهـة نـظركم البحتة . . تـريدون أن تمضي الحيـاة حسبما تـرغبـون، متجاهلين إرادة الآخرين وأمانيهم . . فمعذرة إن كنت أشعر بهوّة ساحقة تفصل بيني وبينكم، حتى لكأني غريبة هنا عن كل شيء .

احتقن وجه برتلمي وصرخ:

ـ لا.. لا.. هذا كثير.

قال الكابتن مالوس:

ـ يجب أن تعتذري لأبيكِ.

زمّت شفتيها وقالت:

ـ إنني أستطيع أن أقول كلاماً كثيراً من طرف اللسان، لكن ما قيمته؟ إنه خداع رخيص، وأنا أكره الخداع، ومن ثم فلا يمكن أن أغش أبي، إنني ببساطة أعبّر عن حقيقة مشاعري.

قال مالوس:

ـ حتى ولو سبّبتِ إيذاءً وجرحاً لمشاعر الآخرين؟

ـ عزائي أنني أقول الحقيقة، فإذا كان قولها يؤذي فما ذنبي؟ إن الذنب ليس ذنبي.

وأعطتهم ظهرها وانصرفت، وعادت إلى حجرتها حزينة كئيبة، تستشعر فراغاً رهيباً، يمتد أمام خيالها المكدود كليلٍ طويلٍ صامت محيِّر، تحوطه الألغاز والخيالات المرعبة.. لشدّ ما أصبحت الحياة ثقيلة سمجة، لم تعد تجد العزاء لدى أبيها الغريب الطباع والأطوار، وليس في إمكانها أن تأنس لمالوس، ثم إنها تتجرّع صحبة المرأة التي جلبها أبوها من الرقيق الأبيض على الرغم منها، فأين الصدر الحنون الذي تأوي إليه، وقد رحل ابراهيم في ظروفٍ غامضة مريبة؟.. إن قلبها يحدثها أن هناك مؤامرة دنيئة دبرت بليل، وأن وراء المؤامرة خِسّة أبيها ونذالة مالوس.. وهيلدا لن تتقبل الطعنة، لسوف تحاول مرة واحدة أن

تستغل دهاءها. . إنها تريد الوصول إلى الحقيقة التي تكمن وراء اختفاء ابراهيم المفاجىء، لأنها لا تؤمن بما زعموه عن دوره المشبوه، إن ابراهيم ليس جاسوساً، ولنفترض أنه كذلك، ليكن. . فهو يؤدي واجباً وطنياً. . ومع ذلك فمستحيل أن يختفي هكذا فجأة. . لقد كانت البسمة فوق شفتيه، وكانت السعادة بادية على وجهه يوم أن خرج. . أيّ تحوُّل خطير أصابه؟. .

تسلل الكابتن مالوس إلى مخدعها، فقالت في شيءٍ يشبه الغضب عندما رأته:

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال في تذلل:

ـ إنه حبي يا هيلدا. . تعرفين أنني خادمكِ المطيع، وأنني على استعدادٍ لأن أفديكِ بروحي يا أحبَ إنسانة في الوجود.

قالت وهي تغتصب ابتسامة شاحبة:

ـ ألهذه الدرجة؟!

أجابها قائلاً:

ـ إنني أعبدكِ يا حبيبتي. . أُحبكِ برغم ما فيكِ من عناد وكبرياء وتجاهل بالنسبة لعواطفي الفيّاضة. . كنتُ أتقبل الإساءة بصدرٍ رحب، والحب يغفر الكثير يا هيلدا. . ما نظرتُ إليكِ قط على أنك مجرد متعة زمنية. . أنتِ حياة كاملة بالنسبة لي، لقد اتسعت روحك حتى شملت الوجود من حولي فلا أكاد أتنفس إلا عبيرك، ولا أرى أمام عينيّ وفي خيالي إلا صورتكِ الجميلة. . .

تنهدت قائلة:

ـ تتحدث وكأنك تقرأ في كتاب أحد الروائيين في فـرنسا ، يـا مراهقي الكبير . . . هل نسيت أنني امرأة لها ماضٍ ؟؟

قال مالوس:

ـ إن الحاضر الجميل الذي أعيشه إلى جوارك، قد صهر في بوتقته الماضي والمستقبل، حتى أصبح حاضرنا بلا حدود.

ـ إنها كلمات شاعر.

ـ هل حدث في سابق علاقتي بكِ ما يشكك في مشاعري؟

قالت هيلدا:

ـ إنني أستطيع أن أسمع هذا الكلام من أي معجب بجمالي.

هتف في إصرار:

ـ كلا . . .

ضحكت في خلاعةٍ وقالت:

ـ وما دليلك؟

تردّد قليلاً ثم قال:

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ قد تغضبين.

ـ أعدك بألا أغضب. . إنني أميل إليك يا مالوس، فلا يصحُّ أن تخفي عني شيئاً. . إن كلماتـك الغنية بـالعواطف الملتهبـة تجعلني أُعيد النظر في أمرك.

صمت برهة، وعيناها ترمقانه في لهفة، ثم قال:

ـ ليس ما حدث نذالة مني على أية حال، لقد كان الدافع إليه

نبيلاً، وهو أنني أريدكِ لنفسي.. ومع ذلك فقد كشفت لي التجربة عن حماقة «ابراهيم آغا» وكذب إدّعاءاته نحوك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني.. أعني..

ـ قل لا تخف.

قال مالوس وقد احتقن وجهه وارتعشت أطرافه:

ـ حسناً.. اعذريني.. إن الغيرة قاتلة.. لقد أخبرته بما حدث بينك وبين الجنرال ديبوي.. فثار ثورة عارمة، وسبّ ولعن، ثم ولىّ هارباً وقال أنه لن يعود ثانية.

هتفت في انهيار:

ـ أنت؟!

ـ أجل يا حبيبتي.. لم يستطع المأفون الأحمق أن يغفر لكِ مثلما فعلت أنا الآن.. وهذا هو دليلي على إخلاص وصدق كلماتي.

صرخت وهي تصرُّ على أسنانها في غيظٍ قاتل:

ـ أخرج من هنا أيها الوغد السافل.

ـ ماذا؟!

ـ قلت لك.. أخرج.. أخرج وإلا حطمت جمجمتك بحذائي!..

وانسحب مالوس، والعرق الغزير يتساقط على وجهه ويبلل قميصه، كان يمشي كالتائه المذهول.. وقابله برتلمي قائلاً:

ـ ماذا جرى؟

فروى مالوس القصة بتفاصيلها لبرتلمي، وكان مفاجأة لـه أن يحتقن وجه برتلمي، ويبدو الغضب على وجهه، ويصيح:

ـ مـاذا؟؟ هـل جننت؟؟ أنسيت أنهـا ابنتي؟؟ فكيف تلطخ سمعتها في الأوحال؟؟ ماذا يقول الناس عني وعنها؟.. إنني أكره ابراهيم أشد الكره، لكني ما رغبت قط أن يعرف الحقيقة.. إنها مسألة كرامة أيها الطفل الغرير.. والآن تستطيع أن تغادر بيتي دون إبطاء.

وقف مالوس وقد ثارت الدماء في رأسه وقال:

ـ أنت توجه إهانة بالغة لضابط من ضباط الجيش الفـرنسي، ثـم لا تنسَ أنك تسترتَ على مملوك هارب.

قهقه برتلمي قائلاً:

ـ هذا لا يخفى عني يا عزيزي.. إنني أتصرف حسبما تقتضيه مصلحة الجيش الفرنسي، وقد كان في نيّتي أن أستغل «ابراهيم آغا» في عملٍ يخدم به فرنسا.. لكن حماقتك هي التي جعلته يفلت منا قبل أن نتم خطتنا.. لقد كنا نريد أن تسوّى علاقتنا مع المماليك عن طريقه، ونضمهم إلى صفوفنا، لكنك تصرفتَ في رعونة، ومن ثم فـلا بد من محـاسبتك بشـدّة.. والقيادة العليـا كانت تعلم كل شيء.. لسوف أبذل جهدي للبحث عن ابراهيم آغا، لكني سأطلب من القيادة معاقبتك.

طأطأ الكابتن مالوس رأسه في أسى، ثم انصرف محنقاً...

٦٩

أعـاد كليبر النـظر فيما حـوله، محـاولاً تقييم الموقف تقييمـاً دقيقاً، ماذا رأى؟ الترك والإنجليز يتحفـزون، والشعب المصري لا يكنُّ لـه ولجنوده سـوى الكراهيـة، وبالتـأكيد سـوف يتعرض الفرنسيون لمعركة عاصفة قد تقضي على زهرة شبابهم ومشاهير قوادهم.. إن القائد الذي لا يفكر في أبعاد المعركة واحتمالاتها قائد فاشل، إذ ليست المعركة كرّاً وفرّاً فحسب، وإنمـا تحكمها الـظروف والأهداف والنتـائج، ومـا جدوى أن تخـوض معـركـة فاشلة؟؟

واجتمـع كليبر مـع نخبةٍ من ضبـاطه، وكـان بينهم «بـرتلمي الرومي»، قال كليبر:

- أيهـا السادة الأصـدقاء.. إن مصـر - بـالـرغم من السكـون الظاهر الذي شملها - لا تعتبر إلا مذعنـة لحكم القوة، والشعب المصري موزع الفكـر، قلق على مصيره، ولا يـرى فينا - مهمـا فعلنا - إلا أعداء مُلكـه ومالـه، وقلبه متجـه دائماً إلى الأمـل في حدوث الإنقلاب الذي يتوقعه.

تمتم برتلمي لنفسه قائلاً، دون أن يسمعه أحد:

- «آه.. لقـد صحّ مـا توقعتـه.. إنني أشمُّ في كلامـك أيهـا الخائف رائحة الجبن»..

قال رئيس أركان حرب الحملة «الجنرال داماس»:

ـ ماذا يعني سيدي القائد؟

ـ أعني أنني أفكر في البشر، في هؤلاء الجنود، قبل أن أفكر في أي مجد شخصي.

قال برتلمي:

ـ كلنا فداء فرنسا.

قال كليبر:

ـ نحن فرنسا.. إن الوطن ليس مجرد رقعة أرض.. إنه مجموعة البشر القاطنين فيه، بآمالهم وأفكارهم ونضالهم.. وللتضحيات أهدافها وغاياتها النبيلة.. لم أكن لأقول هذا الكلام لو كان العدوان يقع على الوطن الأم.. إننا أتينا هنا لنفتح أسواقاً جديدة، ولنحقق مجداً قومياً.. من أجل مَن؟ من أجل الفرنسيين، وليس من المعقول أن نضحي بهم من أجل المجد الذي ننشده لهم.. ثم إن حملتنا جاءت إلى هنا مبكرة بعض الشيء.. لقد كنت من أنصار غزو مصر في الماضي، غير أنه تبين لي أن الوقت لم يحن بعد لذلك.

وصمت برهة ثم قال:

ـ إنني أخسر الكثير من سمعتي الحربية، حينما أُعلن أمامكم الآن أنني على استعداد للتفاوض مع الأتراك والإنجليز، على أساس الجلاء بقواتنا ومعدّاتنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

قال برتلمي:

ـ إن هذا الموقف قد يُغضب حكومة الدير كتوار في فرنسا.

قال كليبر:

ـ لا تنسَ يا برتلمي أن نابليون كان يفكر في شيء من هذا القبيل ، ولعلّي لا أُذيع سرّاً حينما أقرِّر الآن أنه قد أرسل رسالة بهذا المعنى ، وهو في مصر ، إلى السلطان في تركيا وإلى حكومة الدير كتوار .

واحتدم الجدل بين رجال القيادة، فالضباط المتحمسون يرفضون المفاوضات ويصرُّون على الاستمرار في احتلال مصر، ويرددون وعد نابليون بإرسال المدد والمؤن والذخائر، والعقلاء يميلون لرأي كليبر ويؤيدونه، وطائفة ثالثة جلست ترقب المناقشات في حيرةٍ لا تعرف أية وجهة تتخذها. . وهتف برتلمي وهو يرتجف من الغيظ:

ـ لقد ضاع كل شيء إذن. . إننا بذلك نتنكر لشهدائنا الأبطال وللدماء الغالية التي سالت على ثرى وادي النيل، في المدن والقرى والوديان والجبال، ونعطي فرصة عظمى للشامتين والحاقدين.

هزَّ كليبر رأسه، وهو يسدِّد نظرات ثابتة نحو برتلمي، وقال:

ـ إنني أعني ما أقول يا برتلمي، وكل الاعتبارات واضحة في ذهني تمام الوضوح. . من الخير لنا ولفرنسا أن نجلو عن وادي النيل، انتظاراً لفرصة أخرى. . .

قال برتلمي في إصرار:

ـ معذرة سيدي الجنرال، إن الجلاء كارثة كبرى.

وبانت علامات الإهتمام والإصرار على وجه كليبر وهو يقول:

ـ برتلمي.. أنت لا تفكر في مجد فرنسا بقدر ما تفكر في نفسك.

كاد برتلمي يصعق من هذه اللهجة الحازمة، بل إن الحقيقة المُرَّة التي صدمته هي التي أذهلته، لا يفكر إلا في نفسه!! يا للكارثة!! أهذا هو رأيهم فيه؟.. إنه أيضاً رأي ابنته هيلدا، تلك الشيطانة الصغيرة.

ثم التفت إلى كليبر وقال:

ـ سيدي القائد، إنني أضحي عن عقيدة بكم، وأبذل كل ما في وسعي عن طيب خاطر قبل الحملة وأثناءها.. وسأظل على عهدي مهما كانت الأحوال.

وأدرك كليبر قسوة العبارة التي وجّهها إلى برتلمي، فعاد يقول:

ـ إن فرنسا تدرك خدماتك العظيمة، وستضع على صدرك أرفع نياشينها، لكنني أفكر في الجلاء لاعتبارات عليا.. ألم أقل لك إن الجلاء على يدي سوف يؤذي سمعتي الحربية أشد الإيذاء؟.. أنت كذلك.. هؤلاء الضباط والجنود سيتعرضون لنفس الأذى.. لكن الاعتبارات الإنسانية والسياسية تملي علينا تصرفات لا نستطيع الهروب منها يا برتلمي.

●

مضى برتلمي في شوارع القاهرة الواسعة يترنح، ضباب كثيف يخيم على رأسه، إنه يرمق السائرين في الطرقات بنظرات نارية،

هل سيأتي اليوم الذي يعجز فيه عن أن يصدر أوامره فتنحني الرؤوس، وتُضرب الأعناق، وتلهب السياط الظهور، ويُساق الناس أفواجاً إلى السجون الدامية؟؟ لن يقف الأذلاء ببيتي يذرفون الدموع ويطلبون الصفح والغفران.. والكارثة الكبرى، هل أستطيع أن أبقى هنا بعد رحيل الفرنسيين؟؟ إن كل شيء ينهار.. نبوءات الملعونة الصغيرة هيلدا تتحقق.. فقراء القاهرة الذين يهرولون حُفاة أشباه عُراة ينتصرون.. يا للمهزلة!!.. شيوخ الأزهر سوف يسيرون في مواكب النصر رافعين الأعلام، والطبول تصمُّ الآذان.. نداءات الغوغاء «الله أكبر.. الله أكبر» يتردد صداها في الآفاق.. ماذا جرى؟ أيمكن أن يحدث ذلك؟ إن الموت لأهون من الرضى بهذا الهوان، لسوف أسطر رسالة إلى نابليون وإلى حكومة الديركتوار أشرح فيها الأمر على حقيقته.. أم أندسّ في صفوف الضباط الفرنسيين المتحمسين وأحرِّضهم على عصيان كليبر والإنضمام لمنافسيه، وركله خارج القيادة؟؟ أم أنضم إلى ثوار القاهرة وأتراكها ومماليكها قبل فوات الأوان؟؟ لا.. لا.. هذه احتمالات سخيفة.. إنني أشعر بالاختناق.. إن السياط الحارقة لأهون من هذا الضيق القاتل الذي أعانيه.. ماذا أفعل يا ربي؟ أشعر أن الطريق أمامي مغلق، وفي نهايته تنتصب أشباح الخوف واليأس والعذاب والضياع.. إنه عقاب لا مثيل له في الوجود...

ودخل بيته متوتراً شاحب الوجه، وهتف والدموع في عينيه:

- إليَّ يا هيلدا الحبيبة.. إن أباكِ يوشك أن يقضي نحبه.

أتت هيلدا مهرولة، وهي تقول في لهفة:

ـ ما بك يا أبي؟

ـ أشعر بألمٍ خانق في صدري.

ووضع يده على صدره اللاهث وقال:

ـ ليتني أموت كي أستريح مما أعانيه.

قالت هيلدا:

ـ أنا لا أفهم شيئاً.. إذا كنت مريضاً فلماذا لا تستدعي كبير أطباء الحملة المسيو «ديجنت»؟

قال في ثورة:

ـ لعنة الله عليهم جميعاً.. هذا الثور الجبان المدعو كليبر ينوي الفرار.

ـ ماذا؟!

ـ ألم أقل لكِ عندما رحل نابليون أن قلبي يحدثني بأن المستقبل مشحون بالكوارث؟.. كليبر يريد التفاوض مع الأتراك على أساس الجلاء عن مصر.. تصوّري!..

تدفقت فرحة مباغتة في قلبها، فأنعشت روحها، فحاولت أن تداري انفعالاتها وقالت:

ـ معنى ذلك أن يعود الأمر للأتراك والمماليك.

قال برتلمي:

ـ أجل.. ويعود ابراهيم آغا.. وعلينا ـ أنا وأنتِ ـ أن ننتحر أو نرحل مع الراحلين إلى فرنسا.. كي نعيش كلاجئين نمضغ الأحزان والوهم والذكريات.. مستحيل أن يحدث ذلك يا

هيلدا.

لم تستطع هيلدا أن تعلق بشيء على الفور، لكنها قالت بعد فترة صمت:

- لعل ظروفاً قهرية تدفع كليبر للتفكير في الجلاء.

صاح في انفعال:

- أنتِ تتحدثين مثله تماماً، أية ظروف تلك؟؟ إنه يريد الهروب بجلده لأنه جبان، ولأنه لا يريد أن يدفع ضريبة المجد، ثم إنه خلق آخر غير نابليون العظيم.. إن هذا المأفون سوف يفرُّ بجلده، لكنه سوف يلتصق به عار الأبد.

طأطأت رأسها في خشية وتمتمت:

- أنت تتكلم يا أبي كمحارب شجاع، وهو يتصرف كسياسي لبق.

قال بحدة:

- إنه جبان ولا شيء غير ذلك..

وطرق الباب أحد الخدم، ثم قال بصوتٍ خفيض:

- إن مالوس ينتظر الأمر بالدخول.

صاح برتلمي:

- ما الذي أتى بهذا المجنون التافه؟؟ لقد أمرته ألا يعود إلى هنا ثانية..

ثم تنهد في غيظٍ وقال:

- لكن.. دعه يدخل..

ثم التفت إلى هيلدا قائلاً:

ـ إذا لم يكن لديكِ مانع.

قالت هيلدا في حزم:

ـ إن وجوده كعدمه.. لقد انتهى أمره بالنسبة لي.

دخل مالوس، يضفي الشحوب على وجهه غلالة شفافة لا تخفي انفعالاته، وقال بصوتٍ مضطرب:

ـ معذرة إن كنت قد أتيت في وقتٍ غير مناسب.

قال برتلمي:

ـ إجلس أيها المجنون، ولا داعي لهذا الارتباك.. هل علمتَ ما حدث الليلة؟..

قال مالوس، وقد شعر بقليلٍ من الارتياح:

ـ ماذا؟

ـ القائد الهمام كليبر ينوي الجلاء.

ـ الجلاء!..

ـ أجل، لسوف تبدأ المفاوضات مع مندوب الصدر الأعظم.. وسينتهي كل شيء.. أجل كل شيء.. ما كنت أتصور أن الجنود التي دوّخت أوربا، وحققت الانتصارات المذهلة، سوف تنهار هكذا فجأة وتستسلم!.. أنتم تطعنون أصدقاءكم، وتبعثون السعادة في قلوب أعدائكم.

قال الكابتن مالوس:

ـ لا أعتقد أنه قرار نهائي، إن باريس لا بد أن يكون لها رأي، ونابليون هو الآخر رأيه فوق كل اعتبار، والمفاوضات قد تطول وقد تفشل، وقد تجدّ أمور تفسد كل التخطيطات. أشياء كثيرة

رأيناها طوال المعارك المتعددة خلال السنوات الماضية.

رمقه برتلمي بعيني ذئب، بعد أن انصرفت هيلدا، ثم قال:

ـ مالوس، أنت تتكلم بمنتهى العقل والاتزان، لأول مرة أسمع الليلة كلاماً يبعث في نفسي شيئاً من الراحة والاطمئنان.. إذا لم تفسد الأقدار مخططات كليبر، فعلينا أن نفسدها نحن، من أجل سمعة الإمبراطورية، ومن أجل مجد فرنسا.

وأخذ برتلمي يقهقه، ثم صاح طالباً الخمر والطعام، وقد شعر برغبةٍ شديدة لأن يلتهم عشاءه التهاماً.

٣٥

تمتم الحاج مصطفى البشتيلي شارداً:

ـ «لك الملك وحدك يا صاحب الحَوْل والطَّوْل».

والتفت إلى زوجه قائلاً:

ـ لقد وقَّع الفرنسيون إتفاقية الجلاء مع الأتراك، وأخذ المماليك والأتراك يتدفقون إلى المدن والأقاليم والقاهرة.. مَن كان يظن ذلك؟؟ لكن الرواية لم تتم فصولاً يا زوجتي.. تصَّوري منذ أن قدم الأتراك وهم يمارسون سلطاتهم القديمة في تبجُّح وغطرسة، وكأنهم لم يتلقوا درساً قاسياً.. إنهم يفرضون الضرائب، ويبذلون الوعود، ويشمخون بأنوفهم التي مرغها نابليون في الرغام، سيعيدون المأساة من جديد، صدِّقيني يا زوجتي.. الناس في الشوارع لا يستشعرون مذاق الفرحة الحقيقية، إذ ما معنى أن يرحل طاغية، ويأتي الطاغية القديم؟؟

المماليك أتباع مراد بك وابراهيم بك قد أقبلوا من الصعيد ومن ناحية الشرق، ليعودوا إلى أماكنهم ويمارسوا سلطانهم القديم.. والشعب، الشعب صاحب التضحيات الذي قاسى وتعذب وبذل الكثير، يرقب الأحداث في قلقٍ وأسى.. لسوف يرحل الفرنسيون دون أن أشفي غليلي منهم...

قاطعته زوجه قائلة:

ـ عجيب أمرك يا حاج مصطفى، ألا تحمد الله على رحيلهم؟! أم تراك تريد أن تشعل نيران الحرب حتى تثأر لنفسك وللضحايا، إن هزيمتهم هي العقاب الإلهي.. وكفى.

وهمست زينب في حزن:

ـ ستعود المياه إلى مجاريها، لكن «مصطفى الفرماوي» لن يعود.. لسوف تدق طبول الحرية والنصر وهو راقد في قبره لا يشعر بشيء.

ربَّت على كتفها في حنان وقال:

ـ لا تحزني يا ابنتي.. إنه أدّى دوره كأروع ما يكون الأداء، ولا شك أن ما سينعم به الناس من الحرية والكرامة كان من صنع يديه ويديّ أمثاله، «والله لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً».

وانبرى الحسين قائلاً:

ـ يجب أن تستمر المعركة ضد الأتراك والمماليك، حتى تخلص بلادنا لأصحابها الحقيقيين، ولقد سمعت السيد عمر مكرم يتحدث بشيء من هذا القبيل، ومن ثم فلا سلام ولا اطمئنان قبل سنوات من الصراع والتضحيات.

هزّ الحاج مصطفى رأسه قائلاً:

ـ هذا عين الصواب.

لكن صوت علي الجنجيهي يتردد في أروقة المنزل قائلاً:

ـ يا ساتر.. أين أنت يا حاج مصطفى؟..

وتقدرون فتضحك الأقدار وعند جهينة الخبر اليقينُ

هرول إليه الحاج مصطفى قائلاً:

ـ ماذا وراءك من أخبار؟

قال الجنجيهي وهو يشدُّ على يد الحاج مصطفى مصافحاً:

ـ «إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» صدق الله العظيم.. إن ما حصلت عليه من أخبار سوف يهزّك هزاً.

ـ ماذا؟؟

ـ خذ عندك.. نقض الأتراك المعاهدة واشتعلت الحرب من جديد بين الفرنسيين والأتراك في الشرق.. والإنجليز يقبضون على ضباط فرنسا المسافرين عبر البحر إلى فرنسا.. أنت تعلم أن الإنجليز رفضوا التوقيع على المعاهدة.. هم يريدون استمرار الحرب لشغل فرنسا عن معارك أوربا.. هذا الخبث الإنجليزي سوف يشعل الحريق مرة ثانية.

هزّ الحاج مصطفى رأسه قائلاً:

ـ إن أخبارك خطيرة للغاية.

ـ هي الحقيقة التي لا مفرّ منها.. لقد صدرت الأوامر الفرنسية الآن بالالتحام بقيادة كليبر.. الشائعات تؤكد انهزام الفرنسيين

في المناوشات الأولى.

شرد الحاج مصطفى بضع لحظات وقال:

- إن صحَّ ما تقول من نقض الاتفاقية، وبدء الحرب، فإني أعتقد أن جولة حاسمة دامية ستدور رحاها على أرض الوطن.. فلتنطلق الثورة من جديد، هذا أنسب وقت.. فلتنطلق الثورة...

وخرج الحاج مصطفى كالمجنون يصيح في الناس، وينادي في الأسواق، ويحرِّض على الأنقضاض على الفرنسيين، فتجمهر أهالي بولاق بصورةٍ لا مثيل لها، ويصيح الحاج مصطفى:

- «أقيموا المتاريس..

جهزّوا المدافع..

أقيموا مصانع البارود»...

وجاءت الأنباء تترى، إن الشيخ عمر مكرم والسادات والسيد أحمد المحروقي شيخ التجار والشيخ الجوهري، قد صاحوا صيحة الثورة في الأزهر وشوارع القاهرة، حتى لكأنما كان جميع الناس على موعد.. المحروقي يبذل ماله من أجل دفع ثمن المأكل والمشرب للثوار.. الأثرياء يقدمون المساعدات عن طيب خاطر.. مصنع للسلاح ينشأ في يوم وليلة.. الأتراك والمماليك يرون بأعينهم خوارق مذهلة لم تكن تخطر على بالهم، فينضمون للثوار.. إنهم يبحثون عن الكفة الراجحة كي يميلوا نحوها.. ويتجه «البشتيلي» على رأس الثوار صوب ساحل النيل، حيث

ترابط مجموعة كبيرة من القوات الفرنسيـة، وينقضُون عليهم. . إن مدافع الفرنسيين وقنابلهم لدى الساحـل لا تغني فتيلاً. . إن طوفان البشر الثائرين يغرقهم في جحيمه حتى يسقطوا صـرعى عن آخرهم، ويحتل الثوار الموقع. . ويتنادى الرجال في أرجـاء بـولاق العامـرة «الله أكبر». . فيتـردد صدى الهتـاف القـوي في الآفاق.

ويتسلل «أحمد المدبـولي» صديق البشتيلي القـديم، وتاجـر البارود، وعندما يلتقي بالحاج مصطفى يمسك بيده ويهمس:

ـ أين عقلك يا حاج مصـطفى؟ هل علمت مـاذا جرى؟ لقـد سحق الفرنسيون قوات الأتراك في «عين شمس». . إن الفرنسيين لم يُهـزموا بعـد، فإذا مـا عادوا منتصـرين أذاقوا الثـوار الهوان، وارتكبوا أبشع ألوان الانتقام. . يجب أن تثوب إلى رشدك.

قال الحاج مصطفى ساخراً:

ـ أشكرك على نصيحتك الغالية. . إنني أفعل ما أؤمن به، لو اجتمع العالم كله لحربنا فلن ألقي السـلاح وفي روحي رمق. . الفرنسيون الآن يا سيدي بين نارين: الأتراك من أمامهم، ونحن من خلفهم. . وهذا يوم الثأر، فأين يهربون؟ أنت يا مدبـولي لم تشعر بألم السياط وهي تمزق ظهـرك. . كنت تنعم بالهـدوء في يافا، ونحن نخوض في النار، ونخطو فوق حقول الموت. . عُدْ إلى بيتـك يا مـدبولي، وإلا عـاملتـك كمـا يعـامَـل الخـونـة. . أتفهمني؟. . عد إلى بيتك. . .

●

عشرة آلاف ثائر يهاجمون مقر القيادة الفرنسية في الأزبكية، في غيبة كليبر وجنوده الذين يحاربون الأتراك.. القوات الفرنسية المرابطة في المدينة تتعرض لهجمات الثوار العنيفة.. المتاريس والحواجز والحصون يكمن فيها الثوار يأبون الاستسلام، لكن الحقيقة التي يجهلها البشتيلي هي أن كليبر ينتصر.. وينتصر.. ويسحق قوات الأتراك في عين شمس.. ويصدر أوامره بملاحقة الجيش التركي المنهزم، وفي نفس الوقت يصدر أوامره لقواده خارج القاهرة كي يسارعوا لنجدة الفرنسيين المحاصَرين في المدينة.. الخونة يسقطون واحداً إثر الآخر.. إن محافظ المدينة «مصطفى آغا» له سجل حافل بالمظالم والخيانات، ومن ثم فإن الجماهير تتدفق نحو بيته، وتصدر حكمها بالإعدام، فيخرُّ صريعاً، فاغر الفم، جاحظ العينين، أمام الإرادة الشعبية الغلّابة التي لا تُقهر.. يوم الحساب...

لكن نجدات الفرنسيين بقيادة الجنرال «لاجرانج» والجنرال «فريان» تأتي وتصبّ نيرانها من فوق القلاع والحصون على أحياء المدينة الباسلة، ومع ذلك فالمقاومة تشتد، وخاصة في باب اللوق والمدابغ والناصرية والقصر العيني والشيخ ريحان وباب النصر وباب الحديد والرويعي...

ويطلُّ برتلمي من شرفة منزله مرتجفاً، على الرغم من الحراسة الفرنسية والأرمينية التي تحيط بيته بالمدافع، ويقول واجف القلب:

ـ هذا يوم مشؤوم يا هيلدا.. الفرنسيون لا يستطيعون اقتحام

الحصون، والثوار يناضلون في عناد.. كل هذا راجع لغباء كليبر الجبان.. ها هو يخوض المعارك الضارية على الرغم منه.. لو تفوّق الثوار يا هيلدا فلسوف تغرق المدينة في بحرٍ من الدماء، وسنسقط نحن ضحايا لحماقة كليبر وسوء تصرّفه.

قالت هيلدا:

ـ ولماذا لا نهرب يا أبي؟؟

ـ إلى أين؟؟ الثوار يسدُّون كل المنافذ.. ومجرد الخروج مخاطرة كبرى قد تكلفنا حياتنا.. لنصبر حتى يعود كليبر إلى القاهرة ونرى ماذا سيفعل.. إنها أعنف ثورة رأيتها في حياتي.. لم أكن لأتصور أن تثور القاهرة هذه الثورة العارمة، بعدما لاقت من هوان وحملات تأديبية تكفي لقتل الروح المعنوية تماماً.. لست أدري من أين انطلقت هذه الإرادة المدمرة.. إن عمر مكرم والسادات والمحروقي وغيرهم، قد أشعلوا هذا الجحيم ليحرقونا فيه.. آه لو نجونا هذه المرة، فلسوف يكون انتقامنا مروعاً...

وعاد إلى مقعده الأثير، وتجرّع كأساً من الخمر، وقال:

ـ يقولون أن حي بولاق قد بلغ الغاية في العنف والانتقام، وأن الحاج مصطفى البشتيلي، ذلك الملعون الذي عفوت عنه منذ فترة وجيزة، قد أفنى جميع الفرنسيين لدى شاطىء بولاق، ولم يكتفِ بذلك بل هاجم مركز التجمع الفرنسي في قنطرة الليمون.. هذا الرجل الذي أشعل الشرارة الأولى، لو أمكنتني منه الأقدار فلسوف أعطيه الدرس الأخير الحاسم..

ثم قهقه:

ـ والمماليك. . لقد جاؤوا ليقدموا لنا فروض الطاعة والولاء، فإذا بهم يتواطأون وينحازون للثوار. . الناس مع الغالب دائماً. .

ثم صرخ وأخذ يدق المنضدة بيده المرتعشة:

ـ لا. . لن نستسلم، لسوف يعود كليبر. . لم أزل أثق به، إن فيه بقية من رجولة وحزم. .

عاد يقول لهيلدا:

ـ لا تخافي يا عزيزتي. . إنني أدرك ما تعانينه من رعب، لكن. . .

فقاطعته قائلة:

ـ صدِّقني يا أبي. . أنا لست خائفة. . لا أدري لماذا، بل معذرة إن صرحت لك بأن صياح الثوار في الشوارع والأحياء يهزّني هزّاً عنيفاً. . إنني أكره ديبوي وكل رجال ديبوي.

فصاح وهو يجرع الكأس الثانية:

ـ وأنا؟؟ أبوكِ؟؟ ألا تفكرين في مصيري؟؟

قالت وهي شاردة:

ـ ما أروع الأيام الخوالي!!

ـ نحن هنا يا بلهاء في أتون المعركة. . ألا تعلمين ماذا يحدث لو انتصر الثوار؟؟ سترين أباكِ مصلوباً في ميدان الأزهر تنهال عليه الأحجار والبصقات واللعنات. . وأنتِ تحلمين بالأيام الخوالي!. .

وصمت برهة ثم قال:

ـ في الثورة الأولى خرجت مع ديبوي. . كنت أشق حشود

الجمـاهير دون خـوف، وعندمـا سقط ديبوي ولّيت هـارباً، إني أعترف، لكننا عدنا من جديد لنسحق المقاومة. . كـان نابليـون رجلاً رائعاً يتصرف بهدوء وثقة في أحلك الظروف، وينتزع النصر من بين مخـالب الهزيمة. . لم أستطع أن أتصـور هذا الـرجـل مهزوماً. .

وعبَّ كأساً ثالثة وقال:

ـ لكن هذه الثورة لها طابع آخر. . تصوّري، لقد ذهب الشيخ الشرقاوي والشيخ المهدي والشيـخ البكري وغيـرهم من أعضاء الـديوان، محـاولين تهدئـة الثوار، مـاذا كـانت النتيجـة؟؟ لقـد ضربوهم ونزعوا عمائمهم، ورموهم بأبشع الاتهامات. .

بلع ريقه ثم هتف:

ـ يجب أن يخمد الفرنسيون هذه الثورة بأي ثمن، لـو هُزمنـا لحلّت كارثة كبرى. . الهزيمة معناها أن يؤخذ الفرنسيون كأسرى حرب، وأن يستولي الأعـداء على سلاحهم، وأن تُصـاب سمعة فرنسا بنكسةٍ مريعة، وأن يُمثل بأعوان فرنسا هنا أشنع تمثيـل. . إنه عار الأبد والتاريخ. . ولا شك أن كليبر يدرك ذلك. . .

●

عـاد كليبر في اليـوم السابـع والعشرين من شهـر مارس عـام ١٨٠٠، وقد هزم الأتراك في واقعة عين شمس هزيمة نكراء. . وعندما علم برتلمي بمجيئه امتشق سلاحه، وركب جواده وهرول إليه، فوجده وإلى جواره مجموعة من كبار القواد، وسمعه برتلمي

يقول في هدوء:
ـ إن انتصارنا على الأتراك قد جعل المعركة الكبرى في صالحنا. . كانت معركة عين شمس الخالدة فرصة ذهبية أثبتنا فيها بطولة خارقة، وكتبنا في التاريخ الحربي والسياسي صفحة رائعة. .

ثم أردف يقول:
ـ لكن ثورة القاهرة هذه المرة، أيها الأصدقاء، في منتهى العنف والقوة. . إن الالتحام مع الثوار لن يؤدِّي إلى نتيجة طيبة. . لسوف نخسر الكثير من الرجال والعتاد، ولن نحقق نصراً سريعاً. . لسوف نلجأ إلى الصبر. . إن عامل الزمن مهم في هذه الأيام. . علينا أن نفرض الحصار على القاهرة، وأن نبذر بذور الشقاق بين صفوف الشعب، وبينه وبين المماليك والأتراك، ثم نضرب ضربتنا في قوة.

قال برتلمي:
ـ الزمن؟؟ مستحيل أن يكون في صالحنا.
ـ كيف؟؟
ـ ألا يمكن يا سيدي الجنرال أن يتجمع الأتراك من جديد ويشعلوا الحرب؟
ـ فلتطمئن يا برتلمي. . لقد سحقناهم سحقاً. . إنهم ينسحبون دون نظام وقد فقدوا الكثير من الرجال والعتاد. . والكرامة. . أتفهمني؟. .
قال برتلمي وهو يشمخ بأنفه:

ـ ما وثقتُ في هؤلاء الكلاب قط . .

قال كليبر:

ـ إنني أفهم ما تقول يا برتلمي، إنك تلومني من أجل الاتفاقية . . أعرف ذلك، لكني أؤكد لك أنني عقدت الاتفاقية من أجل هدفٍ كبيرٍ نبيل، وكنت مقتنعاً بها تمام الاقتناع، كما أؤكد لك أنني حاربت هذه المرة من أجل هدفٍ كبيرٍ نبيل أيضاً، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بما أفعل . . ورُبَّ ضارّة نافعة يا برتلمي العزيز . . .

وأراد برتلمي أن يطمئن أكثر فقال:

ـ وما رأي سيدي الجنرال من الموقف الراهن؟

قال كليبر وعيناه تبرقان في ثقةٍ وهدوء:

ـ النصر لنا يا برتلمي . . ولسوف نعيد النظر في كل شيء . . لكن الثورة عنيفة، وتحتاج إلى تفكيرٍ أكثر مما تحتاج إلى سلاح ورجال . . وعندما يسقط الثوار، بفعل الدهاء والزمن والمكيدة، سيلعب السلاح دوره، لأن القائد العام لا ينسى دماء الشهداء، ولا بد أن يثأر من الذين طعنوه من الخلف مهما كان الأمر . . .

وهتف برتلمي في فرحٍ غامر:

ـ عاش القائد العام .

وردّد الحاضرون بصوتٍ وقور أجشّ:

ـ «عاش القائد العام» . . .

٣١

عاد «ابراهيم آغا» إلى الصعيد، حيث التقى بمراد بك وشرح لـه حقيقة الأمـر في القاهـرة. . وأدرك مـراد من خـلال حـديث ابراهيم أنه يميل إلى الانصياع إلى جانب المصريين والتصـدِّي للحملة الفرنسية، فأشاح مراد بك جانباً وقال:

ـ لا فائدة.

ـ ماذا تعني يا سيدي؟

ـ لا بد من الاتفاق مـع الفرنسيين على أسـاس التعاون معهم مقابل إعطائنا حكم الصعيد.

قال ابراهيم:

ـ لسوف يلغط أهل القاهرة بكلامٍ كثيرٍ شائن.

ـ تعني أنهم سوف يتهموننا بالخيانة؟؟

ـ معذرة يا سيدي.

قال مراد وهو يتثاءب في ملل:

ـ لقد دأبنا طوال الفترة السابقة على محاربة الفـرنسيين، ماذا كـانت النتيجة؟ أنت لا تنكـر أننا خسـرنا معـظم المعارك، إنهـا معـركة ميئـوس منها، فلمـاذا لا نطلب الأمـان ونحقن الدمـاء، ونرضى بحكم الصعيد خالصاً لنا، وندفـع لهم مبلغاً بسيـطاً من المال كل عام؟؟

تمتم ابراهيم:

ـ تتكلم يا سيدي وكأن الفرنسيين باقون في مصر للأبد.

ـ هل تتصور أن الأتراك قادرون على دحر فرنسا؟.. إنه احتمال بعيد..

ـ أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، لقد رأيت الناس في شوارع القاهرة والضواحي والأقاليم مُصِرُّون على مواصلة الكفاح، وهذا هو العامل الحاسم في المعركة.

قال مراد بك:

ـ أوه يا عزيزي.. العامة كمٌّ مهمل لا حساب لهم.. لقد جرّبوا حظهم في ثورة القاهرة، فسحقهم نابليون سحقاً، فإذا ما عاودوا الأمر فإن كليبر قادر على إعادة الكرّة.

ثم عاد يقول بعد فترة:

ـ إنني أزن الأمر بميزان المكسب والخسارة، وأعتقد أن اتفاقنا مع الفرنسيين واجب تمليه الضرورة.. ولهذا فأنا لا أذيع سراً حينما أقول لك أنني أرسلت الرسل إلى كليبر، والأمور تبشر بخير كثير، ولسوف نرحل صوب القاهرة، وستصل طلائعنا في شهر مارس على الأكثر.. إن أغلبية الرجال أمثال البرديسي بك وحسين كاشف وغيرهما يؤمنون بما أؤمن به...

●

أوى ابراهيم إلى مخدعه حزيناً واجماً، لشدّ ما آلمته كلمات «مـراد بك»، ذلـك الطاغيـة الذي يـدوس القيَم، ويتنكر للوطن الـذي آواه، ومدّ لـه في حبال الـرغد والنعيم، واحتمـل عسفـه ومضايقاته لسنين طويلة. . إنه يدرس المشكلة متجاهلاً مـلايين الجماهير التي تسكن وادي النيل، لا يقيم لها أي وزن، لم يزل يعيش بفكرٍ عميق، وعقلية خربة متخلفة، وينسى أن ثوار القاهرة قد كبًدوا العدو خسائر في الأرواح والعتاد تفوق ما فعله المماليك عشرات المرات.

ووثبت إلى ذهن ابراهيم صورة هيلدا. . ذلك الوجه الجميل الملطخ بـالعار والـطين. . يا لـه من حلمٍ رهيب، ويـا لهـا من ذكرياتٍ مريرة!. . مـراد بك، وبـرتلمي، وهيلدا. . كلهم شيء واحـد في نـظره، لأنهم يـرمـون بـأنفسهم تحت أقـدام الغــزاة المنتصـرين. . يا لـه من عـالم زائف مليء بـالبهتـان والضعف والانحلال!. . كانت هيلدا تحدثه عن الحب والمستقبل، وكانت تغدق عليه من برِّها وحنانها مـا جعله يصدق كـل كلمة تقـولها، وكان ـ وهو في غربته ـ يحيا على أمل اللقاء الحلو، والوفاء الذي لا يـزول، فإذا بـه يعود ليـرى كل شيء في مـدينته الحبيبـة قـد تغيـر. . حتى ملاكـه الطاهـر هيلدا. . والغـريب أنهـا استقبلتـه استقبالاً رائعاً أنساه آلام الليالي الطويلة السوداء، ومسح عن قلبه متـاعب المعارك الشـديـدة. . كـانت تؤدِّي دورهـا في الخـداع والكذب ببراعةٍ فائقة، مَن يدري؟. . لعلها كانت تنـوي تجنيده ضمن رجال أبيها وجواسيسه. . ولم يكن هناك من ملجأ يلجأ إليه

سوى العودة إلى الصعيد، حيث الرجال والجبال والليل والحرب. . لكن للأسف، لقد عاد فوجد «مراد بك» النذل يلقي السلاح، ويتزلف للفرنسيين، ويعزم على الرحيل صوب الشمال، فماذا يفعل «ابراهيم آغا»؟؟

لا مناص من أن يرحل مع مراد بك، ويعود إلى القاهرة، وفي القاهرة سوف يفعل ما يحلو له. . إن مدينته الواسعة الكبيرة سوف تحمي أسراره، وتغذي مشاعر الكفاح والنضال في روحه، وبهذا يستطيع أن يؤدِّي دوْره على أكمل وجه حسبما يرى ضميره الذي استيقظ، والذي لن يموت ثانية. . .

●

أقام مراد بك ورجاله قرب حلوان، فجاءت أنباء معاهدة الصلح التي عقدها كليبر مع الأتراك، والتي رفض الإنجليز التوقيع عليها، فتردد وأخذ يفكر، إن التحاقه بالفرنسيين في هذا الوقت عملية خاسرة، فما قيمة الإتفاق معهم وهم على وشك الجلاء؟؟

وطرب «ابراهيم» لأنباء الإتفاقية الجديدة، لأنها ـ على الأقل ـ تؤيد وجهة نظره القديمة في ضرورة الانحياز للشعب، لأنه خالد وباقٍ، والغزاة هم الزائلون. . وأرسل مراد رجاله يتحسسون الأخبار، وفجأة نقض الأتراك الإتفاقية واحتدمت الحرب من جديد، وقاد كليبر جيشه الضخم لملاقاة الأتراك في واقعة «عين شمس» الشهيرة، التي دمّر فيها قوات الأتراك،

وهزمهم هزيمة مُرّة.. لشدّ ما حزن «ابراهيم آغا» عندما انتصر الفرنسيون، وأخذوا يعدّون العدّة للبقاء في مصر، أما مراد بك فقد أسرع بإيفاد الرسل إلى كليبر لإتمام الصلح... واندلعت ثورة القاهرة الثانية، وتسلل عدد كبير من الأتراك والمماليك إلى القاهرة، وكان «ابراهيم آغا» واحد من هؤلاء.

الثورة في بولاق، في الأزبكية، في الناصرية، في باب الحديد.. في كل مكان.. و«ابراهيم آغا» يختلط بالثوار الذين يهاجمون مقرّ القيادة العامة في الأزبكية، لقد أبلى بلاءً حسناً، كان يبحث عن برتلمي، لكنه لم يعثر له على أثر.. وبحث عن مالوس هو الآخر، لكن لا فائدة، ومن ثم أخذ يسدِّد طلقاته وضرباته نحو أي فرنسي، إنه يرى في كل واحدٍ منهم ديبوي أو مالوس أو برتلمي، وجه الغدر والخيانة، هو وجه كل فرنسي أو عميل يؤازرهم...

وتصمد المقاومة الشعبية بدرجةٍ مذهلة، برغم النجدات التي يقودها جنرالات فرنسا، وبرغم مقدَم كليبر منتصراً من معركة «عين شمس»، ويغمغم ابراهيم آغا في فخر:

ـ ليأتِ مراد بك ليرى «الكمّ المهمل» الذي يتحدث عنه، وهو يسحق أعداءه، ويسقيهم كؤوس الهوان.

لكن «ابراهيم آغا» يفاجأ بإخوانه من المماليك والأتراك يتجمعون ويهمسون، ويهتف ابراهيم لهم: «ماذا هناك؟؟» فيخبرونه أن الأوامر قد صدرت بانسحاب المماليك والأتراك من معارك الثوار، تلبية لنداء وجّهه الوزير التركي الأسير «مصطفى

باشا»، و«مراد بك». . وقد وقع مصطفى باشا في الأسر أثناء معركة «عين شمس»، فأحسن كليبر معاملته، ثم حاول إستغلاله إبان إحتدام ثورة القاهرة الثانية، فحاول الوزير الأسير أن يقوم بدوره الشائن في خلخلة صفوف الثوار، بعقد إتفاق مع كليبر، ينسحب بمقتضاه الأتراك، وكذلك قام مراد بك بنفس الدور، بعد تأكده من هزيمة الأتراك. . وبقي الشعب وحده يناضل في المعركة، رفض التسليم أو المفاوضات، لم يذعن لأوامر أعضاء الديوان أو الوسطاء الذين أوفدهم كليبر. . وبقيت الثورة مشتعلة الأوار، وبقي «ابراهيم آغا» في مكانه مع الثائرين، مخالفاً بذلك أوامر مراد بك.

وضرب كليبر حول القاهرة حصاراً رهيباً، فشحّت الأقوات، وقلَّ الداخلون إلى القاهرة، وأصبح الثوار بين نيران ثلاث: مقاومة الفرنسيين، وغدر الأتراك والمماليك، وضرورة التصرف في حفظ الأمن والحصول على الأقوات. . وقام ابراهيم بدورٍ كبيرٍ في تهرب الأقوات أثناء الليل من القرى القريبة من القاهرة. . وذات مساء كان يخطو من ناحية باب الحديد، فإذا بمجموعة من الجنود تحيط به، وصاح أحدهم بصوتٍ أجش:

ـ مَن أنت؟؟

ارتبك ابراهيم، لكنه تمالك أعصابه واستردَّ هدوءه، وقال ضاحكاً:

ـ ابراهيم آغا. . أحد ضباط مراد بك.

وسمع ابراهيم من خلفه صوتاً يقول:

ـ ها نحن نلتقي مرة ثانية أيها الصديق العزيز، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

واستدار ابراهيم ليجد نفسه أمام «برتلمي» وجهاً لوجه، لقد عرفه على التوّ، بالرغم من أن برتلمي كان ملثماً لا يكاد يظهر من وجهه سوى عينيه الواسعتين، وتمتم ابراهيم آغا:

ـ طاب مساؤك يا سيد برتلمي.. كنت أمضي دون هدف.

وقال برتلمي بعد أن صرف رجاله:

ـ لشدّ ما تشوقت إليك، إنها لفرصة ذهبية أن ألقاك هكذا دون سابق ميعاد..

قال ابراهيم في ثبات:

ـ رُبَّ فرصة خير من ألف ميعاد.

قال برتلمي:

ـ لقد سألت عنك مراد بك، فأخبرني أنك قدمتَ معه.. أنا واثق أن هيلدا ستسعد بلقائك.

همس ابراهيم:

ـ دع هذا الأمر جانباً.

قال برتلمي مستغرباً:

ـ ماذا جرى أيها الصديق؟! إن ما بيننا من عقبات قد انتهى أمرها بعد أن تمَّ الإتفاق بين كليبر ومراد بك.

قال ابراهيم في حزن:

ـ هناك عقبات أقسى وأبشع..

ارتجف جسد برتلمي في غيظٍ وقال:

ـ أعرف أن الكلب الحقير مالوس قد أفسد ما بينكما من ودّ

قديم.

- إنها مشيئة الله.

وهدر برتلمي كذئبٍ جريح:

- إن ابنتي أشرف من نابليون نفسه.

ابتسم ابراهيم في مرارة وقال:

- ليس نابليون مقياساً مثالياً للشرف.. معذرة يا سيدي.. كانت هيلدا في قلبي وخيالي أنموذجاً عالياً للطهر والنقاء.

وقال برتلمي وهو يدقّ الأرض بعصبية:

- ولم تزل يا ابراهيم.. إنها دسيسة خبيثة من صنع موتور.

- أتعتقد أن مالوس كان يكذب؟

- بكل تأكيد.

نظر إليه ابراهيم في توجسّ قائلاً:

- أتشكّ في كلامي؟

- لا أعرف ماذا أقول.

قال برتلمي وقلبه يخفق:

- إذن.. هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى قصري.

- لكن...

قاطعه برتلمي:

- لن أقبل عذراً.. لقد تركتنا دون وداع.. اعترف مالوس بكل شيء، لسوف تبتهج هيلدا ابتهاجاً فوق الوصف عندما تراك، وما أظنك تقبل حرمانها من هذه المتعة الفريدة.. إنها لا

تفتأ تسأل عنك منذ عقد الصلح مع المماليك.

وقع ابراهيم في حيرةٍ شديدة، ماذا يفعل؟؟ لقد أثلج صدره ذلك النفي القاطع لإتهامات مالوس، وشعر برغبةٍ جارفة فعلاً في لقاء هيلدا، لكن دوره في المعركة سيتعطل، والموقف حرج، ولم يجد ابراهيم مانعاً من أن يقتطع من وقته بضع ساعات، ثم يعود ثانية إلى موقعه الحصين بين الثوار.

●

عندما رأته هيلدا تشبثت به في استماتة، وأخذت تقول من بين دموعها الغزار:

ـ لم أفكر قط في خيانتك حتى في أحلك الظروف، وفي أقذر ساعات عمري، إن الخطيئة الحقيقية هي التي ترتكبها وأنت في كامل وعيك وبكامل إرادتك.. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر.

صاح أبوها في انفعال:

ـ كفى يا هيلدا.. ليس هذا وقت الشرح.. يجب أن تقدِّمي لضيفنا العزيز مشروباً ساخناً، وإذا أراد فلتقدِّمي له كأساً من النبيذ.

جلس ابراهيم في هدوء، وإلى جواره جلست هيلدا وقلبها يعلو ويهبط.. وبرغم الدموع، فقد كانت تشعر بمتعةٍ كبرى لا تضارعها أعظم متعة في الوجود.

٣٢

ونجحت خطة القائد الكبير «كليبر» . . لقد استطاع أن يحاصر المدينة حصاراً قاسياً، كما استطاع أن يحشد الكثير من الجنود والسلاح، وأن يجتذب إلى صفة المماليك والأتراك . . ويمضي ضابطه الجنرال «بليار» إلى الوجه البحري ليرتكب البشائع في «المحلة» وغيرها من مدن الوجه البحري، ويسفك دماء المئات في «طنطا»، ويستولي على التاج الذهبي للسيد البدوي وزنته خمسة آلاف مثقال من الذهب الخالص، ويفرض الغرامات والأتاوات على علماء الجامع الأحمدي.

وفي اليوم الرابع من شهر إبريل عام ١٨٠٠، يبدأ الهجوم على ثوار القاهرة من ناحية باب الحديد، فتدكُّ المدافع المباني في غير شفقة، ثم تحرق البيوت في غلظة بمَن فيها ومَن عليها من الرجال والنساء والأطفال، ومع ذلك فإن الفرنسيين يعجزون عن الوصول إلى مآربهم، فيهرول «بليار» قادماً من الوجه البحري ليدعم قوات الإحتلال برجاله وعتاده وقسوته البالغة.

ويجلس مؤرخ العصر الشيخ الجبرتي، ليسجل بعض الوقائع بأسلوبه الواهن المميز، ويكتب على الصحائف:

« . . . وصل كليبر إلى داره بالأزبكية، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة وبولاق من الخارج، ومنعوا الداخل من الدخول، والخارج من الخروج، وذلك بعد ثمانية أيام من إبتداء

المعركة، وقطعوا الحالب، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، فعند ذلك إشتدت الحرب، وعظم الكرب، وأكثروا من الرمي المتتابع، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات، من أعالي التلول والقلعات، خصوصاً البنبات الكبار، على الدوام والإستمرار، آناء الليل وأطراف النهار، في الغدوِّ والبكور والأسحار، وعدمت الأقوات، وغَلَت أسعار المبيعات، وعزّت المأكولات، وفُقدت الحبوب والغلاّت، وارتفع وجود الخبز في الأسواق، وامتنع الطوّافون به على الأطباق... واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع، والهدم والحرق، وصراخ النساء من البيوت، والصغار من الخوف، والجزع والهلع، مع القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والطوابين والمخازن، ووقوف حال الناس من البيع والشراء... حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة، ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن، ومقامهم أبداً بالأزقة والأسواق، وكأنما على رؤوس الجميع الطير.. وأما النساء والصبيان، فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية... وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته، فضلاً عن جزئياته»...

●

وكان أمر بولاق يشغل بال الجميع لِما ظهر في ثورتها من عنادٍ

وعنفٍ بالغين، ولِما تكبَّده الفرنسيون من خسائر جسيمة.. وأقبل برتلمي محتقن الوجه ثائراً، وانحنى أمام كليبر، وقال:

ـ سيدي.. إن بولاق قد استعصت على قواتنا.. معذرة.. لا بد من عمل ضخم يسكت بولاق، لأن سحقها سيكون بداية موفقة للقضاء على باقي الأحياء الثائرة.. ورجالي يؤكدون أن لدى البولاقيين رصيد ضخم من العتاد والرجال والروح المعنوية العالية.

هزَّ كليبر رأسه في إصرار وقال:

ـ لسوف أقوم بمهاجمة بولاق بنفسي.

وشرد برتلمي بنظراته إلى بعيد وقال:

ـ هناك رجل متوحش، كان لعب الدور الأكبر في إشعال الثورة في بولاق خاصة والقاهرة عامة.

قال كليبر:

ـ تقصد الشيخ السادات؟؟

ـ كلا..

ـ الحاج مصطفى البشتيلي.. إنه خصم عنيد فظ.. لست أدري كيف أفلت من يدي؟.. لقد قبضنا عليه في أعقاب الثورة الأولى ثم أفرجنا عنه.. ليتني قطعت رقبته.

ـ أهو عالِم من العلماء؟؟

ـ إنه تاجر.. وعالِم.. وفلاح.. جنّ أحمر.

ثم صاح كليبر طالباً الجنرال بليار وقال:

ـ جهّزْ جنودك.. لسوف نرسل للثوار إنذاراً، فإذا رفضوه

فسوف تهجم بقواتك، وتنفذ كل أوامري بدقة. . سنجعل من بولاق العصيّة عبرة لكل المتمردين.

وجاء رجل من أعضاء الديوان يحمل الإنذار، وإلى جواره وقف تاجر البارود أحمد المدبولي، قال عضو الديوان:

ـ يا حاج مصطفى. . يا أهل بولاق. . إنها إرادة الله التي تعلو كل إرادة. . إن الفرنساوية يقفون في الجانب الأقوى، ومعهم السلاح والرجال والتفوُّق الكامل. .

صاح أحد الرجال:

ـ بل نحن في الجانب الأقوى، لأن الله معنا.

قال عضو الديوان:

ـ لا تقاطعوني. . ليس فينَا مَن ينكر شرف الجهاد، والتضحية من أجل الوطن والكرامة. . لكن ما الحيلة وأنتم تشعلون نيران معركة خاسرة؟؟ إن قبولكم وقف إطلاق النار عمل يقتضيه العقل، وتفرضه ظروف المدينة التي تعيش تحت وابل القذائف والجوع والأرق لليالي طويلة.

وصاح أحد العامة:

ـ سندافع حتى الموت.

ـ إنه تهوُّر وطيش أيها السادة.

وأقبل الحاج مصطفى البشتيلي نحوه وقال:

ـ ليس هذا وقت الكلام، ولكنه وقت العمل. . إن مصيرنا مرتبط بمصير القاهرة بأسرها، فلن نوقف القتال، وإخواننا في جميع الأنحاء يناضلون في استماتة.

قال عضو الديوان:

ـ هناك زملاء لي يتفاهمون مع الثوار لوقف إطلاق النار.

قال الحاج مصطفى بإيجاز:

ـ لقد عاهدنا الله على الاستمرار في الحرب، إما الموت أو النصر.

صاح أحمد المدبولي تاجر البارود الذي كان صامتاً طوال الوقت:

ـ إن الحاج مصطفى البشتيلي سيودي بالناس إلى كارثة ماحقة، إذ ما جدوى هذا الصراع اليائس.. لسوف تندم حيث لا ينفع الندم.

صاح البشتيلي، ومن خلفه هدير الجماهير:

ـ يجب أن تصمت يا مدبولي.

ـ وكيف أصمت ومصيري مرتبط بمصيركم؟؟ أليس لي الحق في أن أُبدي رأيي في أمرٍ خطيرٍ كهذا؟؟

قال البشتيلي ساخراً:

ـ تستطيع أن تعود إلى يافا إن شئت.

ـ وماذا في ذلك؟؟ ألم يكن معي السيد عمر مكرم ونخبة من الرجال الأفاضل؟؟

هتف البشتيلي في حدّة:

ـ عمر مكرم يحمل السلاح الآن ويقود الجماهير، وأنت تثبط العزائم يا مدبولي، وعمر مكرم هاجر من أجل أن يفعل شيئاً لصالح المعركة، وأنت رحلت إلى الشام خوفاً من التضحية

والموت.

وساد هرج ومرج، ولوَّح مندوب الديوان بيده قائلاً:

ـ جئتُ إليكم أيها الإخوة أحمل إنذار كليبر. . إما أن تضعوا السلاح، وإما أن تستعدُّوا لحرق بولاق عن آخرها، وسفك دماء الكثيرين دون فائدة. . فما رأيكم؟؟

وانطلق هدير كالرعد القاصف:

ـ الحرب. . ولن نسلِّم.

ـ أهذا هو رأيكم؟؟

ـ أجل. . .

وسادت فترة صمت قال مندوب الديوان بعده:

ـ نسيت أن أؤكد لكم، أن الفرنسيين قد هزموا جيش السلطان هزيمة نكراء، وبهذا فقد فرغوا لكم، وأصبح ظهركم مكشوفاً.

وارتقى الحاج مصطفى مكاناً عالياً بعض الشيء، إتخذه كمنبر، وأخذ يقول:

ـ إنني مدرك أننا نخوض معركة قاسية مريرة، ولا يخفى عني قوة العدو العسكرية، وأعرف أن العدو انتصر على الأتراك، وأن المماليك والأتراك قد خانوا الأمانة، ووضعوا أيديهم في أيدي العدو، ولسوف يسجل التاريخ هذا العار عليهم، لأنه تصرُّف يأباه الضمير الحيّ، وينكره الدين الحنيف، وقد عاهدنا الله على أن ندافع عن حريتنا وكرامتنا وحدنا، ندافع عن أرضنا وعِرضنا وديننا، وسندفع الثمن مهما كان غالياً، فإذا انتصرنا فهذا عين المراد، وإذا حدث غير ذلك، فسنلقى الله شهداء راضين بعد أن

أديّنا الواجب، وأبينا الذلّ والهوان. . والله المستعان.

وانسحب مندوب الديوان ومعه أحمد المدبـولي، وسط تكبير الجماهير وهتافاتهم الراعدة، وتمتم عضو الديوان:

ـ إنهم على حق.

قال المدبولي:

ـ ماذا تقول؟! إنهم يتصرفون في حماقةٍ وجنون.

ـ لكنهم اختاروا الطريق الشاق والتضحيات الجسام.

قال المدبولي في خوف:

ـ دعنا من هذا الأمـر. . أريد أن أخـرج معك. . لا أستـطيع البقاء في بولاق بعـد الآن. . إن رميات الفـرنسيين لا تفرِّق بين العقلاء والمجانين. . أرجوك، خذني معك.

نظر إليه عضو الديوان في ازدراء قائلاً:

ـ لماذا لا تبقى معهم؟؟

ـ لأني لا أؤمن بما يفعلون.

ـ هيا بنا. . لكَم تمنيت أن أبقى إلى جوار هؤلاء الشرفاء.

ـ ولمَ لا تفعل؟؟

قال الرجل في أسى:

ـ إن أعضاء الديوان يا مـدبولي هم رصيـد الأحداث. . نحن نقف في منتصف الطريق، ونثب في الوقت المنـاسب لنمنع تفـاقم الأحـداث. . بعد أن هـزمت ثورة القـاهـرة الأولى، ظهـرنـا في الميـدان لنهدىء من روع سـاري عسكر نـابليون، ونـطلب منـه الصفح. . إننا نـؤدي دورنا الوطني بأسلوبٍ قد يغضب البعض،

لكننا مؤمنون بما نفعل.. والله الموفق...

●

تدفقت جموع الفرنسيين من ناحية البحر، ومن ناحية بوابة أبو العلا، كانوا يمطرون الحيّ الباسل بأطنان من القنابل والنيران، والثوار يردُّون بالمثل، لا يتوقفون عن الحرب سواء في النهار أو الليل، وأصبحت المعركة ممتدة لا تعرف الفرق بين نور وظلام.. وعاد برتلمي يرقب الأحداث في غيظ، ليس في ذهنه سوى الحاج مصطفى البشتيلي، ذلك الثائر العنيد الذي أفلت منه ذات ليلة، بعد أن دفع ذووه مبلغاً تافهاً من المال، وعندما عاد برتلمي إلى بيته بعد يومين من احتدام المعركة، كان مرهقاً مكدوداً، فألقى بغطاء رأسه، وتخفف من معطفه، ثم هتف بهيلدا، فأقبلت مهرولة:

ـ ما بك يا أبي؟؟ إني أرى أثر الغبار والإرهاق على وجهك.

قال وهو يصرُّ على أسنانه من الغيظ:

ـ هؤلاء السفلة في بولاق.

ـ ماذا جرى؟

ـ يرفضون الاستسلام، أليس من المضحك أن نهزم عساكر السلطان، ونأسر وزراءه وضباطه في عين شمس، ونجعلهم يولُّون الأدبار في يوم وليلة، نبدِّد شمل جيش ضخم منظم، ثم نأتي الآن ونعجز عن احتلال بولاق، أليس هذا عجيباً؟! مجموعة من العراة الحفاة الجياع يتصدّون لجيش فرنسا،

ويستعصون عليه؟!

ثم سعل، وعاد يقول:

ـ كنتِ يا هيلدا تتحدثين عن الرحمة، أنرحم هؤلاء الوحوش؟؟ لم يكن استسلامهم في الماضي إلا قناعاً زائفاً ماكراً، يختفون وراءه ليجمعوا صفوفهم ويعدُّوا أنفسهم، إن البشتيلي ورجاله يحاربون كالوحوش الضارية. . الوحوش لا تستحق الرحمة، بل لا بد من تقليم أظافرها، وكسر أنيابها، وسلخ جلودها. . هذا ما أؤمن به، والعفو في مثل هذه الظروف جناية كبرى. . إن نصف الحيّ يحترق، ومع ذلك يرفضون التسليم على الرغم من وعد كليبر بالعفو عنهم. . تصوَّري. .

قالت هيلدا في حيرة:

ـ إن ما أراه اليوم يؤكد لي أن لا حياة للفرنسيين وسط هذا الشعب.

ـ كيف؟؟

ـ لا يمكن أن يعيشوا في هذا الجو المشحون بالكراهية والثورات والخسائر، ولهذا فإني أرى أن المستقبل مظلم بالنسبة لهم.

قهقه برتلمي ساخراً وقال:

ـ لسوف يثورون مرة. . مرتين. . ثلاث مرات. . ثم يصيبهم اليأس، ويمتلك الفرنسيون زمام الأمور للأبد. . لقد ارتكب كليبر خطأً فاحشاً حينما عقد إتفاقية العريش للجلاء. . لقد فهم المصريون أن الجيش الفرنسي قد تعب وملَّ ويئس. . هذا هو

مصدر المتاعب. . وعندما يعلم العامة أن الفرنسيين باقون فلسوف يستسلمون، وسترين يا عزيزتي أن أباكِ على حق. . إن الأتراك يحكمون هذه البلاد لعدة قرون.

ـ هناك فرق بين الأتراك والفرنسيين يا أبي.

ـ فرق تافه، لكن الأتراك غزاة محتلون مهما كان الأمر.

ـ ووجود الأتراك كان دائماً مهدّداً، لقد إستطاع المماليك أن يستقلوا بالأمر، حتى أصبحت سلطة الأتراك سلطة إسمية.

وسادت فترة صمت قال برتلمي بعدها:

ـ عزيزتي. . النصر للأقوياء. . لا تحاولي أن تفسري الأحداث، أو تتدارسي التاريخ. . الأقوياء هم الذين يصنعون الأحداث، ويكتبون التاريخ بسيوفهم وبالدم القاني. . هذا ما أؤمن به. .

ثم غيّر دفة الحديث فجأة، وقال:

ـ ألم يعد ابراهيم آغا بعد؟؟

ـ لم أرَه منذ أسبوع. . لقد عاد آخر مرة مكروباً مهموماً. . لقد هاجمه بعض العامة في الطريق، ورموه بالخيانة والغدر، وزعموا أنه عميل من عملاء برتلمي.

ضحك برتلمي حتى كاد يستلقي على ظهره، ثم قال:

ـ أيؤلمه هذا الإتهام؟؟ إنه شرف كبير، ثم إنه يفتح أمامه الطريق إلى مستقبلٍ أفضل مع الفرنسيين. . ثم ألم يعقد «مراد بك» الصلح مع «كليبر»؟؟ الحقيقة يا فتاتي أن ابراهيم يميل لهؤلاء الغوغاء، ولعله كان يبذل لهم العون لآخر لحظة، كنت

أدرك ذلك، لكني تغاضيت عنه، لأنه لن يحوز ثقة الجماهير التي أصبحت تشكُّ في نوايا المماليك، وتكنُّ لهم أشد الكراهية.. لا شك أنهم رأوا ابراهيم معي، ولعل بعضهم رآه وهو يدخل بيتي.. لشدّ ما أنا مبتهج لهذا الذي حدث..

ثم عاد يقول:

- ربما يكون ابراهيم قد ذهب إلى حلوان، ولسوف يعود في أقرب وقت.

قالت هيلدا:

- إن هذا الجو المشحون بالمخاطر يجعلني أشعر بقلقٍ بالغٍ نحوه، وخاصة بعد أن حامت حوله الشبهات.

أجابها أبوها:

- لا عليكِ يا هيلدا.. إن ابراهيم يعرف كيف يحافظ على نفسه..

ثم قال:

- ومالوس، ألم يأتِ؟؟

- لم يحضر إلينا منذ ظهر ابراهيم إلا مرة واحدة.

قهقه برتلمي في خبثٍ وقال:

- لقد أدركت أنكِ تستثقلين دمه، ولهذا دبرت الأمر، وقذفت به إلى أتون المعركة في بولاق.. أعتقد أنه مكان مناسب لشخص ثقيل وقح مثله.

لم تعلق هيلدا بشيء، لكنها قالت بعد لحظات:

- إنني أفكر في الاعتراف بين يدي ابراهيم.

ـ كيف؟؟ إنني أرفض ذلك.

ـ لا أحب الخداع.

ـ إنـه ضرورة في بعض الأحيـان.. يجب أن تصبـري بعض الوقت حتى نتدبر الأمر، ثم هل تنوين الاقتران الأبدي به؟؟ إنني أشك في ذلك يا هيلدا، إن حاجزاً ضخماً يقف بينكما.. حاجزاً صنعه الله.

قالت شاردة:

ـ الله؟؟

ـ أجل...

ـ لكن دينه يبيح زواج المسلم من مسيحية.

ـ ودينىنا لا يسمح.

ـ الله واحد.

ـ والأديان كثيرة يا هيلدا.

ـ لا يمكن أن تكون شرائع الله متناقضة يا أبي.

هتف قائلاً:

ـ أنا لا أناقش قضايا فلسفية.. ولـكني أعرف شيئاً واحداً.. إن دينك لا يسمح لكِ بالزواج منه.

ـ ودينه يسمح يـا أبي.. وضميري مستريح.

ـ أنتِ تضحِّين بالقيَم الدينية التي تؤمنين بها من أجل رجل.

ـ لسوف أبـقى على ديني.

ـ هذا لا يكفي...

وقطع حديثه فجأة، ثم قال في صبرٍ نافذ:

ـ دعي هذا الأمر. . إن القاهرة غارقة في النار والدماء، وأنتِ تفكرين في الاعتراف والزواج. . ثم ألا تعتقدين أن الاعتراف بالحقيقة القاسية قد يباعد بينه وبينكِ؟؟

قالت هيلدا في إصرار:

ـ لسوف أناقش الأمر معه في الوقت المناسب، لن أخفي عنه شيئاً، وليكن ما يكون. . .

٣٣

تتوارى الشمس خلف الشاطىء الغربي للنيل عند بولاق، وطلقات المدافع واهنة متقطعة كأنها جريح ينزف ويصعّد أنفاسه في إعياء وأسى. . ويتلفت الحاج مصطفى البشتيلي حواليه، فيجد الدموع المتجمدة في المآقي، والشحوب والغبار يكسوان الوجوه المجهدة، والحرائق تنتشر في كل مكان، ومدفعية الفرنسيين لا تكفّ عن الضرب. . وقال أحد الرجال مطرق الرأس حزيناً:

ـ أوشكت الذخيرة على النفاد يا حاج مصطفى.

قال الحاج:

ـ ألم تأتِ إمدادات من المدينة؟؟ إن الشيخ السادات يعرف حقيقة وضعنا جيداً.

أجابه الرجل:

ـ نحن بين فكّي كماشة رهيبة، والحصار شديد، وكليبر يشرف بنفسه على معركة بولاق، والفرنسيون يضربون حولنا نطاقاً صلباً من ناحية البحر، والبيوت تشتعل فيها النيران منذ خمسة أيام

كما ترى. . ماذا نفعل؟؟

وانبعث صوت من خلفهما:

ـ ليس هناك حلّ سوى التسليم.

والتفت الحاج مصطفى خلفه، وهتف:

ـ مَن؟؟ أحمد المدبولي؟!

ـ هو أنا. . إن دماء المئات الذين يسقطون كل يوم في رقبتك أنت. .

وصرخ الحاج مصطفى:

ـ كفى. . الناس يموتون ويحترقون وأنت تتفرج!. .

ـ لأني لا أؤمن بجدوى ما تفعلون يا حاج مصطفى. . هذا رأيي، وأرجو ألاّ تسمّيه خيانة. .

وانهمرت دموع الحاج مصطفى فجأة، فكزّ على أسنانه في عصبية، وجسده كله ينتفض، ثم قال:

ـ أيها الصديق القديم، أنت تعرفني جيداً. . أنا لا أميل لسفك الدماء، ولكننا ندافع عن حقنا المشروع في الحياة الحرّة، مهما كان الثمن. . أنت تعلم أننا على حق. . والفرنسيون يعلمون ذلك.

قال المدبولي:

ـ إن جيش السلطان نفسه قد هُزم.

قال الحاج:

ـ إنّ هزيمة السلطان لا تفقده سوى بعض الجنود والمواقع، أما هزيمتنا فمعناها ضياع أرضنا وحرّياتنا. . وحياتنا. .

تمتم المدبولي متوتراً:

ـ حياتنا؟؟ أي حياة تقصد؟.. إن بيتك تشتعل فيه النيران الآن، بعد أن تهدّم على كل مَن فيه.. ألم تعلم ذلك؟؟

ـ التفت إليه الحاج مصطفى ذاهلاً وهتف:

ـ ماذا؟!

ـ تلك هي الحقيقة المُرّة.

صرخ في رعب:

ـ إن فيه زوجتي وابنتي!..

قال المدبولي:

ـ مئات غيرهما لاقوا نفس المصير التعس.

أمسك به الحاج مصطفى في جنون وصرخ:

ـ ماذا تعني؟؟ هل دُفِنا تحت الأنقاض؟!

ـ لا أعرف على وجه اليقين.. فالنساء والأطفال والشيوخ تركوا بيوتهم، محاولين الاختفاء في أماكن مأمونة.. إن الموت والدمار يحيطان بالناس من كل ناحية.. والفرنسيون يتقدمون.. ربما تكون أسرتك الصغيرة قد هربت.. مَن يدري؟!

وصاح الحاج مصطفى بأعلى صوته:

ـ أطلقوا الرصاص...

وانقذفت مجموعة من الطلقات، ثم أعقبها صمت مخيف..

وتمتم أحمد المدبولي:

ـ ثم ماذا؟؟ لم يعد هناك ما تدافعون به عن أنفسكم إلا العصي والطوب.. لكن مدافع الفرنسيين وقنابلهم قاسية لا

ترحم. . استمع يا حاج مصطفى. . إن الأطفال الجياع الخائفين يصرخون ويستغيثون. . وأنين الجرحى والثكالى يملأ الشوارع. . حسناً. . لنفترض أنك على حق. . ألا تقتضي الحكمة أن تحقن الدماء، وتدّخرها لمعركةٍ أخرى قد تكون بعد شهر أو شهرين أو عام؟. .

وعاد الحاج مصطفى بذاكرته إلى بيته. . آه. . زوجه هناك قابعة في حجرتها، تسمع الدويّ الذي يصمُّ الآذان، فيرتجف قلبها، وتسيل دموعها غزاراً. . وزينب المسكينة، تتأرجح نظراتها القلقة نحو السماء، هاتفة بقلبها الجريح. . والقذائف الملتهبة تضيء الليل البهيم. . يا للمساكين!! هل فاجأتهم قذيفة مجنونة فدمّرت البيت وأشعلت فيه النيران، فلفظوا أنفاسهم تحت الأنقاض، أم أنهم لاذوا بالفرار من الجحيم؟. .

وفكّر الحاج مصطفى أن يهرع إلى بيته ليطمئن على ذويه. . لكنه العار يا حاج مصطفى. . إن الآلاف يقفون صامدين في المعركة تاركين وراءهم أُسرَهم لا يعرفون عنهم شيئاً. . ثم مال على المدبولي قائلاً:

ـ «للبيت رب يحميه يا مدبولي».

ـ هذا حق. . .

ـ ورأسي يدور يا مدبولي. . أكاد لا أرى شيئاً. . ساقاي لا تستطيعان حملي. . لقد بذلت أقصى ما أستطيع بذله من جهد، لم تبقَ إلا حياتي التي استعصت على الموت. . لم أغادر مكاني في المعركة، ولم أكف عن العمل وإصدار التوجيهات، والاتصال

بكل الجبهات. . القذائف كانت تنهمر من فوق رأسي، وتسقط من حولي، والدماء تسيل في الشوارع بركاً كبيرة. . لكأنما الموت قد خاصمني يا مدبولي. . ليتني استرحت. . أنظر يا مدبولي. . الرجال يقبعون وفي أيديهم السلاح دون ذخيرة. . إنهم لا يتحركون. . ينظرون إلى أمام في حقد هائل. . هؤلاء الرجال لا يعرفون الخوف. . لكن أين الذخيرة؟. . انتهت المعركة يا مدبولي قبل أن نستسلم. . العدو لم يزل واقفاً ينتظر. . حتى الرجال العزّل يُدخلون في قلبه الرعب. . ماذا لو كنا نملك السلاح الذي يملكه؟. . ربما استطعنا أن ندفعه إلى قلب البحر، وربما تابعناه حتى أعتاب فرنسا. . لست أهذي يا مدبولي. . إن قوة الإيمان تحتاج معها إلى قوة الحديد. . الحديد يا مدبولي. .

ثم شهق الحاج مصطفى باكياً، وقال:

ـ لا مناص من التسليم حقناً للدماء كما تقول. . وبرغم الهزيمة التي حاقت بنا، إلا أنني أؤمن إيماناً قوياً لا يتزعزع أننا قد فعلنا شيئاً عظيماً. . يمكن أن تسميه بداية رائعة. . لهذا فأنا أرى أعلام النصر من بعيد تخفق فوق رؤوسنا في سماء القاهرة. . وأرى الفرنسيين ينسحبون يجللهم العار والذلّ. . أكاد أرى ذلك يقيناً.

قال المدبولي:

ـ لِتدَع المستقبل فهو بيد الله، لكننا ماذا نفعل الآن؟؟

والتفت الحاج مصطفى إلى رجاله قائلاً:

ـ ماذا ترون أيها الرجال الأبطال؟؟

قال واحد منهم:

ـ لم يعد في الأمر خيار.. إن النيران والدخان ورائحة الدم الغالي تزكم الأنوف.. يكفي ما قدّمناه من تضحيات..

قال الحاج مصطفى:

ـ أهذا هو رأيكم؟؟

طأطأوا رؤوسهم في أسى.. ثم قال:

ـ هذا أمر الله..

وبدا الارتياح على وجه المدبولي، وقال:

ـ أستطيع أن أحمل رسالتكم إلى الفرنسيين.

هزّ الحاج مصطفى رأسه في سخرية وقال:

ـ هذا فضل لن ننساه لك يا مدبولي... لكن انتظر.. يجب أن يرحل قادة المقاومة قبل أن يمسك بهم الفرنسيون.

قال المدبولي:

ـ لا بأس.. لكن الإفلات من الحصار أمر صعب للغاية.. وأنت يا حاج مصطفى.. إن الفرنسيين يعرفون دورك جيداً.. إن مشكلتك تستعصي على الحل، لكن لديّ فكرة..

قال الحاج مصطفى:

ـ ماذا؟؟

ـ تستطيع أن تختبىء في بيتي.

سدَّد إليه الحاج مصطفى نظرات شك وقال:

ـ في بيتك أنت؟!

ـ ولِمَ لا؟؟ ألستَ صديق العمر؟. .

ـ إنها مأثرة لا أنساها لك، وفضل كبير تغرقني به. . لكن، ألا يعرضك هذا للخطر؟؟

قال المدبولي في انفعال:

ـ إنني أعني ما أقول. . .

●

وخلا الميدان من الرجال في اليوم التالي. . أقفرت الطرق والميادين، وعلى ثرى بولاق الشهيدة يرقد القتلى والجرحى، ويمتزج التراب بالدم الزكي، والنيران لم تزل تشتعل في البيوت، والأنقاض والأخشاب تسدُّ الشوارع. . وأخذ المنادي ينادي في الشوارع:

ـ «مَن أرشد عن الحاج مصطفى البشتيلي فله مكافأة كبيرة. .
مَن أخفى البشتيلي فمصيره الإعدام. .
مَن لديه أية معلومات عنه فليتقدم بها». .

وانقذفت عساكر الفرنسيين، وكذلك «برتلمي» ورجاله، في مختلف أنحاء بولاق، ينبهون الوكائل، ويستولون على الحبوب والأخشاب والمتاع والبضائع، ويقتلون الكثير من الثوار، ويدققون في البحث عن السلاح. . وإلى جوار برتلمي مضى المدبولي شاحب الوجه مرتجفاً. . .

قال برتلمي للمدبولي:

ـ إنه صديقك القديم. . أعرف ذلك، ومن ثم فأنت أدرى

الناس بالأماكن التي يلجأ إليها.

قال المدبولي:

ـ إن الشيخ ابراهيم سلامة، أعزّ أصدقائه، قد قضى نحبه وتهدّم بيته.. والرجل الأعمى علي الجنجيهي هو الآخر قد فُقد، وبيته تحوّل إلى أنقاض.. ربما يكون البشتيلي قد لجأ إلى قريته «بشتيل» في الجيزة.

قال برتلمي:

ـ أتعتقد ذلك؟؟ لكن كيف يفلت من هذا الحصار الصلد؟! إن رجلاً معروفاً كالبشتيلي، لا يستطيع أن يمشي في الشوارع دون أن يلفت الأنظار إليه..

هزّ المدبولي رأسه في خوف وقال:

ـ الله وحده يعلم...

وعاد المدبولي إلى بيته وهو عاجز تماماً عن السيطرة على أعصابه.. ونظر إليه البشتيلي بعينين محتقنتين، وقال:

ـ لقد سمعتُ المنادي ينادي.. أعرف أنك قدّمتَ لي معروفاً لا يُنسى، لكني لا يمكن أن أعرِّض حياتك للموت، وخاصة أنهم ينظرون إليك كصديق، ولهذا فإن أبسط أخطائك ستكون كبيرة في نظرهم...

وصمت برهة ثم قال:

ـ ماذا قال لك برتلمي؟؟

ـ أنت تعرف مَن أنت، وهم يعرفون.

وارتسم الجدّ على وجه الحاج مصطفى وقال:

ـ لقد عزمتُ على الرحيل يا مدبولي . . ولن يعرف أحد أنني كنتُ في منزلك.

حاول المدبولي أن يتكلم، لكن الحاج مصطفى لوّح بيده قائلاً :

ـ إنني أعرف ما أفعل، وأقدِّر صنيعك أعظم التقدير.

قال المدبولي :

ـ ألا تنتظر حتى المساء؟؟

شرد ببصره قائلاً :

ـ نهار بولاق اليوم كليلها . . إن ما يعذبني هو أنني أجهل مصير زوجتي وابنتي وولدي . .

ـ لسوف أتدبر الأمر بعد رحيلك يا أخي . . .

●

خرج الحاج مصطفى ملثماً يحثُّ الخطى نحو المجهول، متخذاً الحواري والطرق الضيقة مساراً له . . الجنود الفرنسيون يجوبون الشوارع بعيون ثعالب، ورجال برتلمي يتحسسون الطرق ويدورون بنظراتهم كالذئاب الجائعة . . . «لو وقعتَ في أيديهم يا حاج مصطفى، فسيشربون من دمك، ويقتاتون من لحمك . . لكن الرب واحد . . والموت واحد» . . .

شعر بيدٍ ثقيلة تهوي على كتفه . . ونظر خلفه في رعب :

ـ مَن؟؟

رجل من الأروام كان يسكن بولاق من زمنٍ قديم، ثم التحق

بالعسس تحت رئاسة برتلمي. . دارت الأرض بالحاج مصطفى، لكنه استجمع قواه وانقضّ عليه بكلتا يديه، بعد أن صاح الرجل توجسّاً، وسرعان ما سقط الأرمني على الأرض. . ورفع الحاج عنيه إلى ما حوله. . لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة. . لا شك أنها مجرّد رؤى رهيبة. . إن بضعة من الرجال المسلحين يتقاطرون نحوه، وفي أيديهم البنادق والسيوف والحقد الأسود. .
وصاح أحدهم:
ـ لقد وقعت في أيدينا. . .

وسيق البشتيلي في جمعٍ حاشدٍ من الرجال المدجّجين بالسلاح. . وأهالي بولاق يرمقون الموكب الدامي من خلف الأنقاض، والجدران النصف مهدّمة، وما تبقّى من النوافذ والأبواب. . . البشتيلي يمضي رافع الرأس، وقد شعر بنهايته الأكيدة. . وملايين الصور تمرّ على ذهنه الملتهب. . زوجه. . إبنته. . ولده. . أصدقاؤه. . أحداث كثيرة. . القلعة بسورها الضخم وبوّابتها السوداء. . ليالي النضال الرهيبة. . امتداد ضخم لعمر طويل مليء بالحركة والحيوية والفكر. . حياة حافلة بكل ما تحمله كلمة «حياة» من معنى. . «مدد يا حسين. . يا بنت النبي نظرة. . وسيد الشهداء حمزة، ورجل أتى إلى إمام ظالم فنهاه فقتله». . ذكريات. . وأصوات نديّة تترنم بآيات القرآن الكريم. . أنين. . وبكاء. . قدرة وعجز. . ليل ونهار. . ضجيج يملأ رأسه. . لكنه يعرف الطريق جيداً. . «حيّ. . .مدد يا رسول الله». . . وأفاق من أحلامه وذكرياته على صوت يعرفه جيداً:

ـ مَن يظنّ أن كلباً تافهاً ضئيلاً مثلك يفعل كل هذا؟؟

قال الحاج مصطفى باسماً:

ـ تستطيع أن تقول أي كلام، لكنك لا تستطيع الحكم على الرجال لأنك لستَ برجل..

احتقن وجه برتلمي وصرخ:

ـ ماذا؟؟

ـ لا تتعجل يا برتلمي.. إنني أعرف مصيري جيداً.. لكن اعلم أن البشتيلي لم يكن سوى واحد من عامة الناس، وقتل البشتيلي لن يخمد الثورة التي تشتعل في القلوب ضدكم.. والمعركة مستمرة يا برتلمي حتى النصر.. والله أكبر..

قهقه برتلمي في شماتة وقال:

ـ أنظر إلى النيران من حولك.

ـ اللعنة على مشعليها.

ـ لن تحيق اللعنة إلا بك..

وقال برتلمي فجأة ليحطم كبرياء الرجل العنيد:

ـ لقد بحثنا عن جثتك تحت أنقاض بيتك، فلم نجد إلا إمرأتك وابنتك.. وقد فاحت رائحتهما المنتنة...

ضغط الحاج مصطفى على أسنانه، وشعر بما يشبه الدوار، وخُيّل إليه أن أكداساً من الصخور تتساقط على رأسه. لم يكن الأمر خيالاً كما توهّم البشتيلي، لأن برتلمي أشار إلى رجاله، فانهالوا على رأس البشتيلي بعصيّهم وبالقضبان الحديدية التي في أيديهم حتى سقط بعد أن تحطمت جمجمته تماماً..

وراح البشتيلي في غيبوبة الأبدية...

وتمتم برتلمي بعد أن انتهى كل شيء:

ـ لم يكن لـدينـا وقت للتحقيق والمحـاكمـة.. لقـد انتهى البشتيلي وانتهت بموته ثورة بولاق.. إن مما يسعدني أن الرجال الذين اتبعوه يرون بأعينهم مصيره التعس، ولعل بولاق قد تلقّت درساً قاسياً من مصرعه، ومما حاق بها من خسائر فادحة...

وهتف من خلفه صوت ذليل:

ـ نِعْمَ ما فعلت.. هذا عين الصواب..

وقبل أن يرحل برتلمي صاح في رجاله:

ـ أشعلوا النيـران في جثته، ولا تتـركوهـا حتى تستحيـل إلى رماد.. إن برتلمي يعرف كيف ينتقم، وكيف يؤدِّب المارقين...